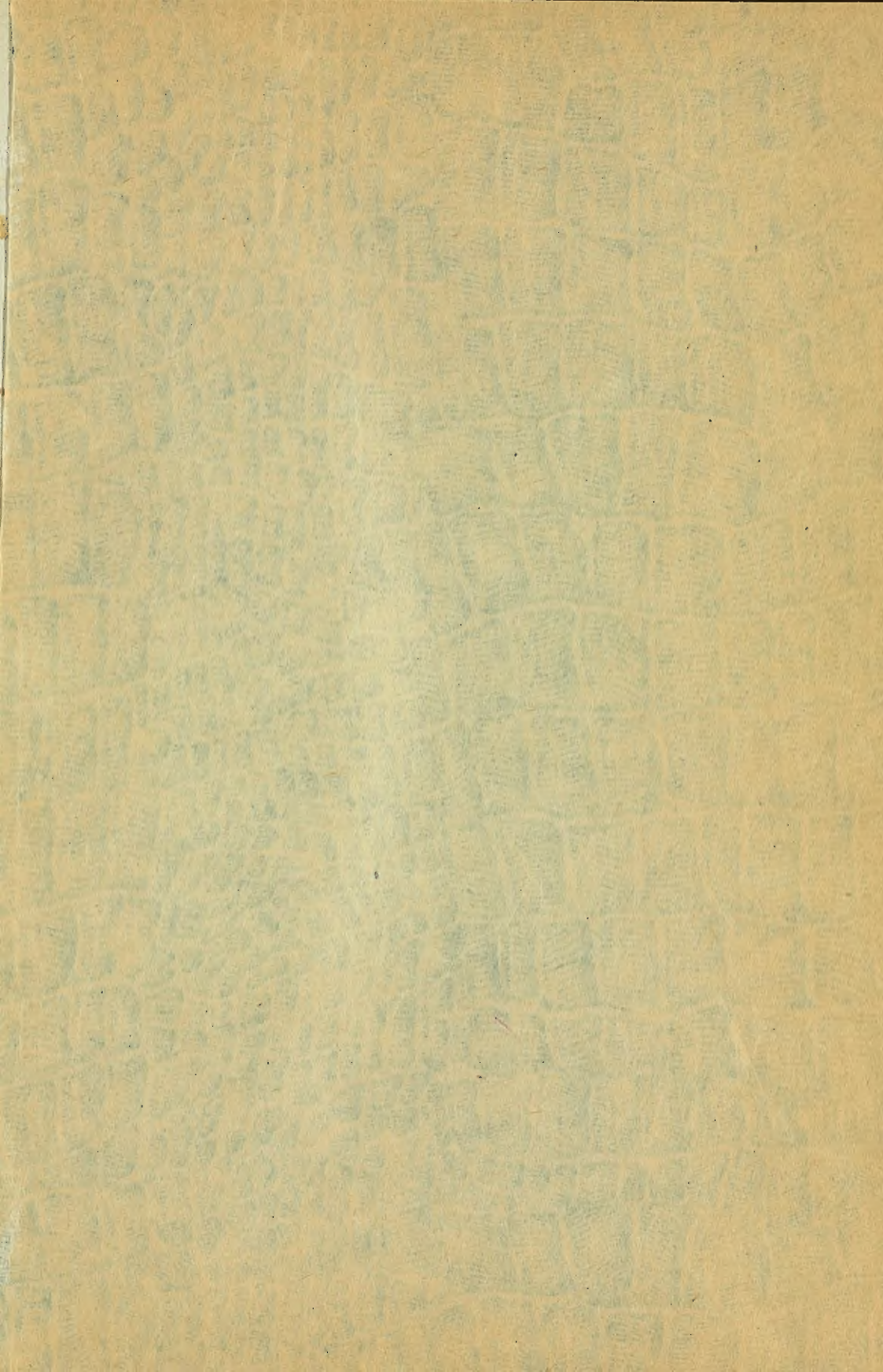


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







Col 800
6378

رسائلُ بنِ عَرم الأندلسي

« المجموعة الأولى »

مقفرا وعلو عليها وفرم لها

الدكتور
إحسان رشيد عيسى
كلية العلوم الجامعية

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الخانجي بمصر
ومكتبة المثني ببغداد

893.7Z-58

V

v.1

مقدمة

— ١ —

في مكتبة « شهيد علي » بالآستانة مخطوط رقمه ٢٧٠٤ . يرجع تاريخ نسخه إلى القرن العاشر الهجري ، مكتوب بخط نسخ جميل ولكن ما يكاد القارىء يمتضى في قراءة سطوره متأملاً متمعنأ حتى يحكم بأن جمال خطه يحجب وراءه كثيراً من الخطأ والتعريف . ويحتوى هذا المخطوط على ٢٦٥ ورقة ، في كل ورقة ٢٣ سطراً ، وفي كل سطر عدد من الكلمات يتراوح بين ١٠ و ١٤ كلمة . ويشمل في مجموعه كتاباً لابن حزم الأندلسي اسمه « كتاب الأصول والفروع » أو « كتاب يشتمل على أصول وفروع شتى » . وأبواب هذا الكتاب في جملتها صورة أخرى لكثير من الفصول التي وردت في كتاب « الفصل في الملل والتحلل » لابن حزم ، مع اختلاف يسير في التعبير ، لعله يوحى بشيء من الإيجاز والتلخيص ، أو لعل هذه الفصول كتبت قبل أن يكتب « الفصل » ثم أدخلها ابن حزم فيه كما هي عادته في تواليه ، على أن أحد الذين تملكوا هذا الكتاب ، كتب على هامش الورقة (٩٠) يقول إنه قرأ هذا الكتاب وهو كتاب المجلى لابن حزم من أوله إلى آخره قراءة بحث وتحقيق على الامام شهاب الدين أحمد الميلى المالكي . والمجلى هو الكتاب الذى شرحه ابن حزم فى المحلى ، ولكن المشابهة بين كتاب الفروع وبعض فصول كتاب الفصل تكاد تكون تامة حرفية ، فلعل ممتلك الكتاب وهم فيما قال .
ويلى كتاب الفروع خمس عشرة رسالة وردت على الترتيب التالى :

- ١ — رسالة البيان عن حقيقة الايمان .
- ٢ — رسالة فى معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها .
- ٣ — رسالة الدرة فى تحقيق الكلام فيما يلزم الانسان اعتقاده .
- ٤ — رسالة التوقيف على شارع النجاة .
- ٥ — رسالة فى الرد على ابن النغريلة اليهودى .
- ٦ -- رسالة فى الرد على الها تف من بعد .

- ٧ — رسالة في مسألة الكلب .
- ٨ — رسالة في الجواب عما سئل عنه سؤال تعنيف .
- ٩ — رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق .
- ١٠ — رسالة في الإمامة .
- ١١ — رسالة في ألم الموت .
- ١٢ — رسالة في أرواح الأشقياء .
- ١٣ — رسالة في الغناء الملهي .
- ١٤ — رسالة التلخيص لوجوه التخليص .
- ١٥ — رسالة في مراتب العلوم .

وتنقطع الرسائل عند هذا الحد ، وتنتهى مشتملات المخطوطة دون أن تتم ، إذ كان يجب أن ترد بعد الرسالة الخامسة عشرة رسالة « في الوعد والوعيد وبيان الحق في ذلك ... من السنن والقرآن » [كتبها] إلى الأمير أبي الأحوص معن ابن محمد التجيبي صاحب المرية .

ولما حصلت على صورة لهذا المخطوط الذى وصفته ، من معهد المخطوطات بالجامعة العربية ، وهو المعهد الذى وقف نشاطه الجم على جمع التراث العربى من أنحاء العالم ، تأملت هذه الرسائل وأنفقت وقتاً فى دراستها ، ثم اخترت من بينها الأولى والثانية والرابعة والسادسة والتاسعة والحادية عشرة والثالثة عشرة والخامسة عشرة وأعددتها للنشر ، وأبجأت لنفسى تغيير ترتيبها وتصويب ما رأيت فيها لا يستوى مع الوجه الصحيح كما رقت فقرات الرسالة المعنونة باسم « رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق » وهى — فيما أظن — الرسالة الوحيدة التى نشرت قبل اليوم ، دون سائر الرسائل التى تضمنتها المخطوطة فقد نشرت ثلاث مرات :

- ١ — بعناية محمد هاشم الكسبى (بمصر أو دمشق) ١٣٢٤ هـ
- ٢ — بعناية الشيخ عمر الحمصانى ، وذكر أن فيها زيادات على الطبعة الأولى ١٣٢٥ هـ .
- ٣ — طبعة الجمالية ١٩١٣ ، ومعها كلمات فى الأخلاق لقاسم أمين وتشغل

رسالة ابن حزم الصفحات من ٢ - ٥٣ ، وقد ذكرنا شرها أنها الطبعة الأولى . وهذه الطبعة الموسومة برقم (٣) هي التي استطعت الحصول عليها وقارنت بها النص الموجود لدى . ورمزت لها بالحرف « م » ، ووجدت من المقارنة أن نسخة « شهيد على » تزيد عن المطبوعة زيادات كثيرة ، وتوضح عبارات تبدو مستغلفة في المطبوعة « م » ، غير أني لم أثبت هذه الفروق والزيادات لأن « م » ليست أصلاً أعتمده ، وإنما اكتفيت بالإشارة إلى ما أفدته من « م » نفسها في التصويب والزيادة على الأصل الذي لدى .

وفي الترتيب الذي اصطنعته لم أقصد إلى معنى خاص ولكني حاولت أن أقدم ابن حزم إلى القارئ وهو يعنف في خصومته ويشهد في رده ، فذلك جانب هام شغل جزءاً كبيراً من حياته ، ثم أتبع ذلك بصورة ابن حزم وهو يتحدث إلى بعض أصدقائه في رسالة « البيان عن حقيقة الإيمان » ، وأوردت بعد ذلك رسالتين متقاربتين في موضوعهما تدوران حول العلوم وقيمتها . وفي رسالة « الغناء الملهي » التي جاءت بعد هاتين الرسالتين ما يصور ابن حزم الناقد للإسناد ، في سعة اطلاع ومعرفة وافية بالرجال وأصول التعديل والتجريح ، حتى إن الرسالة حين عرضت على ابن عبد البر لم يستطع أن يزيد عليها شيئاً من عنده . ويحىء بعد ذلك فصلان قصيران أحدهما فيه برهان على أن الموت لا ألم له ، والثاني عن معرفة النفس وغيرها وجهلها بذاتها ، وهذا الفصل يمتاز بجمال مزيد لأنه يركز على نوع من المناجاة ولأن ابن حزم راعى فيه جمال الأسلوب على غير عادته في سائر رسائله . وختمت هذه الرسائل جميعاً بصورة لابن حزم الحكيم المجرب الذي يدرس الحياة والأخلاق ، ويتغلغل في المجتمع فليس هو ابن حزم الشاثر في مطلع الكتاب وإنما هو المصلح الهادي الذي يتطلع إلى الوجود بعين فاحصة وذكاء حاد ، ويسجل خواطره فيما يراه ويسمعه على شكل مذكرات متقطعة .

ومن هذه المذكرات المتقطعة ومن نظرات أخرى نثرت هنا وهناك في تلك الرسائل ، يستطيع الدارس أن يقيم أسساً لفلسفة ابن حزم الاجتماعية . وقد نهى هذا الخاطر أول ما اتصلت به نفسي أن ابن حزم ربما كان من أوائل الرواد الذين مهدوا لابن خلدون طريقه لوضع علم الاجتماع ، فذهبت أفاقرن بين الرجلين

ودلتني المقارنة على اتفاقهما في بعض المظاهر مثل اعتقادهما أن التاريخ علم شريف الغاية « لأنه يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم والأنبياء في سيرهم حتى تتم في ذلك فائدة الاقتداء لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا » (المقدمة : ٩ ط . التجارية) .

ومنها إبطال علم النجوم لبطلان إمكان التجربة التي تحتاج آماداً طويلة لا يفي بها العمر الانساني ، ومنها الإيمان بسلامة البداوة في أجسام أهلها واستغنائهم عن علم الطب بطرقهم الخاصة ، إلى غير ذلك من نظرات لو جمعت لكان منها قدر صالح لإثبات مدى التشابه ، ولكنه — فيما يبدو لي — تشابه ظاهري يصل إليه كل مفكر على انفراد دون تأثر أو اتباع . وربما لم يكن ابن حزم من الأشخاص الذين تأثر بهم ابن خلدون ، فابن خلدون لا يذكره بين من عنوا بشيء من التفسيرات الاجتماعية ، ولا يحيل عليه حين ينصح الطلبة بقراءة كتب تفهمهم حقيقة السنة الإسلامية وتؤمن لديهم سلامة العقيدة ، وربما كان اتباع ابن خلدون للمذهب المالكي يباعد بينه وبين الاستئناس إلى رأى رجل ظاهري كابن حزم كان عنيفاً في خصومته للمالكية . ثم هنالك ذلك البون الشاسع في النظرة الاجتماعية عند كل منهما ، فابن حزم أقرب إلى الفيلسوف الأخلاق ، ومن هذا الوضع نفسه ينظر إلى المجتمع ، ويهتم بالفرد اهتماماً بالغاً ، أما ابن خلدون فإنه عالم اجتماعي لا يعير الفرد في فلسفته ومبادئه أدنى اهتمام . وابن حزم صاحب مذهب قائم على الاكتفاء بالنقل ، وهو يتخذ من هذا النقل شاهداً على صحة النبوات والشرائع والتواريخ بينما لا يرضى ابن خلدون بالنقل وحده في الخبر ، لأنه يتحمل الخطأ والدس والتشويه ، ومع كل ذلك فإن ابن حزم يظل مقدمة صالحة لذلك السموق الشاخ في الفكر الإسلامي كما يمثل ابن خلدون : أولاً في تلك النظرة الإجلالية للتاريخ واعتباره علماً وثانياً في ذلك التقدير لمعنى التعاون في الحياة الاجتماعية ، ذلك المبدأ الذي تلقاه ابن حزم عن أستاذه ابن الكتاني ودان به في نظراته للمجتمع ، فقد كان ابن حزم معجباً بقول ذلك الأستاذ « إن من العجب من يبق في هذا العالم دون معاونة لنوعه على مصلحة ، أما يرى الحراث يحرق له ، والطحان يطحن له ، والنساج ينسج له . . . وسائر الناس كل متول شغلا له فيه مصلحة وبه إليه ضرورة » (ص : ٨٣ من هذا الكتاب) . وعلى بساطة هذا الكلام فإنه يحمل أن يكون

أساساً لتحويل الناس في المغرب عن الاتكالية والخلول الذين كانوا يصحبان التصوف حينما حلّ . ومن هذه النظرة الإيجابية إلى التعاون الإنساني في المجتمع المغربي ، ومن تفشى الحياة الحاملة في طبقات الصوفية هنالك استمد ابن خلدون ، ولا بد ، شيئاً من تفسيراته . ومن مغالاة أهل الظاهر وإغراقهم في الاعتماد على النقل تولد لديه ما يصره بالطريقة المثلى لتصحيح الأخبار وتمحيصها ، فاهتدى إلى ضرورة المعرفة بالعمران البشري وقاده هذا إلى البحث عن مبادئ كامنّة وراء ذلك العمران . وإن رسالة «مراتب العلوم» ورسالة «مداواة النفوس» المدرجتين في هذه المجموعة لتصلحان للمقارنة الدقيقة بفصول من المقدمة ، دون أن توحى تلك المقارنة بشيء من الافتعال والاقتسار .

— ٣ —

والحياة الاجتماعية — في رأى ابن حزم — تقوم على محور ، أحد طرفيه موجب والثاني سالب ، أما الطرف الموجب فاسمه «الطمع» ومعناه بهذا التعميم : المحرك أو الدافع الداخلي الذي يوجه الفرد نحو هذا الشيء أو ذاك . فالطمع أصل في كل المظاهر الاجتماعية التي نراها من حب وطموح وحياة مادية وغير ذلك . وإذا أخذنا الحب مثلاً لنفسره على مبدأ الطمع وجدنا أنواعاً من الحب تختلف في الظاهر ، وترجع كلها إلى أصل واحد هو «الطمع فيما يمكن نيله من المحبوب» . ألسنت ترى جميع أنواع المحبين يتفقون في النهاية ، فيموت الواحد أسفاً على ولده ، والعاشق حزيناً على معشوقته ؟ كما يتفقون في التعبير عن هذا الحب فيغار الرجل على صديقه كما يغار الآخر على زوجته . ثم تأمل من يقرّ برؤية الله تعالى ويحنّ إلى تحقيقها تجده لا يقنع بشيء دونها لطمعه فيها ، ولكن الذي لا يؤمن بها أى لا يطمع فيها لا يحس بها أصلاً ، وترى المسلم يحب ابنة عمه حباً مفرطاً على قدر طمعه في أن تصير إليه بينما نجد النصراني الذي لا يحق له الزواج من ابنة عمه لا يحس نحوها بشيء إطلاقاً ، وترى هذا النصراني نفسه يعشق أخته من الرضاع بينما لا يحس المسلم بعاطفة نحوها لقلة طمعه فيها . ومعنى ذلك أن هذه الظاهرة الإنسانية التي تسمى «الحب» ليس لها وجود إيجابي — في رأى ابن حزم — إلا عندما يدفعها الطمع

إلى الوجود فتوجد وتتشكل وتصبح فعالة في حياة صاحبها . ولا يقتصر الطمع على توجيه الحياة الاجتماعية نحو الخير بل هو سبب للشر ، وهو يدعو صاحبه إلى الذل ، وهو الذى يحرك فى الأفراد الأنانية العمياء حتى يجعل بعض الناس يفضل إنجاز شئونه الخاصة قبل شئون بلده ووطنه ويؤدى بشخص آخر إلى أن يتلف نفسه ونفوس الآخرين فى سبيل الحصول على ما يحدوه الطمع إليه .

فإذا كان الطمع بهذه القوة فى حياة الأفراد فمن الطبيعى أن ينشأ عنه « الهمة » وهو الطرف السالب فى محور الحياة الاجتماعية .

ويصف ابن حزم جميع أدوار الحياة ومظاهرها بأنها محاولة لطرد الهمة ، وأن الناس جميعا يتفقون فى هذه الغاية سواء فى ذلك المتدين ومن لا دين له ، والحامل والزاهد والفيلسوف العازف عن اللذات وغيرهم . فطالب المال يكفد فى سعيه ليطرد « هم الفقر » والساعى وراء الشهرة يجرى إليها ليطرد « هم الخفاء والخنول » ، والراغب فى اللذة يطلبها ليطرد « هم الحرمان من اللذة » . ومثل ذلك فىمن أكل وشرب وتزوج ولعب ، فإن من يقوم بهذه الأمور إنما يحاول طرد الهمة الناشئة عن أضدادها .

ولكن المنافسة فى هذه الأمور تخلق هموماً جديدة كطعن حاسد أو ذم ذام . أما الشئ الذى يقتلع الهمة من جذوره دون أن يثير بين عناصر المجتمع هما جديد آفو التوجه إلى الله تعالى ، فتلك هى الغاية السليمة التى يمكن أن يسعى إليها الفرد مطمئناً ، يقول ابن حزم : « فاعلم أنه مطلوب واحد وهو طرد الهمة ، وليس إليه إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالى ، فما عدا هذا فضلال وسخف » .

ويظهر أن ابن حزم يؤمن بقوة الطمع فى تكبير جانب الشر فى الحياة ، ومن ثم آمن بأن الهمة دائماً شر ، ولكنه نسي أن الأكل والشرب والزواج واللعب وغيرها من الأمور التى تقوم بها الحياة الإنسانية ليست شراً وإن مسخرت لطرد الهمة ، وأن التوجه إلى الله تعالى لا يقضى عليها ، بل هى متجددة لأنها ضرورية ، ومن ثم يصبح طرد الهمة ملازماً لبقاء الحياة الإنسانية لا يزول إلا بزوالها . فإذا ارتبطت هذه الأمور كلها بغاية واحدة ، وهى التوجه إلى الله تعالى فليس ذلك طرداً

لهم ، ولكنه تهوين لشأنه ، وتقليل لآثره في السعي والعمل الإنسانى على ظهر هذه الأرض .

ومن هذه الملاحظة يتبين لنا أن ابن حزم يقترب في بعض نظراته الاجتماعية من رجال المدرسة النفسية ، فنظرية « الطمع » تشبه إلى حد كبير ما يقال عن الغرائز وأثرها ، بل إن اتخاذ اسم واحد للدوافع في نفس الفرد يقترب من رأى فرويد في حصره جميع الطاقات الغريزية في الانسان تحت اسم « لبيدو » واتخاذ غريزة الجنس ممثلة لكل تلك الطاقات والقوى . أما طرد الهم فيمكن أن يشمل ما يسمى في علم النفس الجماعى ، « الصراع النفسى والاجتماعى » وهذان النوعان من الصراع قد يحتوى أحدهما الآخر ، وقد يستقل عنه ، ولكن في الربط بين طرد الهم وفكرة التوجه الى الله يقترب ابن حزم من فكرة « الصراع الاجتماعى » الذى يتمثل في توجيه الرغبات الدنيوية نحو غاية مثالية .

ومهما يقلد في نقد الآراء الاجتماعية التى أوردها ابن حزم فلا يزال بعض تلك الآراء يقرّبه إلى أنفسنا . فنحن نحسّ كأن ابن حزم يتحدث عن مشكلاتنا الحاضرة وهو يقول : أشد الأشياء على الناس الخوف والهم والمرض والفقر (ص = ١٦٦ من هذا الكتاب) ونحن أيضا نعجب إعجابا بالغيا بنفاذ نظراته في المجموعة البشرية وشؤونها حين يقول : « تأملت كل ما دون السماء وطالت فيه فكرتى فوجدت كل شىء فيه من حى وغير حى ، من طبعه إن قوى أن يخلع على غيره من الأنواع هيأته ويلبسه صفاته ، فترى الفاضل يود لو كان كل الناس فضلاء وترى الناقص يود لو كان كل الناس نقصاء ، وكل ذى مذهب يود لو كان الناس موافقين له (ص : ١٤٩ من هذا الكتاب) . وعلماء الاجتماع المحدثون يرون في هذه الظاهرة ميلا إلى « الانسجام الاجتماعى » .

وتسلينا هذه النظرات الاجتماعية إلى ذلك المبدأ العام الذى لوّن تفكير ابن حزم في كلياته وجزئياته وهو « التوجه إلى الله تعالى » ، فقد كان هذا الاعتبار حاضرا في ذهنه عند كل قولة يقولها وكل رأى يبديه حتى استسلمت فلسفته إلى نوع من الزهد يوحى لأول وهلة أنه يتعارض مع مبادئه الاجتماعية ، ولكنه في الواقع

زهد صحيح سليم ، تستطيع أن تعتبره تحقيقاً دقيقاً للسنة الإسلامية ، ولا يضطلع به ، بمثل هذا الوضوح ، إلا رجل كابن حزم في تحرّيه ودقته وسعة اطلاعه وتشرّبه لروح الدين الإسلامي ، فابن حزم مؤمن بقيمة الزهد ، وتوجهه نظراته التشاؤمية أحياناً إلى تحبيب العزلة ، ولسكنه في مجموع نظراته يقهرهم أن الزهد هو المتطلب على النفعية جهد الطاقة ، وأنه التريية النفسية التي تضحي بالعجب ونقضى عليه ، ولذلك وفر كثيراً من جهده على توضيح الطرق التي يحارب بها العجب ، ومضى يدرس الأفراد حتى يقف على دوافع هذه الرذيلة في أعماق نفوسهم ليستطيع القضاء على تلك الدوافع في منابها . والزهد أيضاً هو التلون المحمود الذي يمثله الرسول ، وقد لخص ابن حزم سيرة الرسول في هذه الناحية تلخيصاً مبدياً حين قال « وقد كان رسول الله (ص) وهو القدوة في كل خير والذي أثنى الله تعالى على خلقه والذي جمع فيه تعالى أشتات الفضائل بتمامها وأبعده عن كل نقص يعود المريض مع أصحابه راجلاً في أقصى المدينة بلا مخف ولا نعل ولا قلمسوة ولا عمامة ، ويلبس الشجر إذا حضره ، ويلبس الوشي من الحبرات إذا حضره ، لا يتكلف إلى ما لا يحتاج إليه ولا يترك ما يحتاج إليه ، ويستغنى بما وجد عما لا يجد ، ومرة يمشى حافياً راجلاً ، ومرة يمشى بالخف ، ويركب البغلة الرائعة الشهباء ومرة يركب الفرس عرباً ومرة يركب الناقة ومرة يركب حمرا ، ويردف عليه بعض أصحابه ، ومرة يأكل التمر دون خبز . والخبز يابساً ، ومرة يأكل العنناق المشوية ، والبطيخ بالرطب والحلوى ، يأخذ القوت ويبذل الفضل ويترك ما لا يحتاج إليه ، ولا يتكلف فوق مقدار الحاجة إليه ، ولا يغضب لنفسه ولا يدع الغضب لربه عز وجل [ص : ١٤٣ من هذا الكتاب]

ولا شك أن رجال الدين الذي دعوا إلى الزهد الخالص في الدنيا أو الذين يفعلون ذلك ، في حاجة إلى أن يقرأوا هذه النبذة القصيرة التي تحدد معنى الزهد الطبيعي .

وبمثل هذه البصيرة النافذة وذلك الذكاء المدهش استطاع ابن حزم أن يحل كثيراً من المشكلات التي أثارها حياة الزهد على مر العصور ، فقد كان الزهاد يتجادلون حول الفقر والغنى وأيهما أفضل : الغنى أو الفقر ، ولما سئل ابن حزم « آلبلاء أفضل أم العافية والفقر أفضل أم الغنى ؟ » أجاب دون تردد : هذا سؤال

فاسد ، إنما الفضل للعباد بأعمالهم ونحن نسأل الله تعالى العافية والغنى ونعوذ بالله من البلاء والفقر ، وإنما الفضل بالصبر والشكر [الرسائل : الورقة ٢٣١]
وفى موطن آخر استطاع ابن حزم أن يوقفنا على رأى صريح واضح فى مشكلة الزهد الذى يدعو إلى المغالاة فى التعبد فقد سئل : ما الحدُّ الأعلى فى التعبد ؟ فكان جوابه : أنا أكره لكل واحد أن يزيد عن عدد ما كان يتنفل به نبيه محمد لوجهين : أحدهما : قول الله عز وجل « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » . والثانى أن يخطر الشيطان فى قلبه ، فيوسوس أنه قد فعل من الخير أكثر مما كان محمد يفعلهُ فيهلك فى الأبد ، ويهبط عمله ، ويجد صلاته وصيامه فى ميزان سيئاته [رسالة التخليص : الورقة : ٢٤٢]

فإذا كان لابن حزم نظرات اجتماعية صادقة أو فلسفة أخلاقية موضحة الحدود فلا بد أن تدرس هذه النواحي عنده فى ظل فكرته الدينية ، فهى التى كانت توجهه وتأخذ بيده فى كل سبيل وإن لم يتخل من تأثر عام ببعض مبادئ الفلسفة الأخلاقية عند أفلاطون وأرسطوطاليس كماولته أن يفسر قيام الفضائل على أربعة عناصر — تنشأ من تجمعها المركبات — وهى العدل والفهم والنجدة والجود ، وهذا يذكرنا برأى لأفلاطون ، كما يذكرنا مبدأ التوسط بين طرفين بتعريف الفضيلة عند أرسطوطاليس . ولا شك أن كثيرا من محاكات ابن حزم تظهر تأثره بالفلسفة والمنطق ، وهو الشيء الذى عابه به خصومه وشنعوا عليه بسببه . ولكن لا شك أيضا أن الفسكرة الدينية هى العامل الرئيسى فى توجيه ملكاته وذكائه ، فيها استطاع أن يقول إن علم الشريعة أفضل العلوم وأجلها ، وبسببها يظهر ابن حزم الناقد الأدنى جائراً فى أحكامه على الشعر ، فهو يراه من العلوم المتأخرة ، ولكنه فى حكمه خاضع لمبادئه الخلقية تمام الخضوع . ويرى أن يكون منهج التعليم قاصراً فى الشعر على شعر الحكمة كأشعار حسان وكعب بن مالك وصالح بن عبد القدوس ، ويرى كذلك أن يحال بين الطلبة وبين رواية أربعة أضرب من الشعر هى الغزل وأشعار التصعيلك وأشعار التغرب وشعر الهجاء (انظر ص ٦٥ — ٦٧ من هذا الكتاب) وهذا التقدير للشعر صادر عن مبدأ تربوى قائم على تحكيم المبدأ الخلقى فى تقويم الفن . ومهما يكن رأينا فى ابن حزم الناقد ، فلا شك أنه فى موقفه من الشعر

يمثل حلقة في تلك السلسلة الطويلة من قياس الشعر بمقاييس خلقية ، وإذا نحن أنكرنا هذا الرأي على ابن حزم فما هو إلا إنكار نظري ، لأننا نتبع ما يقوله بالفعل في تدريس الشعر للطلبة قبل انتقالهم إلى طور النضج ، ونجنبهم قراءة جزء كبير مما نهى عنه ابن حزم ، ولعل هذا عينه هو ما عناه ابن حزم في نقده للشعر لأنه يرسم منهاجاً في التعليم ويُخضع كل العلوم لمقاييس تربوية .

وبعد : فأنا معتبط بكل ما بذلته من جهد في تحقيق هذه الرسائل لأنني أومن بأنها تفتح أمام الدارسين ضروباً من الآراء والخواطر ، وليس يتسنى فهم شخصية ابن حزم نفسه دون الاطلاع عليها ، وبحسبها أنها تطلعنا على صفحة من كيد خصومه له وعلى ما كانوا يلصقونه به من تهمة ، وتعرفنا على الذين وقفوا يدافعون عنه ، وتدلنا كيف استعان أولئك الخصوم بالعلماء في الإمصار ليوقة وأبن حزم عند كده فكاتبوا إلى ابن زياد بدائية ، وعبد الحق الصقلي بصقلية . وهي ترسم لنا جانباً من أحواله العامة — كيف أصيب بمرض أنساه كثيراً بما كان يحفظ ، وكيف هاجمه ربو في الطحال نغص عليه سروره وأمال خلقه وأقصاه عن الفرح . وتدلنا أيضاً كيف شاع عنه بين أصدقائه أنه لا يحفظ سرا وأنه يتحدث بكل ما يسمع ، ومع أن ابن حزم أنكر هذا بشدة فإن ميله إلى الاعتراف — ذلك الميل الذي يصوره كتاب « طوق الحمامة » ، تصويراً وافياً — ينبئ أن اتهام أصدقائه له لم يكن عارياً عن الصحة .

ولان يفوتني في ختام هذه المقدمة أن أوجه الشكر لكل من اعانني في هذا العمل وأخص بالذكر صديق الأديب الباحث محمد يوسف نجم ، الأستاذ المساعد بالجامعة الأميركية ببيروت ، فإنه اضطلع بنصيب مشكور في مراجعة هذه الرسائل وتصحيحها ، فله مني وافر الشكر ، وله من الله حسن الجزاء .

وإني إذ أرجو أن يفيد القارئ من هذه المجموعة ، أنعشم أن أمضي في تحقيق ما بقي من رسائل ابن حزم ، مستمداً العون والتوفيق منه تعالى ، وهو ولي كل توفيق .

رسالة في الرد على الزائف من بعد

بالرأى والتقليد ، لا يعرفون غيره ، مخالفين لكل إمام سلف أو خلف .
وأما من كان مجتهداً مأجوراً أجراءً أو أجريين فليس ممن يُهمَلُ لساكنه
ويطلق كلامه ، بما ضرره عليه عائد في الدنيا والآخرة .

ثم قال : فلم تقنع بهذا المقدار في من هو في عصرنا ، ومن كان قبل ذلك
من علماء المسلمين ، حتى تخطيت إلى أصحاب نبيك محمد ، صلى الله عليه وسلم ،
وقلت إنهم ابتدعوا من الرأى ما لم يأذن به الله تعالى لهم ، وأحدثوا بعد
موت نبيهم صلى الله عليه وسلم ما لا يجوز .

قال عليّ : فاعلم أيها السائل أنك قد كذبت وما يعجز أحد عن الكذب إذا
لم يردعه عن ذلك دينٌ أو حياء . معاذ الله من أن ينسب إلى الصحابة شيئاً
بما ذكرت ، فكيف هذا ونحن نحمد (١) الله تعالى على ما منَّ به علينا من
الجرى (٢) على سنتهم : من ترك التقليد ورفض القياس واتباع القرآن
والسنن ؛ وإنما الواصف لهم بما ذكرت من راء أن أقوالهم لا ينبغي أن
تكتب ، وفتاويهم لا يجب أن تطلب ، وأنهم كلهم أخطأوا إلا فيما وافق
تقليده فقط ؛ فهذا هو الذى لا يقدر أحد على إنكاره من فعلكم لشدة
اشتباره ، والحمد لله رب العالمين .

ثم قال : فليت شعرى إذا كان ذلك كذلك عندك ، فسنن النبي ، صلى
الله عليه وسلم ، نقبل من تقبل (٣) فيها ؟

قال عليّ : فقد قلنا لك إنك تكذب فيما نسبت إلينا ، ونحن نقبل ديننا
عن الصحابة ، رضى الله عنهم ، وهم حجتنا فيما نقلوه إلينا ، وفيما أجمعوا عليه
وإن لم ينقلوه مستنداً ، ثم عن التابعين الثقة ، وأفاضل الرواة ، وهكذا عن
بعدهم من المحدثين ، فعن هؤلاء نأخذ ديننا ، ونقبل سنتنا . ولكن ، أيها

(١) في الأصل : بحمد

(٢) في الأصل : الجزاء

(٣) في الأصل : يقبل

الجاهل ، أما أنت وضر باؤك فقد استغنيتم بالرأى عن القرآن ، واكتفيتم بالتقليد عن سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما تتعنون (١) في نقل سنة ، ولا تشتغلون بحكم آية ، وهذا أمر لا تقدرون (٢) على جحوده ؛ فليت شعري ، مَنْ إمامكم في هذه الطامة ؟ وعن من بلغكم أنه قال : استغنوا بالرأى عن القرآن ، ومعاذ الله أن يقول هذا أحد من المسلمين لا سالف ولا خالف ؛ وأما نحن فلا نفى ليلنا ونهارنا ، ولا نقطع أعمارنا والله الحمد كثيرا ، إلا بتقييد أحكام القرآن ، وضبط آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعرفة أقوال الصحابة ، رضى الله عنهم ، والتابعين والفقهاء من بعدهم — رحمة الله على جميعهم — لا تقدر على إنكار ذلك ، وإن رَغِمَ أَنْفُكَ ، ونضجت كبدك غيظاً . وطريقتنا هذه هي طريقة علماء الأمة دون خلاف من أحدٍ منهم .

ثم قال : أنا ثم أنت أيها الرجل ؟ بل مفتونٌ جاهل .

قال على : فما نحن ، والله الحمد ، إلا أيقاظ إذا استيقظنا ، ونيام إذا نأنا . وأما الفتنة فقد أعادنا الله منها ، وله الشكر واجباً ، لأننا لا نتعصب لواحدٍ من الفقهاء على آخر ، ولا نثبتُ إلى أحدٍ دون رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولا نتخذ دون الله ولا رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، وليجة . وكيف لا نقطع بذلك وقد وفقنا الله تعالى لملة الإسلام ، ثم لنحلة أهل السنة أصحاب الحديث . ثم يسرنا لا تباع القرآن وسنن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وإجماع المسلمين ، إذ أحدثتَ وضرباءك سبيلَ الرأى والتقليد ، وأضربتَ عن القرآن والسنة . فأنت المفتون الجاهل حقاً ، إذ تنسکر على من اتبع القرآن والسنة وإجماع الأمة . وهذه هي الحقائق التي يقطع كلُّ مسلم على أنها الحق عند الله عز وجل . وأما وصفك لنا بالجهل ، فلعمرى إننا لنجهل كثيراً مما علمه غيرنا ، وهكذا الناس ، وفوق كل ذى علم عليم .

(١) تقرأ أيضاً : تعنون

(٢) في الأصل : تقدرون

وأما قولك « جاهل (١) » فلعلها صفتك ، إذ قامت حجة الله عليك ، وأعرضت عنها لعمى قلبك ، فنعوذ بالله مما ابتلاك به . ونسأله الثبات على ما أنعم به علينا من الحق .

ثم قال : [ومثلك] قد انطوى على خبث سريرة وأبدى بلفظه ما يجتنه ويستره (٢) .

قال علي : فنحن نقول : لعن الله الخبيث السريرة ، وإنما يعلم السرائر خالقها والمطلع عليها . ثم الذي يُيسرُها لكن ظاهرة مبدى عن باطنه . فمن أعلن بانواع كلام الله عز وجل ، والسنن الماثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإجماع المسلمين ، فذلك دليل على طيب سريرته ، ومن أعرض عن القرآن والسنن وعادى (٣) أهلها واتكل على التقليد ، وخالف الإجماع ، فهذا برهان على خبث سريرته وفساد بصيرته ، ونعوذ بالله من الخذلان .

ثم قال : وما أرى هذه الأمور إلا (٤) من تعويلك على كتب الأوائل والذهرية وأصحاب المنطق وكتاب اقليدس والمجسطى ، وغيرهم من الملحدين .

قال علي : فنقول ، وبالله تعالى التوفيق : أخبرنا عن هذه الكتب من المنطق واقليدس والمجسطى : أطالعتها أيها الهاذر أم لم تطالعتها ؟ فإن كنت طالعتها ، فلم تنكر على من طالعتها كما طالعتها أنت ؟ وهلا أنكرت ذلك على نفسك ؟ وأخبرنا عن الإلحاد الذي وجدت فيها ، إن كنت وقفت على مواضعه منها . وإن كنت لم تطالعتها ، فكيف تنكر ما لا تعرف ؟ أما سمعت قول الله عز وجل « فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم » (٥) وقوله تعالى « وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » (٦) .

(١) في الأصل : متجاهل

(٢) في الأصل : قد قال قد انطوى أبدى بلفظه ما تجتنه وتستتر . وعي عبارة مضطربة وقد أصلحتها بما يوضح المعنى .

(٣) نقرأ أيضاً : وعاب

(٤) في الأصل : هذا الأمور

(٥) آل عمران : ٦٦

(٦) النور : ١٥

ولكن قلة اشتغالك بالقرآن وعهوده تعالى فيه ، سهّل عليك مثل هذا وشبهه .
ولو كان لك عقل تخاف به الشهرة (١) ، لم تتكلم في كتب لم تدر ما فيها .
ثم خرج إلى السفه الذي هو أهله فقال : واعلم أن صورتك عندنا
أنك جمعت ثلاثة أشياء : قلة الدين ، وضعف العقل ، وقلة التمييز والتحصيل .
قال علي : فليعلم هذا الجاهل السخيف وأشباهه أن هذه الصورة
عندهم (٢) لا عندنا . وأن ذمهم زين لمن ذموه ، ومدحهم غضاضة على
من مدحوه لأنهم لا ينطقون عن حقيقة ، وإنما هم كالأنعام بل هم أضل
سبيلا . فليقل بعد هذا ما شاء ، لكن نحن نوضح إن شاء الله تعالى [أن هذه
الصفات التي ذكر هي صفات كاتب الصحيفة الخامسة (٣) . أما قلة دينه :
فاعتراضه بالجهل على القرآن . وأما ضعف عقله : فكلامه فيما لا يحسن . وأما قلة
تمييزه وتحصيله : فتهديده من لا يحفل به :

عوى ليروع البدرا (٤) وما كلب وإن نبهحا

ثم قال : أما قلة دينك فلما أظهرته من الطعن على الصحابة ، وتخطيتك (٥)
لهم وتسفيهك لآرائهم .

قال علي : فقد كذب هذا ومضى جوابه وأنه هو الطاعن عليهم ، المخطف
لهم ، المسفّه لآرائهم ، ببهان لا إشكال فيه ؛ وأنه تارك لجميعهم إلا ما وافق
تقليده ، فأى طعن على الصحابة ، رضى الله عنهم ، أعظم من هذا ! وأما تسفيهه
لآرائهم ، فهو يعلم من نفسه ، وغيره يعلم منه ، أن رأيهم كلهم عنده في نصاب
من لا يُلْتَفَتُ إليه ولا يُعْتَدُّ به في العلم ، إلا رأى من قلده دينه .
فأى سفه أكثر من هذا وأى تخطئة لهم تفوقه ؟ (٦)

ثم قال : وأما ضعف عقلك ، فلما ظننته بنفسك من أنك قت باظهار الحق

(١) الشهرة : الشعة والفضيحة

(٢) في الأصل : عندهم لا عندهم لا عندنا

(٣) في الأصل : الخامسة

(٤) في الأصل : ذا البدء

(٥) في الأصل : وتخطيطك

(٦) في الأصل : نفوته

وبيانه ، وأنه قد صحَّ لك منه ما لم يصحَّ لصحابة نبيك ، صلى الله عليه وسلم ، ولا اهتدوا إليه .

قال علي : فلو علم هذا المجنون الفاسق ، أن هذه صفته وصفة أمثاله لأَعْوَلَ على نفسه . فأول ذلك كذبه علينا أنننا ندعى أنه قد صحَّ لنا من الحق ما [لم] يصحَّ لصحابة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا اهتدوا إليه . وكيف هذا ولا نقول بغير السنن التي نقلوها إلينا ، وعرفونا بها ، ولا نتعدها . فكيف يصح لنا ما لم يصح لهم وليس عندنا شيء من الدين إلا من قبَلِهِمْ ونقلِهِمْ ؟ فقد صحَّ كذبه جهاراً . أما الصفة التي ذكر فصفته لأنه سلك تقليد مالك ، ولا يختلف اثنان أنه لم يكن قط في أصحابه رضى الله عنهم ، مقلد لأحد ، ولا موافق لجميع قول مالك حتى لا يحل عنه خلاف شيء منها ، فقد صحَّ يقيناً أن هذا الجاهل ، كاتب تلك الصحيفة ، هو الذي يظن نفسه أنه وقَّع من التقليد على علم غاب عن جميع الأمة ، فهو العديم العقل حقاً ، نعوذ بالله من الخذلان ، ونسأله الهدى والتوفيق .

ثم قال : وأنت إنما نَبَّعْتَ في آخر الزمان وفي ذَنَب الدنيا ، بعد البعد عن القرون الممدوحة (١) ، في وقت قلة العلم وكثرة الجهل فهذا عند (٢) كل عاقل من فساد حسك ونقصان عقلك .

قال علي : فأما قوله إننا في آخر الزمان ، فنَعَسَمُ ، وفي ذنب الدنيا والبعد عن القرون الممدوحة ، وفي وقت قلة العلم وكثرة الجهل . ولكن الله تعالى ، وله الحمد ، علمنا من فضله كثيراً ، وَيَسِّرَنا لسلوك طريق الصحابة والتابعين وأهل القرون الممدوحة ، ثم من بَعْدَهم لأئمة المسلمين وأعلام المحدثين ، إذ صرف قلبك عنهم ، ووقفنا لاتباعهم واتمسك بطريقتهم إذ أعماك

(١) أنظر معنى مشابهها لهذا فيما رَدَّ به ابن حزم على جماعة من المالكية سألوهُ أسئلة تعنيف (مجموعة الرسائل : الورقة : ١٨١) .

(٢) في الأصل : غر

عن ذلك ، وهدانا إلى طلب السنة إذ أضلك عنها (١) ، فَلَلهُ الحمد كثيرًا .
وقد صحَّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن هذا الدين بدأ
غريباً وسيعود غريباً ، طوبى للغرباء (١) » . والله الحمد [على ما وهب] (٣)
من قوة الحس (٤) وتمام التمييز : ومن ضعف حِسِّكَ وعدم عقلك ،
إِعْرَاضُكَ عَنْ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ اتِّبَاعِ مَا أَتَاكَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَقْبَلْتَ عَلَى مَا نَهَاكَ عَنْهُ [مِنْ] التَّقْلِيدِ .

ثم قال : وأما ضعف تمييزك وتحصيلك فظاهر في تناقضك . وذلك أنك
تَنْهَى عَنْ تَقْلِيدِ الصَّحَابَةِ مِنْ دُونِهِمْ وَتَحْتِ أَتْبَاعِكَ عَلَى تَقْلِيدِكَ ،
والتعويل على توأيفك ، وتذمُّ القول بالراى . وَأَنْتَ تُفْسِتُ فِي دِينِ اللَّهِ
عَنْ وَجَلٍ ، بِمَا لَمْ يَرِدْ بَيَانُهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ . وَلَا عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال على : فليعلم هذا الجاهل أنه كاذب (٥) في أكثر ما ذكر : أَمَا نَهَيْتُنَا
عَنْ تَقْلِيدِ الصَّحَابَةِ مِنْ دُونِهِمْ ، فَأَمَرَ لَا نُنْكِرُهُ ، وَنَحْنُ فِي ذَلِكَ مُوَافِقُونَ
جَمِيعِهِمْ فِي نَهْيِهِمْ عَنْ ذَلِكَ بِإِخْلَافٍ . أَيْنَكِرُ هَذَا السَّائِلُ أَمْرًا قَدْ صَحَّ بِهِ
إِجْمَاعُ الْأُمَّةِ كُلِّهَا ؟ وَهَلَا أَنْكَرُ هَذَا عَلَى مَالِكٍ إِذْ لَا يَخْتَلِفُ أَحَدٌ أَنْ قَوْلُهُ :
لَا يُقَالُ لَا صَاحِبَ وَلَا مِنْ دُونِهِ ؟ وَأَمَّا قَوْلُهُ إِنَّا نَحْضُ أَتْبَاعَنَا عَلَى تَقْلِيدِنَا
فَقَدْ كَذَبَ صِرَاحًا بِوَاحٍ (٦) ، وَمَا نَحْضُ أَصْحَابَنَا وَغَيْرَهُمْ ، وَلَا نَمْلَأُ كِتَابَنَا

(١) في الأصل : ضلك

(٢) انظر تخريج هذا الحديث وشرحه في رسالة لابن رجب الحنبلي سماها « كتاب كشف
السكرية في وصف حال أهل الغربة » — ط . مطبعة النهضة الأدبية ١٣٣٢ هـ .

(٣) زيادة بقضها المعنى

(٤) من قوة : مكررة في الأصل

(٥) في الأصل : كاذب في كاذب في أكثر . . .

(٦) في الأصل : نواحًا . والصراح : الخالص والبواح : البين . ويجوز أيضًا بفتح المعنى جهارًا

إلا بالأمر باتباع القرآن وسنن النبي صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة ، ومطالعة أقوال الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من العلماء ، وعرضها على كلام الله عز وجل ، وكلام نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يها شهدا (١) قلناه .

وأما دعواه (٢) بأننا نفق في كتبنا بما ليس في القرآن والسنة ، فقد كذب جهاراً علانية ، وكتبنا حاضرة مشهورة ، ظاهرة منشورة ، مافيا كلمة بما يقول . والحمد لله رب العالمين كثيراً . ولو تفكر هذا الجاهل فيمن هو المفتي بما ذكر لسخت عينه . ولعظمت مصيبتة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

ثم قال : فانتبه أيها الجاهل ، واعرف منزلتك . فإنك جاهل بمقدار نفسك .

قال على : فلو أوصى نفسه بهذه الوصاة (٣) أو قبلها لوفق ، فهي والله صفته يقيناً .

ثم قال : وحالك عند أهل التحصيل على وجهين : أحدهما ضعف العقل وقلة التمييز ، والثاني خبث السريرة وقصد التمويه والتطرق إلى أسباب قد تريدها ، والله تعالى بالمرصاد ، وعالم سرائر العباد .

ثم قال على : فليعلم هذا أن هذه هي صفاته ، وأما تشنيعه بما ذكر فنزلة تهيق ناهق وعواء عاو . ولن يعدم على ذلك خزيأ من الله عاجلاً وآجلاً ، ومقتاً من عباده عوداً وبدءاً ، والله حسيب كل ظالم .

وأما قوله : لئن (٤) لم تنتبه من رقدتك ، وتستيقظ من غفلتك ، وتبادر إلى التوبة من عظيم ما افتريت ، فسيرد فيك ، وفيمن يقصدك ويترك أن يقيم فيك

(٢) في الأصل : دعواهم

(١) في الأصل : فلا يها شهد

(٣) في الأصل : الوصاة

(٤) في الأصل : أين

حقَّ الله ، من أجوبة أهل العلم في أقطار الأرض ما ستعلمه (١) ، وأرجو أن يُريح الله منك العبادَ والبلادَ دون ذلك ، أو يصلحك إن كان قد سبق في علمه ذلك . ولتعلمن أيها الإنسان ، نبأه بعد حين - فنقول له : أيها المخدول عمّ إذا نتوب ؟ عن اتباع القرآن وسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة واتباع جميع الصحابة رضی الله عنهم ، وسلوك سبيل كل عالم في الأرض من المؤمنين ؟ فعاذ الله من التوبة من هذا . وإلى ماذا نرجع ؟ إلى رأى مخلوق لا يُعنى عنا من الله شيئاً وتقليده ؟ حاشا لله من ذلك . ولعمري لن نصححتَ نفسك ونظرت لها ، لترجعنَّ إلى ما دعوناك إليه من اتباع القرآن والسنة وإجماع الأمة ، وإلا فستردو وتعلم .

وقد استتبنا للعين المرید المرتد (٢) المتوجّه إليكم بهذه الأَكْذوبات المفتراة ، والفضائح المفتعلة ، وهو ابن البادية ، ولقينا (٣) العتي الذي حمّقى مَنْ حمّقى منكم ، ونحن نرجو عادةً الله فيمن عندك عن كلامه ، واستغنى عن كلام نبيه محمد صلى الله عليه وسلم « ولينصرنَّ الله من ينصره إنَّ الله لسمّوى عزيز (٤) » .

وأما وعيدك بأجوبة العلماء في أقطار الأرض :
فتلك أضاليلُ المسنى وغرورُها سَرَتْ بكم في الترهات البسباس (٥)
العلماء والله قسيمان لا ثالث لهما : إما عالم موافق ، وإما عالم أدّاه (٦)

(١) أبان ابن حزم (مجموعة الرسائل : ١٥٩) أن المالكية بالأندلس أثاروا العامة ضده ، ثم لما أخفقوا في ذلك سعوا به إلى السلطان وكتبوا له الكتب فخذلوا في ذلك أيضاً « فعاذوا إلى المطالبة عند أمثالهم فكتبوا الكتب السخيفة إلى مثل ابن زياد بدانيه وعبد الحق . بصقلية فأضاع الله كيدهم » .

(٢) في الأصل : المرتد المرتد

(٣) في الأصل : وبقينا

(٤) سورة الحج : ٤٠

(٥) البسباس : الكذب ، والترهات البسباس : الباطل ، وربما قالوا ترهات البسباس على الإضافة

(٦) في الأصل : أدّاه

اجتهاده إلى مخالفتي ، فهو إما سالك طرق أهل العلم في حُسنِ المَعَارضةِ والمخاطبةِ بالحجة لا بالخبط والتخليط والحماسة ، وإما مُمسِكٌ ساكتٌ ، لا كالطريق التي سلكت من التقحُّم في الفتيا ، قبل أن تُسْتَفْتَى ، والتهالك في السخف .

وأما قولك : أرجو أن يريح الله منك العباد والبلاد ، فإنما يريح الله من الكافر العائد عن كلام الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وأما المؤمن فمستريح .

وما أقول لك إلا كما (١) قال جرير (٢) :

تمنى رجال أن أموت (٣) وإن أمت

فتلك طريقٌ لست فيها بأوحد

لعل الذي ينبغي وفاتي ويرتجى

بها قبل موتي أن يكون هو الردي (٤)

والله لن مت . ما أسد قبورك ، ولا أوفر عليكم رزقاً . ولأردن على رب رحيم ، وشفيع مقبول ، لأنني كنت تباع كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، لا أتخذ دونهما وليجة . ولكن إن مت أنت ، فتقدم والله على رب خالفت كتابه ، وعلى نبي أطرححت أوامره ظهرياً وأطعته غيره دونه ، فأعدت للمسألة جواباً ، وللبلاء جلباباً ، وسترد فتعلم

(١) في الأصل : وأما قولك كما .

(٢) البتان من قصيدة في ملحى ديوان عبيد بن الأبرص : ٨٠ ولم ينسبهما أحد لجرير ، وقال الراجكوتى في ذيل السط : ١٠٤ إنه وجد الشعر في كتاب الاختيار منسوباً لما لك بن الذين الخزرجى وفي تفسير الطبرى ٣٠ : ١٤٥ بيت منسوب لطرفة بن العبد واطرأ آيائاً من القصيدة والخبر المتصل بها في أمالي القالى ٢ : ٢١٨ والعقد ٤ : ٤٤٣ وروج الذهب ٣ : ١٣٦ والبداية والنهاية ٩ : ٢٣٢ .

(٣) رواية ديوان عبيد : تمنى مريء القيس موتي

(٤) رواية البيت في ديوان عبيد :

لعل الذي يرجو رداى وميتى سفاهاً وجبناً أن يكون هو الردي

ولا عليك إن متَّ عاجلاً أو تأخر موتي ، فلقد أبقى الله تعالى لك ولأمثالك
 مما أعانني الله ووفَّقني له حزناً طويلاً ، وخزياً جزيلاً ، وكسراً لكلِّ رأى
 وقياس (١) ونصراً للسنة مُؤزَّراً ، ولينصرنَّ الله من ينصره ، فهل
 تَرَبَّصُونَ بنا إلا إحدى الحسنين .

وبعد ، فلتطبَّ نفسك بعد أن تُذيقها بَرْدَ اليأس ، على أن تُعارضَ
 بهـوسٍ ما في تلك الرسالة الحقَّ الواضح ، وكيف تعارضُ نصَّ القرآن
 والسنة ؟ هيهاتَ من ذلك . فأقصرْ فهو أروح لك ، وأجملُ بك (٢)
 إن شاء الله تعالى . والسلام على من اتبع الهدى ورحمة الله وبركاته عليه
 وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد وآله
 وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل .

تمت الرسالة في الرد على الهائف من بعد
 بحمد الله وشكره وحسن توفيقه والله الحمد والشكر
 دائماً أبداً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

(١) في الأصل : قياساً .

(٢) في الأصل : واجع لك

رسالة البيان عن حقيقة الإيمان

رسالة البيان عن حقيقة الإيمان

كتب بها رضى الله عنه إلى أبى أحمد عبد الرحمن بن خلف المعافى
الطليطلى المعروف بابن الحوات ، رضى الله عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله
قال الفقيه الحافظ أبو محمد على بن حزم رضى الله عنه :
الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وعلى آله
الطيبين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته الفاضلين ، وسلم تسليماً كثيراً
وبعد ، فإنه وردنى ياسيدى وأخى كتابك ، أكرم كتيب الأجابة فى الله
عز وجل ، وحمدت الله تعالى عز وجل على ما أدى إليه من صلاح حالك .
وأورد على صاحبنا أبو عبد الله محمد بن الحسن (٢) — أكرمه الله — من
خبرك ما أبهجنى ، وملاً نفسى سروراً ، فلن تزال الدنيا بخير ، مادام مثلك
مرفوع اللواء ، معصوم الفناء ، وحمدت الله عز وجل على ما ذكرته فيه من
حسن معتقدك لى ، فهذا الذى يلزم بعضنا لبعض ، فنحن غرباء بين المتعصين
على من سلم لهم دينهم ، ليسلم له دينه . ووقفت على قولك فيه : إنه لولا
خوف المشغعين ، وما ذهبننا به من ترؤس الجاهلين ، لكتبت أقوالك
ومناهيك وبتكشفتها فى العالم ، وناديت عليها كما ينسأدى على السلع .
فاعلم يا أخى ، وفقنا الله وإياك ، أن خوفك المشغعين لا يكف عنك
عرب أذاهم . لو قدروا لك على مضرة ، وأن كشفك الحق وصدعك به

(١) كان ابن الحوات إماماً مختاراً يتكلم فى الحديث والفقه والاعتقادات بالحجة ، قوى
النظر ، ذكى الذهن سريع الجواب ببلغ اللسان وله تواليف جيدة ومشاركة قوية فى الأدب والشعر
لقيه الحميدى تلميذ ابن حزم بالمريه ، وتوفى قريباً من سنة خمسين وأربعمائة (أنظر جذوة المقتبس
رقم ٥٩٠ وبتغية المنتسب للضبي رقم ٩٩٧) .

(٢) يعرف بابن الكتاتنى وقد ذكر الحميدى (الجذوة : ٣٥) أنه كان ذا مشاركة قوية
فى علم الأدب والشعر ، وله تقدم فى علوم الطب والمنطق وكلام فى الحكم ورسائل وكتب
معروفة ، ولابن حزم صلة وثيقة به واستشهاد ببعض أقواله — أنظر رسالة ابن حزم فى مراتب
العلوم (وهى الرسالة الرابعة فى هذا الكتاب) .

لَا يَقْدُمُ إِلَيْكَ مَوْخَرًا عَنْكَ . أَخْشَوْنَ النَّاسَ ، فَإِنَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، (١) . يَقُولُ الْوَاحِدُ الْأَوَّلُ خَالِقَنَا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
« فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي » . (٢) .

يَا أَخِي : اجْتَهِدْ لِرَبِّكَ ، وَادْعُ إِلَيْهِ وَخَفْهُ فِي النَّاسِ ، يَكْفِكَ اللَّهُ
تَعَالَى أَمْرَهُمْ ، وَلَا تَخَفْهُمْ فِيهِ ، فَيَدْعُكَ وَإِيَّاكُمْ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ ، قَدْ سَبَقَ الْقَضَاءُ
بِمَا هُوَ كَائِنٌ فَلَنْ يَرُدَّهُ حِيلَةٌ مُحْتَمَلَةٌ ، وَكَائِنٌ بِالْمَوْتِ قَدْ نَزَلَ ، فَتَرَكْتَ
مَنْ تَدَارِيهِمْ مُسْرُورِينَ بِذَهَابِكَ ، لَا يَنْفَعُونَكَ بِنَافِعَةٍ . وَاذْكُرْ قَوْلَ نَبِيِّكَ
مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَعْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « لَا أَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِهَذَاكَ رَجُلًا
وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » .

وَلَقَدْ أَضْحَكَنِي قَوْلُكَ : إِنَّكَ عَلِمْتَ مِنْ مَذْهَبِي أَنِّي أَفْصَحُ بِكُلِّ مَنْ قَالَ
مَقَالَةً ، خَشِيتُ أَنْ أَفْصَحَ بِاسْمِكَ فَيَا لَمْ تَقْلُ لَهُ ، فَعَاذَ اللَّهُ أَنْ أَفْصَحَ عَنْكَ
أَوْ عَنْ غَيْرِكَ ، إِلَّا بِالْيَقِينِ الْحَضِّ ، وَأَمَّا إِذَا عَلِمْتُ أَنَّ الْإِخْوَانَ
يَكْرَهُ أَنْ أَفْصَحَ عَنْهُ بِمَقَالَةٍ يَقُولُهَا ، فَهِيَ مَدْفُونَةٌ خِلَالِ الشَّغَافِ ، لَا سَبِيلَ
إِلَى تَحْرِيكِ لِسَانِي بِهَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي ، بِحَيْثُ يُمْكِنُ أَنْ يَسْمَعَنِي سَامِعٌ ، فَكَيْفَ
أَنْ أُبَشِّرَهَا ؟ وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ أَكْرَهُ أَنْ تَبْتَغِيَ عَنِّي مَا أَقُولُهُ عَلَى حَسْبِهِ .

وَأَمَّا قَوْلُكَ : أَمَّا تَقْصِدُ الْآنَ إِلَى أَنْ لَا يُوَثِّرَ عَلَيْكَ قَوْلُ إِلَّا حَتَّى تَسْتَخِيرَ
اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ كَثِيرًا ، وَتَصَحِّحَ نَيْتَكَ فِي ذَلِكَ ، فَخَسَّنْ جِدًّا وَحَالَ لَا يَنْبَغِي
لِأَحَدٍ تَعَدِّيَهَا .

وَأَمَّا قَوْلُكَ : حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ إِلَى حَدِّ الْحَسْبَةِ وَالصَّبْرِ ، إِنْ كَانَتْ مَحَنَةٌ ،
تَنَابَوْتَ الْأَوْكِدَ فَالْأَوْكِدَ ، فَحَالَةٌ أُرِيدُ أَلَّا تَتَصَوَّرَهَا وَلَا تَتَمَثَّلَهَا فَإِنَّهَا
مَبْخَلَةٌ مُجْتَبَنَةٌ ؛ وَتَذَكَّرْ قَوْلَ الْعَامَّةِ : فَلَنْ يَحِبَّ الشَّهَادَةَ
وَالرَّجُوعَ إِلَى الْبَيْتِ ؛ مَعَ أَنِّي أَرْجُو الْكَفَايَةَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالْحَيَاةِ ؛

(١) النُّبُوَّةُ : ١٣

(٢) آلِ عِمْرَانَ : ١٧٥

واذكر قوله ووعد الصديق المضمون عندي إذ يقول تعالى « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ». (١) والله يا أخي ، والله الحمد ، لقد حماني تعالى ، وما أعدمني من مَخَافِي مَقَاتِي مَنْ يذودُ عَنِّي وينبُ عن حوزتي أشدَّ الذب ، وإني لأدعو الله لهم مدى عمري . أولهم القاضي أبو المطرف عبد الرحمن بن أحمد بن بشر (٢) وأبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الرؤوف الحكم — نسوّر الله وجهيهما ، وجازاهما بأفضل سعيهما ، فلقصد قام لي منهما ما يقوم من الأخوين المحبين . ثم أبو العاصي حكيم بن سعيد ، غفر الله ذنبه ، وتغمد خطاياه ، وقارضه بالحسنى فإنه أبلى في جانبي أتم بلاء ، وما قصر يونس بن عبد الله بن مغيث شيخنا (٣) نَصَرَ الله وجهه ، وأكرم مُنْقَلَبَه ولقد بلغ أبو جعفر أحمد بن عباس (٤) من ذلك الغاية القصوى ، واستشار الأجر الجزيل والذكر الجميل . برّده الله مضجعه ، ولقاه الروح والريحان ؛ ثم الكاتب الفاضل ذو المآثر العالية والفضائل السامية والأعمال الزاكية والسعي المحمود ، أبو العباس (٥) المشغوف بالعلم وتقديم الحسنات كشغف

(١) انظر ص : ١١ من هذا الكتاب

(٢) ترجم له الحميدي في الجذوة (رقم ٥٨٨) وابن بشكوال في الصلة (ص ٣١٩ — ٣٢١) وابن سعيد في المغرب (رقم : ١٠٠) والنهاي في المرقبة العليا (ص ٨٧) . ولاء علي ابن حمود القضاء سنة ٤٠٧ فبقي فيه إلى آخر سنة ٤١٩ وكان مامراً بالحكومة مع حلاوة اللفظ وحسن الخط ، وعابه ابن حيان مؤرخ الأندلس بالشعبية وبتعبده عن الرحلة إلى المشرق ، وإليه كتب ابن حزم قصيدته البائية التي يفخر فيها بنفسه وأثنى عليه بالعلم . وقد توفي أبو المطرف عام ٤٢٢ هـ . (٣) أنظر ترجمته في الجذوة : ٩٠٩ والبغية ص ٤٩٨ والصلة ص : ٦٢٢ والمرقبة العليا ص ٩٥ : وكان يونس من أعيان أهل العلم أخذ عنه ابن حزم وابن عبد البر ، وعرف بالزهد والميل إلى التحقيق في التصوف وألف فيه كتباً وقد تولى القضاء بعد أبي المطرف ، وبعد أن أثنى عليه ابن حيان بعرفته الحديث والشهرة في الخطابة والتقدم في علم اللسان والآداب ورواية الشعر ذمه لأنه لم يحج ، ولأنه كان يحب الدنيا ويزدلف إلى الملوك — توفي يونس سنة ٤٢٩ هـ . (٤) المشهور بهذا الاسم والسكنية في زمان ابن حزم أبو جعفر أحمد بن عباس الأنصاري وكان كاتباً بارعاً في الفقه ، معروفاً بحبه الشديد لجمع الكتب وبخلة بها ، بلغ مرتبة الوزارة ثم قتله باديس بن حبوس سنة ٤٢٧ هـ . (أنظر الإحاطة ١ : ١٢٩)

(٥) أكاد أقطع بأن أبا العباس هذا هو أحمد بن رشيقي الكاتب الذي سبق في صناعة الرسائل وشارك في سائر العلوم ومال إلى الفقه والحديث وقدمه الأمير مجاهد العامري على كل من في دولته ، وكان يجمع العلماء والصالحين ويؤثرهم وبصالح الأمور جهده وقد رآه الحميدي تلميذ ابن حزم وروى عنه (انظر الجذوة : ٢٠٧)

غيره بالأموال واللذات ، صديقك ومحبك ومؤثرك ، لازالت عليه من الله واقية في دنياه فلقد هياه وَيَسَّرَهُ لِمَنَافِعِ عِبَادِهِ ، وأجرى الصالحات على يده كثيراً . وألحقه إذا دعاه بنبيه في أعلى عليين ، آمين . والله المستعان ، وعليه الاتكال .

أما قولك : إنك تتناول في خلال ما تتناول بضروب من السياسة حُسن جداً . جعلنا الله وإياك من الداعين إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة .

ومن أعجب ما مرَّ بي منذ دهر قولك في كتابك : إنه بلغك عني أني أقول عنك إنك تقول : لا إدام إلا الخُل ؛ من أجل حديث النبي صلى الله عليه وسلم « نعم الإدام الخُل » . (١) فاعلم — يا أخي — أنه قد ساء في هذا جداً أن أكون عندك بهذا الخُل . وأقلُّ ما أقول لك : والله الذي لا أقسم بسواه — ولو علمتُ أعظم من هذا القسم لأقسمتُ به لك ، وأعوذ بالله أن أعتقد في العالم قسماً غيره ، فكيف مثله ، فكيف أشد منه — إن كنت قط سمعت هذه المقالة من أحد من خلق الله تعالى يحكيها لي عنك ، ولا رأيتها عنك في كتاب ، ولا طُنت على أذني حتى رأيتها في كتابك ، فكيف أن أحكيها عنك . فاستجيز الكذب البحت عليك ! حاشا لله من هذا . وليس هذا النص من دليل الخطاب . إنما كان يمكن أن يتأول على من يقول بدليل الخطاب : لا نعم الإدام إلا الخُل . وأما القطع بأن لا إدام غيره ، فليست هذه القضية مقتضيةً هذه الأخرى . فبالله إلا ما أعرضت عن كل شرير يريد أن يُسَمِّعَ الناس سببهم على السنة غيرهم .

ورأيت المدرجة ووقفت عليها . أسأل الله أن يجعلنا وإياك ممن يستمع القرآن والقول فيتبع أحسنه ، والجملة التي أوردت من قولي فيها فهو قولي أيضاً . وكذلك وقفت على الفصول التي ذكرتني بها ، أحسن الله جزاك على ذلك ، فهكذا تكون الناس .

(١) أنظر حديث « نعم الإدام الخُل » في شرح صحيح مسلم ٦ : ١٤

أولها قولك : انظر هل فرض الله تعالى النظر أم لا (١) فجوابي إنه لم يفترض قط في التوحيد وصحة النبوة وجميع الشرائع ، النظر ؛ بل إنما افترض في كل ذلك اتباع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقط . ولو فرضه الله تعالى فيها ، ما جاز قبولها من أحد حتى يقرر على الوجه الذي صح به عنده التوحيد والشرعة كلها ، فتثبت يا أخي ها هنا ، فإن نظري ونظرك لا يحكان على ميراث الأمة عن نبيها صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما افترض على الناس في الشرائع كلها شيئاً واحداً وهو الائتثار لما جاء به الوحي من عند الله تعالى فقط . فهذا الوجه خاصة ، هو الذي افترض على الناس عقده ، والقول به ، والعمل . وأما طرق الاستدلال التي عني بها المتكلمون فما افترضها الله تعالى قط على أحد . وأقول قولة أقدم لك فيها مقدمة تصلح بعض ما يمكن أن ينكره منك من قولي وهي : إنني أريد أن أقول قولاً يعينني الله من أن أقوله مفتخراً أو ممتدحاً ، لكن سياق الكلام والحجة أوجب أن أقوله وهو : إنني والله الحمد لست بمنحوس الحظ من هذا العلم ، أعني علم أهل الكلام وطريقتهم في الاستدلال (٢) فيظن ظان أني إنما قلت ما قلت عداوةً لهم جهلته ، لا ولمكن الحق لا يجوز أن يسعدني . وأما قول الله تعالى « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق من شيء » (٣) وقوله « أو لم يتفكروا » وقوله « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففقتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا

(١) يتحدث ابن حزم عن هذه المشكلة في الفصل (٤ : ٣٥) وعقد لها فصلاً عنوانه هل يكون مؤمناً من اعتقد الإسلام دون استدلال ، وهو في موقفه من إنكار الاستدلال والنظر يرد على الطبري والأشعرية .

(٢) ذكر ابن حزم كيف بقي سنين كثيرة لا يعرف الاستدلال ولا وجوهه ثم تعلم طرقه وأحكامها (الفصل ٤ : ٣٨ - ٣٩) قال : فإزادنا يقيناً على ما كنا بل عرفنا أننا كنا ميسرين للحق . . . لكن أرانا صحيح الاستدلال رفض بعض الآراء الفاسدة التي نشأنا عليها فقط كالقول في الدين بالقياس .

(٣) سورة الأعراف : ١٨٥

يؤمنون ، (١) وسائر الآيات التي في معنى هذا ، فإنك يا أخى إن تدبرتها ، كفيئنا التعب ، وهى أنها كلها بلفظ الحض لا بلفظ الأمر ، وهذا قولى نفسه وأما الأمر بالاعتبار فليس من هذا الباب ، إنما هو الأمر بالاعتناظ بمن هلك ممن عصى الله تعالى فيخاف العاصى له عز وجل مثل ذلك فقط ، وليس شئ من هذا يوجب أنه لا يصح لأحد اسم التوحيد وحكمه عند الله تعالى إلا بأن يكون اعتقاده إياه من طريق الاستدلال .

وأما قولك : انظر الأدلة المحرمة للتقليد (٢) فأنا أريد أن تتفقد وأن تتدبر كلاه ، فإنك تجده صفرأ من مدح التقليد ، وعلوه أ من ذمه ، وليس فى قولى إن من أتفق له معرفة الحق بمعنى اعتقاده من جهة التقليد فإنه من أهل الحق عند الله تعالى وإن كان مذموماً فى تقليده لافى اعتقاده الحق ، ما يوجب على أنى أبيع التقليد ، وأنا لم أبحه قط ، لافى التوحيد ولا فى غيره . إنما هو عندى كإنسان خرج ليسرق فاتفق له أن وجد متاعاً له قد كان سرق منه فأخذه : هو مصيب فى اعتقاده الحق ، مسىء فى تقليده . وتأمل القرآن كله لا تجد فيه إلا الحض على البحث لا على إيجابه البتة ، وإنما تجد فيه ذم التقليد إذا وافق الباطل فقط ، فهنا لك ذم الله تعالى اتباع الآباء والسادة والكبراء والأخبار . وهنا ذم الله على كل حال . وأما إذا وافق الحق فقد قال الله عز وجل « والذين آمنوا وأُتْبِعَ نَافِلُهُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ ، أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » (٣) ، وأمر الله تعالى باتباع ما أجمع عليه أولو الأمر

(١) سورة الأنبياء : ٣٠

(٢) انظر المحلى : ٦٦ فى تحريم التقليد وإبطاله : وخلاصة رأى ابن حزم أن التقليد هو أخذ المرء قول من دون رسول (ص) ممن لم يأمرنا الله عز وجل باتباعه قط ولا بأخذ قوله بل حرم علينا ذلك ونهانا عنه وأما أخذ المرء قول الرسول فليس تقليداً بل هو إيمان وتصديق واتباع للحق .

(٣) سورة الطور : ١٢ : وأُتْبِعْنَا هُمْ قِرَاءَةَ أَنْبِيَاءِهِمْ ، وذُرِّيَّتَهُمْ عَلَى الْجَمْعِ مَنْصُوباً فِيهِمَا وهى قراءة البصريين وابن عامر وقرأ الباقر بن غير ألف على التوحيد ، وقرأنا فى مصحفنا « وأُتْبِعْنَا هُمْ ذُرِّيَّتَهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » .

منا بخلاف أولى الأمر إذا اختلفوا ، فهذا جاءت النصوص ولا مدخل للنظر على ما جاء به كلام الله تعالى .

وأما قولك لى أن انظر ما فى الفطرة من خطأ الاقتصار على الدعوى ، فلم أحمد ذلك أصلاً ، ولا أمرت به ، وإنما قلت وأقول إن المقلد مذموم فى تقليده ، فإن أصاب الحق بتوفيق الله عز وجل له إليه ، فهو من أهل الحق ، وإن حصل عليه بطريق غرر ، وهما عمالان متغايران ، وفق فى أحدهما ولم يحمد فى الآخر . وهذا جواب قولك لى : إذ كلُّ قائل مدع ، فيجب أن لا يؤخذ بقول أحد من المختلفين والقائلين أو يؤخذ بقول جميعهم وكلا الأمرين خطأ . فتأمل يا أخى ، إنك ألزمتنى ما لا يلزمنى وأنا لم آمر قط بالتقليد : فاضبط عني : إنما قلت التقليد مذموم فإن أدى إلى باطل فصاحبه إما كافر إذا وافق كفراً ، وإما فاسق إذا وافق خطأ فى الشريعة ، وإما مخطئ فيه إذا وافق الصواب بالبحث ، ولم أقل قط إنه واجب ، أو يؤخذ بقول مدع ، ولا أنه جائز فضلاً عن أن يكون واجباً ، ولا أنه ممكن أيضاً ، ولا قلت قط إنه جائز أن يؤخذ فيقول قائل ما بلا دليل ، فكيف أن أوجهه ! لكن قلت إن القول بالحق واجب لأنه حق .

أما قولك لى : فكان عندك جائز أن يقول النبی صلى الله عليه وسلم : قلدى فى فى قولى . فجوابى إنه عليه السلام لم يقله ، ولو قاله لوجب وليكنه لم يقله ، لكن قال : قولوا لا إله إلا الله وإنى رسول الله ، فهذا واجبٌ يبين عند الله تعالى وعند كل مسلم . ولم يقل عليه السلام قط ، ولا أحد من الخلفاء بعده ، إنه لا يلزمكم هذا القول أن تقولوه إلا حتى تستدلوا وتناظروا وتعرفوا الجوهر من العرض ومعاذ الله أن يكون هذا واجباً ويغفله رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتتفق الأمة الفاضلة كلها على إبطاله وإغفاله . حتى جاءت المعتزلة والأشعرية (١) ، وهما الطائفتان المعروف قدرهما عند المسلمين .

(١) أنظر ما سماه ابن حزم شنع المعتزلة فى الفصل (٤ : ١٩٢) وهو فصل من كتاب سماه النصائح المنجية من الفصائح الخيرية والقبايح الردية من أقوال أهل البدع ، ثم أضافه إلى =

فها هنا قف يا أخى وقفة ، وتأمله بقلب سليم ، فإنه أظهر من كل ظاهر .
وأما قولك لى : لوجاز أن يُقَدِّدَ لجاز أن يقلد غيره ، فهذا لا يلزمنى
لأنه الحق ، وغيره المبطل الباطل . فمن سكنت نفسه إلى قوله عليه السلام ،
ولم تنازعه إلى دليل وقيل له ، وقاله ، فقد وفق للخير والهدى ، ومن نازعته
نفسه ولم تقنع إلا ببرهان ، فهذا هو الذى يلزمه النظر والاستدلال ، ويلزمنا البيان
له والمحااجة والمجادلة التى هى أحسن ، وإقامة البرهان عليه . وهكذا فعَلَ
عليه السلام ، فإنه قبل الإسلام ممن أسلم بلا اعتراض ، ومن حاجَّه أثناء
الآيات ، ودعاه إلى المباهلة وتمتَّى الموت وأقام عليه حجة البرهان الواضح .
فتأمل هذا تجده كما أقول لك ، ودع عنك بالله حماقات أهل السفسطة المسخرين
لحماقات كتب ابن فورك (١) والباقلاني (٢) ، وما هنالك . فما سرَّنى انتساخك
لكتابه المعروف بالدقائق وستقف عليه إن شاء الله تعالى وتندبره ، فلتعلم
أن السكاغد محسور فى نسخه ، بل المداد على تفاهة قدره .

وأما قولك : أما الرسول فلا تجب طاعته إلا بعد معرفة الله ضرورة ،
إذ من جهل (٣) المرسل وقدره ، وما يلزم من طاعته ، لم يلزمه اتباع مرسله
ولا طاعته ، هذا ما لم يدفعه عقل ، فمعرفة الله مُقَدِّمة على معرفة رسله ، هنا
انتهى قولك . وهذا قول يجب أن تتأمله ، فليس على ما ذكرت ، ولا كانت
معرفة الله واجبة قبل الرسل . قال الله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث

== كتاب الفصل ؛ وأما الأشعرية فقد هاجمهم فى مواضع شتى من كتابه وانظر بخاصة
(الفصل ٤ : ٢٠٤) وقد عدتهم من المرجئة وأكثر ما يعيهم عنده قولهم إن الإيمان عقد
بالقلب وإن أعلن المرء الكفر بلسانه وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية . . . الخ
قال : وأما الأشعرية فكانوا يهدادوا بالبصرة ثم قامت لهم سوق بصقلية والقيروان وبالأندلس
ثم رق أمرهم والحمد لله رب العالمين ؛ وهذا يدل على انحسار المذهب أيام ابن حزم .
(١) انظر ترجمته فى طبقات السبكي ٣ : ٥٢ وتبيين كذب المفتري : ٢٣٢ ومرآة الجنان
٣ : ١٧ والشذرات ٣ : ١٨١ وكانت وفاته سنة ٤٠٦ هـ .

(٢) توفى القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني سنة ٤٠٣ هـ ، انظر ترجمته فى تبيين
كذب المفتري : ٢١٧ وتاريخ بغداد رقم ٢٩٠٦ وابن كثير ١١ : ٣٥٠ والمتنظم ٧ : ٢٦٥
(٣) فى الاصل : جعل

رسولاً (١) . فإذا سقط العذاب عن كل من لم يأتيه رسولٌ بنصٍّ كلام الله تعالى بيقين ندرى أن كل ما لا يعذب الله تعالى عليه ولا ينكره فليس واجباً بل إنما وجبت على الناس معرفة الله بدعاء الرسل عليهم السلام ، إليه تعالى فقط ، لا قبل ذلك .

يا أخى تدبّر قولك في وجوب معرفة الله تعالى قبل الرسل ، والوجوب فعل يقتضى موجباً بضرورة العقل ، فقل لى : من أوجب المعرفة ؟ فإن قلت إن الله تعالى أوجبها . قلنا لك : فمن أين زعمت أن الله تعالى أوجبها ؟ فإن قلت : بضرورة العقل ، ادعيت على العقول ما ليس فيها (٢) ، وجمهور الناس من أصحاب الحديث والفقهاء والخوارج والشيعة متفقون مصرحون بأن معرفة الله تعالى لا تلزم إلا بمجيء الرسل ودعائهم إلى الله تعالى فقط . وإن قلت : إن العقل أوجب ذلك فرضاً ، فهذا محال ظاهر والعقل لا يُحرّم شيئاً ولا يوجبها ، والعقل عرض [من] الأعراض محمول في النفس ومن المحال أن تحكم الأعراض وتوجب وتشرّع ؛ وإنما في العقل معرفة الأشياء على ما هي عليه من كيفياتها وكمياتها ولا مزيد . وهذا باب قد أحكمته غاية الأحكام في صدر كتاب « أصول الأحكام » (٣) . فتأمل هذا الفصل تجده كما قلت .

ولا نحسن ظنك بكل ما تجده لأولئك المهذّرين السوفسطائيين على

(١) سورة الإسراء : ١٥

(٢) قارن هذا بفكرة ابن الطفيل في حى بن يقظان فهى تعتمد على الاستدلال النظرى لمعرفة الله تعالى ، دون رسول ، وابن حزم ربما لم ينكر هذا ولكنه ينكر وجوب المعرفة . (٣) هو كتابه الأحكام في أصول الأحكام ، وفيه حديث مفصل عن مهمة العقل (١ : ١٣ وما بعدها) وخلاصة رأيه أن في العقل الفهم عن الله تعالى ومعرفة صفات الدركات ، لكنه لا يوجب أن يكون الخنزير حراماً أو حلالاً أو أن تكون صلاة الظهر أربعاً وصلاة المغرب ثلاثاً ، أو أن يقتل من زنا وهو محصن وإن عفا عنه زوج المرأة وأبوها ، ولا يقتل قاتل النفس المحرمة عمداً إذا عفا عنه أولياء المقتول . . . الخ (المصدر المذكور ص ٢٨) .

الحقيقة، المتسمين بالمتكلمين الذين يأتونك بألف كلمة من هذرهم^(١) يُنسى آخرها أولها ، وليست إلا الهذيان والتخليط وقضايا فاسدة بلا برهان ، بعضها ينقض بعضاً .

وأما قولك : مع أن ظواهر الشريعة دلت على لزوم المعرفة والعلم بالله عز وجل ، من ذلك قوله « فاعلم أنه لا إله إلا هو (٢) » والمقلد غير عالم ولا عارف ، فإنما المأمور بهذا العلم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المأمور بعقب هذا الأمر بالاستخفاف للمؤمنين ، وهو عليه السلام قد علم الله تعالى بأعظم البراهين ، من مشاهدة الملائكة ، ومشاهدة السموات سماءً سماءً ، ومكاملة الله تعالى ، ورؤية المعجزات على يده ، فهو المأمور بالعلم حقاً ، وأما سائر الناس فلم يؤمروا قط بهذا ، وإنما أمروا بأن يقولوا شهادة الإسلام بألسنتهم ويعتقدوها بقلوبهم ، فهذا هو الذي أمروا به حتى لا تجحد أنهم أمروا بغير ذلك أصلاً . فمن شَرِهَتْ نفسه إلى العلم المحقق فليطلب الاستدلال ، كما فعل إبراهيم عليه السلام في إحياء الطير ومن لم تنازعه نفسه ، فلو فعل ذلك لكان حسناً ؛ ومن لم يفعل ، لم يخرج بذلك من كونه من أهل الحق إذا وفقه الله تعالى .

وأما قولك : وأريد أن تتأمل قولك : لا يلزم من معرفة الباري تعالى والنبوة إلا (٣) ما دعاهم إليه نبيهم المختوم به الرسل من صحة الاعتقاد هل (٤) الذي دعاهم إليه من الاعتقاد هو المعرفة أو غيرها ؟ فإن كانت المعرفة ، فلا تكون إلا بتقديم البراهين وإلا كانت غير معرفة . وإن كانت غيرها ، فالمعرفة لم تُفرض ، وإنما فرض غيرها ؛ ويجب أن تعرف ما ذلك المفترض

(١) غير واضحة في الأصل .

(٢) سورة محمد : ١٩

(٣) في الأصل : إلى

(٤) في الأصل : هل هو

وفي آثار (١) هذا الكلام ما فيه — فنعم يا أخى قد تأملتَه جداً وأنا ثابت عليه ، والحمد لله رب العالمين . وأنا أكرر فأقول : لم يفترض الله تعالى على الناس قط [إلا] (٢) الإقرار بالسنتهم بدعوة الاسلام واعتقاد تحقيقها بقلوبهم فقط ، وأما المعرفة التى لا تكون إلا ببرهان فما كلفوها قط . وأما من عبر (٣) عن صحة الاعتقاد بالمعرفة فإن الجواب عن هذا دخول فى استعمال الألفاظ المشتركة التى استعمالها أسُّ البلاء . لكن نقول لك : إن كنت تعبرُ بالمعرفة عن صحة الاعتقاد للحق ، فالناس مُكَلَّفُونَ هذا . وإن كنت تعنى بقولك المعرفة : العلم المتولد عن البرهان فما كَلَّفَ الناسُ قط هذا . وهذا علم الانبياء عليهم السلام ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم وجميع أُمَّته بعده حتى حدث من تعرف ، فأتوا بقول إذا حقيقته لزم التقصير البين للنبي صلى الله عليه وسلم ولأئمة المسلمين بعده .

وأما قولك لى : وأرغب أن تتأمل قولك « حاشا من كان عقده أنه لو كان أبوه يهودياً أو نصرانياً لكان يهودياً أو نصرانياً ، فهذا ليس عقده بصحيح (٤) . ثم قلت أنت : وهل من لم يكن عارفاً بالأدلة ولا واثقاً بها وكان مقلداً إلا على ذلك ؟ وهل يرتفع أحد من هذا العقد الذى ليس بصحيح عندك حتى يعتد الدين ، لا لأن آباءه اعتقدوه إلا عن معرفة بالبراهين الصحيحة ومعرفة الحق مجرداً ، وإنما لحظت هذا وما اتصل به ، لأنَّ (٥) الدليل الذى اقتضرت عليه ليس بصحيح عندك : فإن الرسول لم يقتصر (٦) على دعواه فيما دعا إليه ولا رضى عن (٧) قلده — هذا نص

(١) فى الأصل : إثار

(٢) زيادة لازمة

(٣) فى الأصل : غير

(٤) فى الأصل : صحيح

(٥) فى الأصل : بأن

(٦) فى الأصل : أن الرسول يقتصر

(٧) فى الأصل : من

قولك — فاعلم يا أخى أن كلَّ من اعتقد الحق من غير استدلال فليس على ما ذكرت ، بل أكثر الأمة والحمد لله ممن لا يدري يَسْتَهْجَى لفظة استدلال فكيف أن يعرف معناها ، تجده لو خَـيَّرَ بين أن يعذَّبَ بأنواع العذاب ؛ إلى إنقضاء عمر الدنيا وبين أن يفارق الاسلام لتخير بلا شك أنواع العذاب ونجده لو كفر أبوه وأهل بلاده بعد أن تحقق عَقْدُ الاسلام في قلبه ، لاستحل دم أبيه وولده وأهل بلده ، وهذا أمر تشاهده بنفسك من أكثر الجوام الذين أنت تدري أنهم لم يعرفوا الدين قطُّ من طريق الاستدلال . وأما من تعتقد أنه لو كَفَرَ أَهْلُ بلده لكفر هو معهم ، فهذا عند الناس كلهم كافر غير مصحح لاعتقاده ، فتأمل هذا تجدده كما أقول لك أيضاً ، والله أعلم .

وأما قولك لى : إن الرسول عليه السلام لم يَقْتَصِرْ على دعواه فيما دعا إليه ولا رضى عن قله ، فكلام غيرُ محقق ، بل ما اقتصر قط عليه السلام إلا على دعائه فقط ، إلا من طال به بآية ، فحينئذ أتاه بها وأما من لم يطلبه بها فما قال له عليه السلام قط . لا تؤمن حتى ترى آية ، وما زال عليه السلام راضياً عن اتبعه ورضى به ، وإن لم يطلبه بدليل على ما أورد بعد هذا إن شاء الله تعالى ، فصَحَّ أن الدليل الذى استدلتُّ به فى غاية الصحة ، وأنه عيان مشهور منقول نقل الكواف ، لا مُعْتَرَضَ فيه . والحمد لله رب العالمين .

وأما قولك فى الخبر الصحيح « وأما المنافق أو المرتاب فهو الذى يقول سمعتُ الناس يقولون شيئاً فقلته » وأن المؤمن هو الذى يقول جاءنا بالبينات والهدى ، فخير صحيح وهو حجتي عليك (١) لأنه صلى الله عليه

(١) أورد البخارى هذا الحديث فى كتاب العلم وكتاب الكوف وكتاب الجمعة (والأخير ١٠ : ٢) ، وهو بصورته هذه من حديث أسماء فى سؤال القير : فأما المؤمن أو قال الموقن — شت هشام — فيقول (إذا سئل عن نبي) هو رسول الله، هو محمد صلى الله عليه وسلم =

وسلم إنما حكى القول « سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته » عن منافق أو مرتاب وإنما أتيتُ أنا على محقق بقلبه مثبت ليقينه نافر عن الشك والجد كل النفاذ إلا أنه فتح (١) الله عز وجل له في ذلك الحق بالبخت لاعتدال؛ وهذا بعينه هو الذى يقول بقلبه ولسانه فى الدنيا كما يقول ، إذا مات ، جاءنا بالبينات والهدى فتأمل هذا تجده كما قلت لك ، والحمد لله رب العالمين .

وأما قولك لى : ويجب أن تنظر فى القول إنه عليه السلام لم يدع أحداً إلى غير هذا عموماً ، وإذا لم يدع إليه فهو تكلف وإذا كان تكلفاً فكيف يرجع إليه من اختلاج فى صدره شيء أو كيف يجده . فنعنم يا أخى ما دعا عليه السلام إلى غير هذا ، ومن العجب أن يكون دعا إلى غير هذا واتفقت الأمم على كتمان هذا وطيه . أترى هذا يا أخى ممكناً ؟ حاشا لله من هذا . ونعم هو تكلف حسن ممن لم تنازعه نفسه إليه . وأما تعجبك بقولك : فكيف يرجع إليه من اختلاج فى صدره شيء أو كيف يجده ؟ أما علمت أن شرب الدراء والسكى تكلف ؟ وأن من احتاج إليهما لدفع ضرر حل به وجب عليه أن يرجع إليهما ؟ فأى عجب فى هذا ؟ وأنا لم أحتج عليك بهذا التنظير . وإنما أريتك أن هذا الذى أنكرت وجوده موجود فى العالم ، وإنما طلب الاستدلال لتعلم القرآن كله . وتعلم الكتاب ليس فرضاً لكنه تكلف حسن ممن تكلفه ، وهما فرض على من قصد ضبط الديانة للناس . والاستكثار من الخير والعلم فقط .

وأما قولك : فان قيل هو مندوب إليه . ولذلك كان له عليه أجر ، قيل

— جاءنا بالبينات والهدى فأما وأجبنا واتبعنا وصدقنا فيقال له ثم صالحاً قد كننا نعلم إنك لنؤمن به وأما المنافق أو قال المرتاب — شك هشام — فيقال له ما علمك بهذا الرجل فيقول لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت (وفى نسخة فقلته) .

وحجة ابن حزم فى هذا الخبر أن الرسول قال : المنافق والمرتاب ولم يقل غير المستدل فاللفظ لا يصف خصوماً بن حزم ، ثم إن المنافق والمرتاب مقلدان للناس لا محققان ، والتقليد شيء غير الاستدلال .

(١) غير معجمه فى الأصل .

فجائز لجميع الأمة تركه ولا إثم عليها في إغفاله ، وإذا كان هذا أدى إلى أن يكون جميع الشرع بأيدينا دعوى ، وفي هذا ما لا يخفى . فاعلم أنه مندوب إليه كما قلنا ببرهان أنه لم يأت به قط أمر من عند الله تعالى ، ولو (١) أن الأمة كلها التقت بالقبول وصحة العقد ، ولم يكن فيها منازع ولا كافر ، ما احتيج إلى الاستدلال البتة ، إذ لم يأت بإيجابه أمر من الله عز وجل ولا من رسوله صلى الله عليه وسلم . وأما قولك : إذا كان هذا ، أدى إلى أن جميع الشرائع بأيدينا دعوى ، وفي هذا ما لا يخفى ، فإن الله تعالى حض على الاستدلال كما قلنا ولم يفترضه ، وعلمنا إياه ولم يوجب تعلمه على أحد . وأوجب علينا مناظرة المعاندين بالبراهين ، وأنا يا أخى لم أنكر هذا قط وإنما قلت إن من لم تنازع عنه نفسه إليه . وأنس إلى اعتقاد صحة الإسلام والإقرار به فهو مسلم صحيح الإسلام عند الله تعالى ، وإن المعتقد لذلك عن استدلال أفضل فالزمتنى ما لم يلزمنيه قولى (٢) .

وأما قولك : فينظر فيما فرض الله تعالى من تدبر القرآن وما فيه من الدلائل . فتدبر القرآن فرض ، ومعنى تدبره فهم معاني ألفاظه . وكيف لا يكون فرضاً وهو بيان ما افترض ، وقد تدبرناه والله الحمد فلم نجد فيه أنه لا إسلام لمن لا يعتقده من طريق الاستدلال ولا وجدنا فيه أن معرفة الله تعالى فرض قبّل الرسل وهذا قولنا والحمد لله . وهنا انتهى قولك وما اقتضاه من جواب .

ثم أنا أبتدئك بما يلزم بعضنا لبعض من بيان الحق وتعاطى البراهين ، فأقول لك وبالله تعالى التوفيق :

(١) في الأصل ولولا :

(٢) قابل هذا بقول ابن حزم (الفصل ٤ : ٤٠) : ونحن لاننكر الاستدلال بل هو فعل حسن مندوب إليه محض عليه كل من أطاقه لأنه تزود من الخير وهو فرض على كل من لم تسكن نفسه إلى التصديق وإنما ننكر كونه فرضاً على كل أحد ، لا يصح إسلام أحد دونه . هذا هو الباطل المحض (وانظر أيضاً وقفة ابن حزم عند هذا الموضوع في الفصل ٥ : ١١٠) .

قبل كل شيء أريد أن تنظر في كلامي بعين (١) سليمة من الإعراض ومن الاستحسان معاً ، وبنفس بريئة من النفاق والسكون معاً ، لا (٢) كما ينظر المرء بما لم يسمعه قط ، فيسبق إليه منه قبُولٌ يُسهِّلُ عليه الباطل أو نفاق يوعر عليه الحق . فمن هذين السعيتين ناه أكثر الناس وفارقوا المحجة ؛ فأقول لك يا أخى : كان إسلام خيار أهل الأرض بعد النبيين عليهم السلام كخديجة وعائشة أمي المؤمنين ، وأبي بكر الصديق وعلى بن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، وبلال ، وزيد بن حارثة ، وخالد بن سعيد بن العاصي وعمر بن عبسسه ، وعثمان بن عفان ، والزبير وطلحة ، وزينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية ، بنات النبي صلى الله عليه وسلم . فهل ذكر قط أحدهم أو جميعهم أو غيرهم عنهم أنهم لم يُسلموا حتى سألوا آيةً وطلبوا معجزة ، وعرض عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم برهانا؟ هل كان أكثر من أن دعا عليه السلام خديجة إلى الإسلام وأبا بكر عليهما الرضوان ، فلم تكن لهما كبوةٌ ولا تردد ؛ وأما عائشة وعلى وزينب وأم كلثوم وفاطمة ورقية فهل كان إسلامهم إلا على تدريب الكافل والأبوين ولا مزيد ؟ وسكت عن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما ، لأنه قد قيل إنهما لم يسلمتا إلا بعد معجزة رأياها . فلعمري يا أخى إن قال قائل : إن هؤلاء المذكورين لم يسلم منهم أحد إلا عن معجزة طلبها فعرضت عليه ليقولن ما يشهد قلبه بأنه كاذب ثم لا يبقى أحد في العالم لم يدر شيئاً من السير والأخبار إلا كذبته ودري أنه كاذب .

تفكر يا أخى كيف أسلم النجاشي وباذان والمنذر بن ساوى وعباد (٣) وجيفر ابنا الجندى وذو السكلاع وذو ظليم وذو مران وذو زود وهؤلاء

(١) في الأصل : بغير

(٢) في الأصل : لكن

(٣) سماه المقرئ في الأمتاع عمراً وأسمه في جوامع السيرة والفصل : عباد ؛ وفي سيرة ابن

سيد الناس : عبد

ملوك بلادهم (١) ؛ وكيف أسلم الستة من الأنصار ، والاثناعشر ، والثلاثة وسبعون الذين هم خيار أهل الأرض . هل طلب واحد منهم معجزة أو رغب آية ؟ نفكر في هذا ، ودعنا من استبشاع مخالفة هذين المتكلمين (٢) الذين لم ينتج الله تعالى على أيديهم إلا افتراق الكلمة ، وتكفير المسلمين بعضهم بعضاً . ألم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « دعوا إلى صاحبي فإن الناس قالوا كذبت ، وقال أبو بكر صدقت (٣) » ، ولذلك سمي الصديق .

فتفكر يا أخي في نفسك : كيف كان إسلامك مذ بلغت مبلغ التكليف وتوجه إليك الخطاب من الله عز وجل ، عن استدلال كان منك من تلك الليلة ؟ فهذا بعيد جداً ، وإن كان استدلالاً بعد ذلك فكيف تعرف نفسك بين بلوغك إلى وقت استدلالك ، أترى تلزم نفسك حكم الكفر ؟ معاذ الله من هذا .

ثم أقول لك : الناس أربعة : فانسان استدلل فأداه استدلاله إلى حق مأجور مرتين ، وآخر استدلل وبحث ونظر . فأداه ذلك إلى دهرية أو تبرهم أو منانية أو بعض أنواع الكفر ، فهذا كافر مخلد في النار إن مات على ذلك . أو أداه إلى قول الأزارقة وأصحاب الأصلح أو بعض البدع الملهكة ، فهو فاسق . وآخر قلد فاتفق له الحق فهو من أهل الحق وهكذا عوام أهل الإسلام كلهم . وآخر قلد فأداه ذلك إلى الباطل ، فهو إما كافر وإما فاسق . وثبت فيما قلت لك من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الناس كلهم ، فهو برهان ضروري منقول ثقيل الكواف . لا يشك فيه مسلم موحد ولا ملحد في أنه عليه السلام لم (٤) يقل لأحد دعاه إلى الإسلام : لا تسلم حتى تستدل .

(١) أنظر جوامع السيرة الورقة ٢٠ وما بعدها وكذلك الفصل ٢ : ٨٥ .

(٢) في الأصل : هذان المتكلمين .

(٣) في صحيح البخاري (٥ : ٥) إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق

وواساني بنفسه وماله فهل أنتم تاركوا لي صاحبي . وانظر حديثاً مقارباً في جمع الزوائد ٩ : ٤٤

(٤) في الأصل : لا

وهذه كتبه إلى كسرى وقيصر والملوك ، وذكر رسله إلى البلاد ، ما في شيء منها ولا في بعوثه وغزواته إيجاباً استدلالاً ، فإن جاز عندك أن يتفق الناس كلهم على كتمان هذا ، فأعذك بالله من أن يحوز هذا عندك .

ثم أعلم يا أخى أن الفرقة المحدثه لهذه المقالة ، فرقة أنت تدرى أنها غير مرضية عند جميع أئمة الهدى قديماً وحديثاً ، وأنهم مطعون عليهم في أديانهم مظنون بهم السوء في اعتقادهم . وبرهان ذلك أنهم أجسر الناس على عظمة تقشعر منها الجلود وعلى إطلاق العظام على البارى عز وجل بلا مبالاة ، ولم يزالوا عند جميع الأئمة مردولين إلى أن يُبْلَغَ (١) إلى الذين لقينا منهم . ولقد قال لى بعض إخوانى كلاماً أقوله لك — قال : أسألك بالله هل بلغك أن أحداً أسلم على يدي متكلم من هؤلاء المتكلمين ، واهتدى على أيديهم من ضلاله ، وهل أسلم من أسلم واهتدى من اهتدى إلا بالدعاء المجرد الذى مضى عليه السلف ؟ فوالله يا أخى ما وجدت لقوله جواباً ، بل ما وجدتهم أحدث الله تعالى على أيديهم إلا الفرقة والشتات والتخاذل وافتراق الكلمة والجسور على كل طامة وعظيمة وتكفير المسلمين بعضهم بعضاً . وهذا أمر مشاهد . ثم هم في خلال ذلك أبعد الناس عن الحجى ببرهان حق ، وأكثرهم سفسطة وتخليطاً واضطراباً وتناقضاً .

فإن قال قائل : قد ذمت التقليد وأبو بكر وخديجة وعائشة وعلى وخالد ابن سعيد وعمرو بن عبسة والانصار رضى الله عن جميعهم مقلدون أقوالهم مذمومون (٢) فى تقليدهم ؟ قلنا وبالله تعالى التوفيق : لسنا نقول هذا ، ولكننا قد بينا فى غير هذا الموضع أن التقليد هو لمن اتبع من لا (٣) يؤمر باتباعه فهذا هو المذموم فى تقليده وإن أصاب الحق . أما من اتبع من افترض الله تعالى عليه اتباعه ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليس

(١) فى الأصل : إلى يبلغ

(٢) فى الأصل : فهم مهمومون .

(٣) فى الأصل : مما

يسمى مقلداً بل هو موفق مطيع لله تعالى ، محسن ، سواء اتبعه في عقدة الاسلام أو فيما دون ذلك من الاعتقادات أو العبادات والأحكام . وقد يتنا أيضاً في غير هذا الموضع أنه قد تقع الضرورة بخبر الواحد ويصح به العلم المتيقن ، وكل هؤلاء وقع لهم العلم الحق واليقين الضروري بإخبار النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالاسلام وبصحّة نبوته . هذا مالا شك فيه عندنا البتة ، ولا يجوز غير هذا البتة .

ولقد كانوا أعلم وأفضل وأجلّ وأسلم وأتم من أن يستجيبوا لقول قائل ، بلا برهان (١) لولا أن الله تعالى أنزل السكينة عليهم كما قال الله : عز وجل « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً (٢) » . وكما قال تعالى « حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، وكره إليكم الكفر والفسسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ، فضلاً من الله ونعمة . والله عليم حكيم » (٣)

وأيضاً فقد صح برهان واضح أن الله تعالى خلق كل شيء في العالم من حامل ومحمول ولا ثالث لهما في العالم ، فإذا ذلك كذلك ، فهو تعالى خالق الإيمان في قلوب المؤمنين ، فمن خلق الله تعالى الإيمان في قلبه ولسانه فهو مؤمن صحيح الإيمان ، سواء خلقه في قلبه ولسانه دون استدلال أو خلقه باستدلال . وكذلك الكفر أيضاً : من خلق الله تعالى الكفر [في قلبه] أو خلقه على لسانه فهو كافر محض .

وأيضاً فقد يستدل الدهر كله من لا يوفق للحق كما استدل الفيومي (٤)

(١) في الأصل : فلا معنى .

(٢) سورة الفتح : ١٨

(٣) سورة المجرات : ٧

(٤) قال ابن النديم (الفهرست : ٢٣) : ومن أفاضل اليهود وعلمائهم المتكلمين من اللغة العبرانية ويزعم اليهود أنها لم ترمثه الفيومي ، واسمه سعيد ويقال سعيداً وكان قريب العهد وقد أدركه جماعة في زماننا « وله كتب عدة .

والمقمس وأبو ربيعة اليعقوبي واذرباذ الموبد^(١) وأبو على مردان بخت المناني ، ثم من فرق المسلمين : هشام بن الحكم^(٢) وعلى بن منصور^(٣) والنظام وغيره ، فبعضهم يسرّ للكفر وبعضهم يسر للإيمان ولضلال البدعة معاً .

وقد يدعى المجتهدون في نصر أقوال مالك وأبي حنيفة أنهم مستدلون جهدهم وقد ملأوا الدنيا صحائف سمجة . ولم يسروا إلا للخطأ في أكثر أقوالهم ، وقد يسر الله تعالى للإيمان والسنة من لا يستدل ، فالكل فعل الله تعالى ، فمن يسر للحق ، فهو محق كيفما اعتقده ، ومن يسر للباطل فهو مبطل كيفما اعتقده .

فإن قلت : بأى شيء يعرفُ الموفقُ للعلم الصحيح أن هذا حق وأن هذا باطل ؟ قلنا : بالبراهين ، وهذا ما لا نخالفك فيه ، إلا أن عدم الاستدلال بالبرهان لا يخرج الحق عن أن يكون حقاً في ذاته ولا الباطل عن أن يكون باطلاً في ذاته . والله تعالى يخلق الإيمان والكفر في قلوب عباده ، وهم طبقات : فمنهم من يخلق الإيمان في قلبه ضرورة بداءة كما خلق الله في قلوبنا معرفة أن الكل أكثر من الجزء ، وأن الحلو حلو والمر مر ، وهذا أرفع درجات الإيمان ، وهذا إيمان الملائكة والأنبياء عليهم السلام ؛ ومنهم من خلق الإيمان في قلبه ضرورة عن تصديق نخب كإسلام من ذكرنا من الصحابة ، رضى الله عنهم ، الذين صدقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في خبره : ومنهم من خلق الإيمان في قلبه ضرورة عن استدلال وبرهان برؤية المعجزات أو نقلها إليه ، وهذه

(١) هو اذرباذ بن ماركسفيد ، موبد موبدان ، عاصر ماني وناظره بحضرة الملك بهرام بن بهرام في مسألة قطع النسل وتجيل فراغ العالم ، فانقطع ماني وقتله بهرام على الأثر (الفصل ١ : ٣٦) (٢) انظر ترجمة هشام بن الحكم في القهرست : ١٧٥ — ١٧٦ ، واعتقادات الرازي : ٦٤ وتبصير الأسفراييني : ٧٠ ، ٩٣ ، وهو زعيم الحكيمة أو الهاشمية من فرق الشيعة ، ويدين بالتجسيم . (٣) هو الحلاج ، انظر أخباره في صالة الطبري ، وتجارب الأمم ، ونشوار الحضارة والمنظم وفيما جمعه ماسينيون من أخباره وأقواله . وانظر أيضاً ديوانه الذي جمعه ماسينيون في المجلة الآسيوية ، ١٩٣١

صفة إيمان المستدلين منا ، ومنهم من خلق الإيمان في قلبه بغير سبب ، وهذه صفة إيمان المحققين من العوام ، ولا إيمان لمن خرج من هذه الطباقة .

وكذلك خلق الله تعالى الكفر في قلوب عباده ، فمنهم من خلقه تقليداً ، ومنهم من خلقه في قلبه حسداً للعرب وللنبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من خلقه في قلبه اتباعاً لهوى وقع له أو سكوناً إلى الشك ، ومنهم من خلقه في قلبه استدلالاً ببعض الأدلة الفاسدة ، ومنهم من حكم الله تعالى عليه بالكفر وإن اعتقد الإيمان وعمل به وأعلنه ، لكن خرق الإجماع في بعض أقواله كمن أقر بنبي بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، أو كذب بآية من القرآن أو بشريعة مجتمع عليها ، أو عمل عملاً يكون به كافراً ، إن شاء الله تعالى .

فهذا بيان جميع هذه المسألة ، والحمد لله رب العالمين ، ثم السلام عليك أيها الأخ المحمود ، وزحمة الله وبركاته .

تمت بحول الله عز وجل ، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليماً كثيراً
والحمد لله وحده



رسالة التوفيق على سارع النجاة
بإختصار الطريبي

بسم الله الرحمن الرحيم
صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

رسالة التوفيق على سارع النجاة

بإختصار الطريق

قال الشيخ الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن حزم رضى الله عنه :
الحمد لله رب العالمين كثيراً ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله ، وسلم
تسليماً ، وبالله نستعين على كل ما يقرب منه ، أما بعد فإن خطابك اتصل بي فيما
شاهدته من انقسام أهل عصرنا قسمين : فطائفة اتبعت علوم الأوائل
وأصحاب تلك العلوم ، وطائفة اتبعت علم ما جاءت به النبوة ، ورعيتك
في أن أتيّن لك وجه الحق في ذلك بغاية الاختصار ، لئلا يئس آخر
الكلام أوله ، ونهاية البيان ، ليفهمه كل من قرأه ، بلا كلفة . وأن يكون
عليه من البرهان ما يصححه لئلا يصير دعوى كسائر الدعاوى ، فسارعت إلى
ذلك متأيداً بالله عز وجل لجوب نصيحة الناس والسعى في استنقاذهم من
الهلكة ، وحسبنا الله تعالى .

اعلم — وفقنا الله وإياك لما يرضيه — أن علوم الأوائل هي : الفلسفة
وحدود المنطق التي تكلم فيها أفلاطون وتلميذه أرسطاطاليس والاسكندر (١)
ومن قفا قفّوهم ، وهذا علم حسن رفيع لأنه فيه معرفة العالم كله ، بكل
ما فيه من أجناسه إلى أنواعه إلى أشخاص جواهره وأعراضه ، والوقوف
على البرهان الذي لا يصح شيء إلا به ، وتميزه بما يظن من جهل (٢) أنه
برهان ، وليس برهاناً ، ومنفعة هذا العلم عظيمه في تمييز الحقائق مما سواها .

(١) هو الاسكندر الافروديسي الذي فسر أكثر كتب أرسطاطاليس (أنظر الفهرست :
٢٥٢ وابن أبي أصيبعة ١ : ٦٩ والفنطى : ٥٤) وكانت بينه وبين جالينوس مناظرات ومشاعات
كما كانت شروحه يرغب فيها في الأيام الرومية والإسلامية .
(٢) من جهل : مكررة في الأصل .

وعلم العدد الذي تكلم فيه أندروماخس (١) مؤلف كتاب الارثماطيق في طبائع العدد ، ومن نحوه ، وهو علم حسن صحيح برهاني ، إلا أن المنفعة به إنما هي في الدنيا فقط : في قسمة الأموال على أصحابها ونحو هذا ، وكل ما لانفع (٢) له إلا في الدنيا فهي منفعة قليلة وَتَحْتَهُ (٣) لسرعة خروجنا من هذه الدار ولا متنازع (٤) البقاء فيها ، وكل ما ينقضى فكأنه لم يكن ، وكما يقول يحيى (٥) :

وما هذه الدنيا سوى كَرٍّ لحظة (٦) نعد بها الماضي وما لم يحن بعد هي الزمن الموجود لاشيء غيره ومامرّ والآتي عديمان يادَعُد (٧) وعلم المساحة التي تكلم فيها جامع كتاب أقليدس (٨) ومن نهج نهجه وهو علم حسن برهاني وأصله معرفة نسبة الخطوط والأشكال بعضها من بعض ومعرفة ذلك في شيئين : أحدهما فهم صفة هيئة الأفلاك والأرض ، والثاني في رفع الأثقال (٩) والبناء وقسمة الأرضين ونحو ذلك . إلا أن هذا القسم منفعته

(١) لم يذكر كل من ابن أبي أصيبعة والقفطي لأندروماخس الحكيم الفيلسوف كتاباً في طبائع العدد « (أنظر القفطي : ٧٢) ، أما مؤلف كتاب الارثماطيق في علم العدد فهو نيقوماخوس (القفطي : ٣٣٦) .

(٢) في الأصل : يقع

(٣) في الأصل : ونحى ، والوتحة القليلة التافهة

(٤) في الأصل : والامتناع .

(٥) في الأصل : يحيى . ولعل الشاعر هو يحيى بن حكيم الجبالي الملقب بالزغال ، وهو شاعر أندلسي حكيم .

(٦) في الأصل : لر محطة

(٧) الشطر الثاني من هذا البيت غير واضح كثيراً في الأصل .

(٨) كتاب إقليدس هو المعروف بأصول الهندسة أو الأصول كما سماه المسلمون وهو كتاب جامع في بابه ، وقد نقل إلى العربية مرات عدة ، وعملت عليه شروح كثيرة ، وشرحه بعض الأندلسيين (القفطي : ٦٢ — ٦٥ ومقدمة ابن خلدون ٤٢٤)

(٩) في الأصل : الانتقال

في الدنيا فقط . وقد قلنا إن ما لا نفع له إلا في الدنيا فمنفعته قليلة لسرعة انقطاعها ولأنه قد يبقى المرء في دنياه — طول مدته فيها — عاريا من هذين العليين ولا يعظم ضرره بجهلهما (١) لا في عاجل ولا في آجل .

وعلم الهيئة : الذي تكلم فيه بطليموس ، ولونخس (٢) قبله ، ومن سلك مسلكهما ، أو سلكا مسلكه ، ممن كان قبلهما من أهل الهند والنيبط والقيبط . وهو علم يبرهاني حسيٌّ حسن ، وهو معرفة الأفلاك ومدارها وتقاطعها ومراكزها وأبعادها ومعرفة الكواكب وانتقالها وأعظامها وأبعادها وأفلاك تدويرها . ومنفعة هذا العلم إنما هو في الوقوف على أحكام الصنعة وعظيم حكمة الصانع (٣) وقدرته وقصده واختياره وهذه منفعة جليلة جداً لا سيما في الآجل .

وأما القضاء بالكواكب فباطل لتعريبه من البرهان ، وإنما هو دعوى فقط ، ولا نخصيكم شاهدنا من كذب قضايهم المحققة : وإن أردت الوقوف على ذلك فخرّب ، تجد كذبها أضعاف صدقها كالراق والمتكهن سواء سواء ولا فرق .

وعلم الطب الذي تكلم فيه أبقراط وجالينوس وذياسقوريدس (٤) ومن جرى مجراهم . وهو علم مداواة الأجسام من أمراضها مدة مقامها في الدنيا ،

(١) في الأصل : ضروره بجهلهما

(٢) أما بطليموس فهو القلوذي صاحب المجسطي ومنظم علم الفلك ، وكل من جاء بعده من علماء الهيئة فإنما حاول شرح كتابه . وأما لونخس فلم أتبينه والأشبه أن يكون هو ابرخس الذي يقال إنه أستاذ بطليموس وعنه أخذ (أنظر القهرست : ٢٦٧)

(٣) في الأصل : الصنائع .

(٤) أنظر القهرست : ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ والقنطى : ١٠٠ ، ١٢٢ ، ١٨٣ ، وذياسقوريدس المشار إليه هنا هو العين زرقى ، قال القنطى : وهو أعلم من تكلم في أصل علاج الطب ، وهو العلامة في العقاقير المفردة ، وهو من حيث الزمن سابق على جالينوس .

وهو (١) علم حسن برهاني إلا أن منفعتيه إنما هي في الدنيا فقط ، ثم ليست أيضاً صناعة عامة ، لأننا قد شاهدنا سكان البوادي وأكثر البلاد يبرأون من علمهم بلا طيب ، وتصح أجسامهم بلامعالجة كصحة المتعالجين وأكثر ، ويبلغون من الأعمار كالذي يبلغه أهل التداوي في القصر والطول ، وفيهم من يرتاض ومن يخدم ولا يرتاض ، ومن لا يرتاض ولا يخدم كأهل اليسار منهم والدعة من الرجال والنساء . فإن قيل : إن لهم علاجات يستعملونها (٢) قلنا تلك العلاجات ليست جاريات على قوانين الطب بل هي مذمومة عند أهل العلم بالطب ، وأكثر ما يُقَدِّمُون عليه بالرقي ولا مدخل له عند أهل الطب .

فاعلم الآن أن كلَّ علم قلَّتْ منفعتيه . ولم تكن مع قلَّتْها إلا دنيوية وعاش مَنْ جَهِلَهُ كهيش من علمه — مدة كونهما (٣) في الدنيا — فإن العاقل الناصح لنفسه لا يجعله وكُذِّبَهُ ، ولا يُفْنِي فيه عمره ، لأنه ينفق أيامَ حياته ، التي لا يستعِض في الدنيا منها (٤) فيما لا ضرورة به إليه ولا كثير حاجة تدعوه نحوه .

ووجدنا ما جاءت به النبوة ومنفعتيه في ثلاثة أشياء : أحدها : إصلاح الأخلاق النفسية وإيجاب التزام حسنيتها : كالعدل والجود والعفة والصدق والنجدة في موضعها ، والصبر والحلم والرحمة ، واجتناب سيئها كأضداد هذه التي ذكرنا . وهذه منفعة عظيمة لا غنى لساكني الدنيا عنها ، ولا شك في العقل في أن صلاح النفس ومداواتها من فسادها ، أنفع من مداواة الجسد وإصلاحه : لأن مداواة الجسد تابعة لمداواة النفس . إذ في

(١) في الأصل : وهم (٢) في الأصل : يستعملوها

(٣) في الأصل : كونها (٤) في الأصل : فيها

مداواة النفس إيجاب ألا يدخل الإنسان على جسده ما يؤلمه بالمرض ،
فقطعه به عن مصالحة . وما عمَّ إصلاح النفس والجسد معاً أفضل وأولى
بالاهتبال به مما خصَّ إصلاح الجسد فقط — هذا برهان عقلي
ضروري حسي .

ولا يمكن البتة إصلاح أخلاق النفس بالفلسفة دون النبوة ، إذ
طاعة غير الخالق - عز وجل - لا تلزَمُ . وأهل العقول مختلفون في
تصويب هذه الأخلاق فذو القوة الغضبية التي هي غالبية (١) على نفسه لا يرى
من ذلك ما يراه ذو القوة النباتية (٢) الغالبة على نفسه ، وكلاهما لا يرى
من ذلك ما يرى ذو القوة الناطقة الغالبة على نفسه (٣) .

والوجه الثاني من منافع ما جاءت به النبوة : دفعُ مظالم الناس الذين لم
تصلحهم الموعظة ولا سارعوا إلى الحقائق ، وحياسة الدنيا والأبشار
والفروج والأموال . والأمنُّ على كل ذلك من التعدي والغلبة
وكفاية من ضاع ولم يقدر على القيام بنفسه . وهذه منفعة عظيمة جليلة ،
لإبقاء لأحدٍ في هذه الدنيا ، ولا صلاح لأهلها إلا بها . وإلا فإهلاك
لازمٌ والبوارُ واجب . وليست كذلك منفعة العلوم التي قدمنا قبل ، وقد
قدمنا أنه لا سبيل إلى منع التظالم ولا إلى إيجاد التعاطف بغير النبوة أصلاً ،

(١) في الأصل : عالية .

(٢) في الأصل : السانية .

(٣) قسم الفلاسفة الأخلاق والقوى بنسبتها إلى الأنفس وهي : النفس النباتية الشهوانية
والنفس الحيوانية الغضبية ، والنفس الانسانية الناطقة فالأولى مسئولة عن شهوة الفناء ، والثانية
عن شهوة الجماع والانتقام والرياسة ، والثالثة عن شهوة العلوم والمعارف والتجبر والاستكثار
منها (أنظر رسائل إخوان الصفا ١ : ٢٤١ وما بعدها) .

لما ذكرنا من أن طاعة غير الخالق تعالى لم يَقُمْ برهان بوجوبها ، ولأن
الفسوق ومُخْتَلِفَةَ الْأَهْوَاءِ لَا يَنْقَادُ بعضها إلى بعض .

والوجه الثالث من منافع ما جاءت به النبوة هو التقدم لنجاة النفس
فيما بعد خروجها من هذه الدار ، من الهلكة التي ليس معها ولا بعدها شيء^١
من الخير ، لا ما قل ولا ما كثر ، ولا سبيل البتة إلى معرفة حقيقة مراد
الخالق منها ولا إلى معرفة طريق خلاصنا إلا بالنبوة ، وأما بالعلوم الفلسفية
التي قدّمنا فلا - أصلاً - . ومن ادّعى ذلك فقد ادعى الكذب ، لأنه يقول ذلك
بلا برهان البتة ، وما كان هكذا فهو باطل ، ولا يعجز أحد^٢ عن الدعوى ،
وليست دعوى أحد أولى من دعوى غيره بلا (١) برهان . ثم البرهان قائم على
بُطْلان هذه الدعوى ، لأن الفلاسفة الذين إليهم يَسْتَنِدُ هذا المدّعى
يختلفون في أديانهم كاختلاف غيرهم سواء سواء ، فوجب طلب الحقيقة
في ذلك عند من قام البرهان على أنه إنما يخبر عن خالق العالم ومدبّره
- عز وجل - . وهذا مكان يُلْزَمُ العاقل الناصح لنفسه ألا يجعل كدّه ولا
اجتهاده إلا في الوقوف على حقيقته ، وإلا فهو مُؤَبِّقٌ لنفسه ، ولا يشتغل
عن ذلك بعلم من العلوم ثَقِيلٌ مُنْفَعَتُهُ ، وَمَنْ كَفَلَ هذا فهو ضعيف العقل
فاسد التمييز . سىء الاختيار ، مستحق للذم ، جانٍ على نفسه عظيم الجنایات .

فأول ذلك أن ينظر : هذا العالمُ مُحْدَثٌ كما قالت الأنبياء - عليهم
السلام - وأكثر علماء الأوائل والفلاسفة ، أم لم يزل كما قال غيرهم . ومعرفة
حقيقة ذلك قريبة جداً لصحة البرهان الحسى الضروري المشاهد على تناهي
عدد الأشخاص النامية من كل نوع من أنواع الحيوان والنبات فإن
أشخاص نوعين منها أكثر عدداً بلا (٢) شك من أشخاص أحد ذينك .

(١) في الأصل : فلا

(٢) في الأصل : عدد فلما

النوعين . فاذْ لا شكَّ في هذا عند أحد ، فقد ثبت المبدأ في وجود كل عدد متناه ، فتمد وجب لها المبدأ ضرورة - ولا بدَّ - وإن زمان وجود الفلك السكلى - بكل ما فيه - يزيد عدد ساعاته بما يأتى منه ، وبالضرورة يدرك كل أحد (١) أن ما قبل الزيادة ، فإن النقص موجود فيه قبل تلك الزيادة ، عما صار إليه بتلك الزيادة . ولا شكَّ في [أن] الزيادة والنقص لا يمكن وجودهما إلا في ذى نهاية ومبدأ . فصَحَّ المبدأ للعالم ضرورة ، وصَحَّ أنه محدث مبتدأ (٢) والله أعلم .

وأيضاً فإن الزمان كله يومٌ ثم يوم - هكذا مُدَّة وجوده - وكلُّ يوم فله مبدأ ونهاية بالمشاهدة . فاذ كل جزء من أجزاء الزمان ذو مبدأ ونهاية - والزمان ليس هو شيئاً غير أجزاءه التى هى أيامه - فالزمان ذو مبدأ ونهاية - ولا بدَّ - ضرورة ، ومن أدعى مُدَّة غير الزمان فقد ادعى الباطل وما لا يقوم به برهان أبداً . ومن أراد إيقاع الزمان على البارى تعالى فقد تناقض بالباطل ، لأن الزمان - كما بينّا - ذو مبدأ ، والبارى لا مبدأ له ، فهو خالق الزمان ، فهو في غير زمان - ولا بد -

ثم ينظر هل له محدث مبتدئٌ أو لا . فوجب بأول العقل أن الحدوث والإبتداء فعلٌ ، والفعل يقتضى فاعلاً ضرورة ، ولا يمكن غير ذلك أصلاً . وأيضاً فإن النشأة والتربية والعيش ، وعمارة ما لا عيش إلا به من نبات الأرض والحيوان المُستَخِر ، لا يمكن شئٌ من ذلك البتة ولا يكون وجوده أصلاً إلا ببلغة يقع بها التخاطبُ والتفاهمُ ، ووجدنا كل مَنْ لم يعلم اللغة لا يتكلم أبداً . وهكذا وجدنا كلَّ مَنْ يولد أصمَّ ، فإنه لا يكون ضرورة إلا أبكم لا ينطق أبداً ؛ فصَحَّ ضرورةً أنه لا يتكلم أحدٌ أبداً إلا من سمع

(١) فى الأصل : أن كل أحد .

(٢) أنظر ما أورده ابن حزم من براهين على حدوث العالم فى الفصل ١ : ١٤ وما بعدها

الكلام وعلمه ، وكذلك جميع العلوم لا يمكن البتة أن يحسنها أحدٌ أبداً إلا حتى يعلمها . برهان ذلك المشاهد . مُدَّةَ عمر العالم إلى يومنا هذا ، فإن كلَّ من لا يعلم الكلام لا يعلمه . والبلاد التي لا علم فيها كبلاد الروم والصقالبة والترك والديلم والسودان والبربر والبوادي التي بين الحواضر لا سبيل إلى أن يوجد فيها شيءٌ من العلوم التي لم يعلموها منذ وجد (١) العالم إلى يومنا هذا . وكذلك جميع الصناعات من الحرث والحصاد والدَّرس ، وآلات كل ذلك والدُّرُو والطحن وعمل الكتان والقطن والقنب والحريز وغزل ذلك كله ، لا سبيل إلى أن يعرف أحدٌ شيئاً من ذلك كله إلا حتى يوقَّف عليه فيقبله ويترفق به ويفتق (٢) بذنه في ذلك بما جعل في طبعه من قبوله (٣) وبرهان ذلك أنه من لم يعلمه قط لا يدريه ، وأنَّ البلاد التي خلت من بعض هذه الصناعات لا توجد أصلاً فيها منذ كان العالم إلى يومنا هذا ، بخلاف ما تقتضيه الطبيعةُ مما لا يُحْتَاج فيه إلى معلم : كالرضاع والأكل والشرب والجماع وغير ذلك مما لا يحتاج فيه الإنسان إلى معلم وكذلك سائر الحيوان . فصحَّ ضرورةً — صحةً حسنةً مشاهدةً — أنه لا بد في اللغات من معلم ، ولا بد في الصناعات من معلم ، ليس من المعلمين الذين في طبعهم تعلم ذلك دون تعليم ، إذ لو كان ابتداء ذلك موجوداً في الطبيعة لوجد ذلك في كلِّ عصر وفي كل مكان ، لأن الطبيعة واحدة في جميع النوع ؛ وكذلك نجدهم يستوون كلهم فيما توجهه الطبيعة لهم ، إلا أن يعرض عارضٌ حائلٌ في بعض النوع . فوجب ضرورةً أن مبتدئ إيجاد (٤) العالم هو الذي ابتداء تعليم اللغات وابتداء تعليم الصناعات ، لا بد من ذلك ، وأنه تعالى علَّم كلَّ ذلك أوَّل من أحدث من نوع الإنسان ، ثم علَّمها ذلك المعلمُ سائر نوعه . ثم تداولوا

(١) في الأصل : وجدوا

(٢) في الأصل : وفتق

(٣) اقرأ في الفصل ١ : ٦٨ ، ٧٢ نصاً مشابهاً لهذه الفقرة .

(٤) في الأصل : إيجاد

تعلم ذلك . وهذا برهان ضروري حسيٌّ مُشَاهِدٌ ، يقتضى — ولا بد — وجود الخالق ووجود النبوة . وهى تعليم الخالق اللغات (١) والعلوم والصناعات ابتداءً ، ووجود الرسالة وهى تعليم ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لمن أمر بتعليمه إياه .

فإذ قد صحَّ هذا كله من قُرْب ، فالنظر واجب : هل مبتدىء العالم واحد أم أكثر من واحد . ومعرفة حقيقة هذا يقرب جداً — وذلك أنه لولا الواحد لم يوجد عددٌ ولا معدودٌ ، ففتشنا العالم كله هل نجد فيه واحداً فلم نجده أصلاً ، لأن كلَّ ما فى العالم فإنه ينقسمُ أبداً فهو كثيرٌ لا واحد ، فإذا لا بد من واحد فى العالم ، فالواحد هو غيرُ العالم ، وليس غيرُ العالم إلا مبتدىء العالم ، فهو الواحد الذى لا يتكرر ، لا واحد سواه ؛ فوجدنا العالم محدثاً تالياً كما وصفنا ، لم يكن ثمَّ كونه مكوِّنه الذى ابتدأه ، ولا بدَّ من أوَّلٍ ، إذ لولا الأوَّل لم يكن الثانى أصلاً ، ووجود الثانى يقتضى ضرورة وجود الأوَّل ، ولا بدَّ ؛ والثانى موجودٌ فالأوَّل موجود . ففتشنا العالم كله عن أوَّلٍ لم يزل فلم نجده لأنه كله محدثٌ ، لم يكن ثمَّ كونه مبتدئاً ، فوجب ضرورة أن الأوَّل غيرُ العالم ، وليس غيرُ العالم إلا مبتدىء العالم ومحدثه .

فإذ قد صحَّ الخالق وأنه واحدٌ أول لم يزل ، وصحت النبوة ، وصحت الرسالة ، فالنظر واجب فى الأنبياء : —

فوجدنا شريعة النصارى فى غاية الفساد لوجوه : أحدها قولهم بخلاف التوحيد فى الابن والأب وروح القدس . والثانى لفساد نقلهم لرجوعه إلى ثلاثة فقط وهم مرقش ولوقا ويوحنا الناقل من متى ، (٢) فوضح عليهم

(١) أنظر رأى ابن حزم فى كيفية ظهور اللغات أعن توقيف أم عن اصطلاح ، مفصلاً فى الإحكام ١ : ٢٩ وما بعدها .

(٢) راجع فى هذا المعنى كتاب النصل ١ : ١١٤ ، ٢١٠ .

الكذب وأن أناجيلهم متضادة ، ظاهرة الكذب (١) في أخبارها ، فبطلت الثقة بنقلهم ، مع أنها شريعة معمولة من أساقفتهم وملوكهم بإقرارهم ، وما كان هكذا فالأخذ به لا يجوز ؛ إذ لا يجوز في هذا المكان إلا ما صح أنه جاء به المرسل عن الله تعالى .

ووجدنا اليهود أيضاً شريعتهم في غاية الفساد لأنها راجعة إلى كتب ضائعة النقل ، لم ينقلها من أول كونها إلى فُتْشَوَّها عندهم كافة ، بل دخلها التغيير والإتلاف وانقطاع حكمها ونقلها ، لسكفرهم بها أيام دولتهم — ثم نقلوها — (٢) واتصال ذلك فيهم المئين من السنين ، مع عظيم ما فيها من كذب الأخبار ، مع بطلان شرائعهم التي أمروا بها بإقرارهم ، وامتناع إقامتها وما كان هكذا فليس هو من عند الله بل هو باطل مفتعل ، إذ لا سبيل إلى العمل بالواجب عندهم .

ثم نظرنا في المجوس فوجدناهم مُتَقَرِّينَ أن شريعتهم كثير منها من عمل أزدشير بن بابك الملك ، وأنه ضاع من شريعتهم وكتباهم نحو الثلاثين (٣) أيام أحرَقَ الاسكندر كتبهم ، وما كان هكذا فلا يجوز التدين به لأن الدين الذي يزعمون أنه الحق لا يختلفون في أنه قد عديم ، وما كان هكذا فلا يتدين به عاقل .

ثم نظرنا في المنائية (٤) فوجدنا نقلهم فاسداً غير متصل بصاحبهم مع ظهور الكذب في كتب صاحبهم ، وفساد ما أتى به وأخبر عنه . ولم ينقل له

(١) في الأصل : الذب

(٢) غير واضحة في الأصل

(٣) كذا ذكر في الفصل (١ : ١١٥) وقبل ذلك (١ : ١١٣) قال : مترون بلا خلاف

أنه ذهب منه مقدار الثالث .

(٤) في الأصل : المنائية : والمنائية هم أتباع ماني (أنظر كتاب النصل ١ : ٣٥ والشهرستاني على هامش الفصل ٢ : ٨١) ومدار مذهب ماني على تخلص النور من الظلمة ، وهذا يقتضي الزهد والرياضة ، التي ينتج عنها طبقة الصفوة من الناس فيحرم عليهم التناسل ، وكل شيء حتى إطعام أنفسهم بأنفسهم ، وكل رجل من هؤلاء لا بد له من رفيق من طبقة السامعين أو =

أحد آية معجزة نقلاً يوجب صحة العلم بها ، وما كان هكذا فهو باطل^١ بلا شك ، مع ما فيها من الفساد الظاهر من إيجابه قطع النسل ليعود النور إلى خلاصه وهذا أمر لا يمكن البتة لاختلاف أجناس الحيوان البحري والطائر والدارج وعدم القوة على قطع تناسلها ، فلا أفسد من شريعة مدارها على سبيل إيجاب ما لا سبيل إليه .

ثم نظرنا في الصابئين فوجدناها ملة قد بطلت بالسكينة ، ولم يبق لها أثر مع أن أصولهم أصولُ المنانية التي لا شك في كذبها . وأيضاً فإن نقلهم قد انقطع فلا سبيل إلى تصحيح معجزة شاهدة لمن قلده دينهم . وأيضاً فإن شرائعهم بإقرارهم من عمل أكابرهم ، وما كان هكذا فلا يتدين به عاقل . فإذا قد بطلت هذه الديانات وليس في العالم ملة تقر بنبي غير هؤلاء — ولا بُدَّ من ملة مأخوذة عن نبيٍّ إذ لا سبيل إلى معرفة ما يأمر به الخالق تعالى إلا بنقل نبي — لم يبق إلا محمد بن عبد الله عليه السلام وملته وهو الذي كتابه منقول نقل الكواف من عنده إلينا — بخلاف نقل الانجيل الراجع إلى ثلاثة قد ظهر كذبهم ، وبخلاف نقل (١) التوراة التي هي راجعة إلى واحد وهو عزرا (٢) ، وكانت قبل ذلك أيام دولتهم بمنوعة من كل واحد إلا من الكاهن وحده — وأعلامه منقولة كذلك في الكتاب المذكور كاعجاز القرآن وعجز العرب عنه وكشفه القمر إذ سأله آية ، وكتجربة اليهود بأن يتمنوا الموت وإعلامه أنهم (٣) لا يتمنونه أبداً (٤) وإذعان ملوك اليمن وإيمانهم به دون خوف منهم له ولا طمع

== المريدون يقوم بمجتمعه (١) في الأصل : فعل

(٢) هو من الشخصيات الهامة في التاريخ الاسرائيلي ويقال إن ملك الفرس المسمى Artaxerxes أرسله من بابل إلى القدس ليعيد المذبح المهدمة فقرأ في القدس الشريعة على الناس وأدخل فيها إصلاحات . ويقال إن عمله لم يقتصر على إعادة تورا موسى التي كانت قد احترقت بل إنه أحيا كثيراً مما كان قد درس من كتب اليهود وغيره أن بعض المؤرخين يظن أنه لم يكن شخصية تاريخية . (٣) في الأصل : أنه

(٤) سورة البقرة : ٩٤ وأنظر فصلا عنده ابن حزم عن أعلام الرسول في كتابه «جوامع السيرة» الورقة السادسة وما بعدها . قال : ودعا اليهود إلى تمتي الموت وأخبرهم أنهم لا يتمنونه خيل بينهم وبين النطق بذلك .

منه في حظوة دنيا من مال أو جاه لديه ، بل دعاهم إلى ترك الملك والنزول عنه والدخول في العامة ، وإسقاط الفخر والتأثر والعداوات وطلب الدماء ، والرجوع إلى مؤاخاة من قَتَلَ الآباء والأبناء ، فأجابوه كلهم كملوك اليمن وملوك عمان والبحرين وغيرهم — حتى جبلة بن الأيهم ثم ارتد أنفست ولم يزل نادماً على رده — لا ينكر ذلك أحد ، مع براءة كتابه المنزل عليه من كل كذب ومن كل مناقضة ومن كل محال ، فصحت نبوته صحة لا مرية فيها ، وشريعته المتصلة من عهده عنه إلينا ، لأنها لم تكن قط منقطعةً فيما بينه وبيننا ولا طرفة عين فما فوقها ، ولا كانت عند خاص دون عام ، بل منقولة من بين المشرق والمغرب .

فإذ قد صحَّ هذا كله : فالواجب على العاقل ألا يقطع دهره إلا بطلب معرفة ما ينجيهِ في مَعَادِهِ ، ويخلصه من الهلكة ومن النيران المحيطة بها ، ويرفعه إلى السموات التي هي محلُّ الحياة الأبدية والنجاة من كل مكروه وموضع السرور السرمدي واللذات الدائمة التي لا انقطاع لها . ولا يشتغل من سائر العلوم إلا بمقدار ما يعرف به أعراضها ، ويزيل عن نفسه عَمَى (١) الجهل بأنه لعلَّ فيها ما ليس فيها ، وما يتعلق بالديانة منها ، ثم يرجع إلى ما فيه خلاصه .

وإذ لا شك في هذا فاعلم أن الفلاسفة لم يدعوا قط أنهم تخلصوا بها بعد الموت ، ولو ادعوا ذلك لكانت دعواهم كاذبةً لتعريضها من برهان يُصَدِّقُ الأبدية ، والنجاة من كل مكروه ، وموضع السرور السرمدي واللذات الدائمة التي لا انقطاع لها ، والله أعلم بالصواب . وأيضاً فإنهم في آرائهم في أديانهم يختلفون : هذا بيَّن في كتبهم ، فبعضهم يثبت حدوث العالم كسقراط وأفلاطون ، وبعضهم يثبت أنه لم يزل وأنه له فاعل لم يزل يخلق ، وهذا قول ينسب إلى أرسطاطاليس ، وبعضهم يثبت النبوة والمعاد

والجزاء في المعاد ، والملائكة ، كأفلاطون وصاحب كلية ودمنة من فلاسفة الهند ، وبعضهم يقول بتناسخ الأرواح ، كصاحب كتاب سندباد من فلاسفة الهند . فهم كغيرهم في الاختلاف ، ولا فرق ، ولا فضل .

فالعاقل الناصح لنفسه هو من اتبع من يُخَلِّصه ، والمجنون هو من اتبع من لا يخلصه ولا يغني عنه شيئاً ، ولا ينفعه عاجلاً ولا آجلاً . ليس في الحماقة أكثر من هذا . وإذا لا شك في هذا فهذه صفة تعم كل أحد حاشا الذي أرسله الله خالقنا تعالى إلينا ، لخلاصنا في عاجلنا وآجلنا .

واعلم أن من طلب علم الشريعة ليدرك به رياسة أو يكسب به مالا فقد هلك ، لأنه طلبه لغير ما أمره خالقه أن يطلبه ؛ لأن خالقنا - عز وجل - إنما أمرنا أن نطلب ما شرع لنا لننجو به بعد الموت من العذاب والسخط . فمن طلبه لغير ما أمره به خالقه ، فَقَدْ عَظَاهُ وبطل تعبهُ وحبط عمله وضلَّ سعيه .

واعلم أن من أخذ الشريعة عن غير ماصح عن صاحب الشريعة الذي أرسله الله تعالى بها ، واتبع من لم يأمره الله تعالى باتباعه فقد خاب وخسر وبطل عمله ، والذي قلنا في هذا هو الذي مضى عليه أهل الحق من الذين صحبوا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فمن بعدهم ، جيلاً جيلاً ؛ وحدث في خلال ذلك من الآراء الفاسدة ما لا يخفى على أحد حدوثه ومبدأه ، وقد لاح أن كل حادث غير ما أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو باطل مفتري ، والباطل فرض اجتنابه ، وبالله التوفيق .

فهذا بيان ما سألت عنه بغاية الاختصار والبيان ونهاية البرهان ، والحمد لله كثيراً ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وسلم تسليماً كثيراً .

كملت رسالة التوقيف على شارب النجاة باختصار الطريق ؛
بمحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه ، وبالله المستعان

رسالة مراتب العلوم

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله

رسالة مراتب العلوم

قال الفقيه الإمام الحافظ أبو محمد علي بن سعيد بن حزم ، رحمه الله :
الحمد لله رب العالمين الذي أفاض علينا النعم الجزيلة ، ومنحنا القوى الرفيعة ،
حمداً يرضيه عنا ، ويقتضى لنا المزيد من آلائه (١) ومواهبه السنية ، وصلى
الله على سيدنا محمد ، خيرته من الأنس ، وصفوته من ولد آدم ، المبعوث
بألهدى لاستنقاذ من اتبعه من ظلمات الكفر وعي الجهل إلى نور العلم .

أما بعد : فإن الله تعالى كرم بني آدم وفضلهم على كثير من خلق . وخصهم
على سائر خليقته بالتميز الذي مكنهم به من التصرف في العلوم والصناعات .
فواجب على المرء ألا يضيع ودیعة خالقه عنده وأن لا يهمل عطية باريه
لديه ، بل فرض عليه أن يصونها باستعمالها فيما له خلق ، وأن يحوطها في
تصرفها فيما دعى إليه .

وبعد : فإن لكل مقام مقالا ، ولكل زمان حالا ، وإن السالفين قبلنا
كانت لهم علوم يواظبون على تعليمها ، ويورثها الماضى منهم الآتى . ثم إن
من تلك العلوم ما بقى وبقيت الحاجة إليه ، ومنها ما درس رسمه ، ودثرت
أعلامه ، وانبت (٢) جملة فلم يبق إلا اسمه . فمن ذلك علم السحر ، وعلم
الطلسمات (٣) . فإن بقاياها ظاهرة لا تحفة ، وقد طمس معرفة عليها ، ومن

(١) في الأصل : الاله

(٢) في الأصل : وانبت

(٣) أنظر مقدمة ابن خلدون : ٤٣٣ وقد عرف الاندلسيون علوم السحر والطلسمات عن
طريق مسلمة بن أحمد الجرجى إمام أهل الأندلس في التعاليم والسعريات فهو الذى لحص
كتب الأقدمين في هذه الناحية .

ذلك علم الموسيقى وأصنافها الثلاثة، فإن الأوائل يصفون أنه كان منها [ما] يشجع الجبناء وهو اللوى، ونوع ثان يستخى البخلاء وأظنه الطنبي، ونوع ثالث يؤلف بين النفوس وينفسر (١). وهذه صفات معدومة من العالم اليوم جملة. فاعلموا أسعدكم الله بتوفيقه أن من رأيتموه يدعى علم الموسيقى واللحن، وعلم الطلسمات، فإنه مخرق كذاب ومشعوذ وقاح، وكذلك من وجدتموه يتعاطى علم الكيمياء فإنه قد أضاف إلى هذه الصفات الذميمة التي ذكرنا استئصال (٢) أموال الناس، واستحلال التدليس في النقود وظلم من يعامل في ذلك، والتغريب بروحه وبشرته في جنب ما يعاني من هذه الرذيلة. فإن العلمين المذكورين أولاً، وإن كانا قد عدما وانقطعا ألبتة، فقد كانا موجودين دهوراً. وأما هذا العلم الذي يدعونه من قلب جوهر الفلز (٣) فلم يزل عدماً غير موجود. وباطلاً لم يتحقق ساعة من الدهر؛ إذ من المحال قلب نوع إلى نوع، ولا فرق بين أن يقلب نحاس إلى أن يصير ذهباً أو قلب ذهب إلى أن يصير نحاساً، وبين قلب إنسان إلى أن يصير حماراً، أو قلب حمار إلى أن يصير إنساناً. وهكذا سائر الأنواع كلها، وهذا ممنوع ألبتة، وبالله تعالى التوفيق، ومنه أستمداً لا إله إلا هو، فلا وجه للاشتغال بعلم قد دثر وعدم، وإنما الواجب أن يهتم المرء بالعلوم الممكن تعلمها التي قد ينتفع بها في الوقت، وأن يؤثر منها بالتقديم ما لا يتوصل إلى سائره إلا به ثم الأهم فالأهم والأنافع فالأنافع، فإن من رام الارتقاء إلى أرفع العلوم دون معاناة ما لا يوصل إليه إلا به، كن رام الصعود إلى عليية مفتحة مظلمة أنيقة البناء دون أن يتكلف التنقل إليها في الدرج والمراق التي لا سبيل إلى تلك العلية إلا بها.

(١) الأجناس في الموسيقى ثلاثة أحدها الطنبي والثاني اللوى والثالث التأليفي وتسمى كذلك بنسبة تقسيم الأبعاد فالأول أخفها وهو يحرك النفس إلى النجدة وشدة الانبساط ويسمى الرجلى والثاني يحرك النفس للكرم والحديث والجراعة ويسمى الخنوى، والثالث بولد الشجا والحزن ويسمى النسوى (مقانيح العلوم: ١٤٠).

(٢) في الأصل: في استئصال (٣) في الأصل: الفكر

وليس للمرء إلا داران : دار الدنيا ، ودار معاده إذا فارق الدنيا ، وبيقين ندرى أن مدة المقام في هذه الدار إنما هي أيام قلائل . وإجتهاد المرء نفسه فيما لا ينتفع به إلا في هذه الدار من العلوم رأى فائل (١) ، وسعى خاسر ، لأن المنتفع به في هذه الدار من العلوم ، إنما هو ما اكتسب به المال ، أو ما حفظت به صحة الجسم فقط ، فهما وجهان لا ثالث لهما . فأما العلوم التي يكتسب بها المال فإن وجه الكسب بها ضيق غير متسع ، واكتساب المال بغير العلم أجدى وأشد توصلاً إلى المرء من التوسع في [العلم] (٢) لكسب المال ، كصحة السلطان وعمارة الأرض والتقلب في التجارات . وهذه الوجوه كلها قد نجد الجاهل الأغتم أنفذ (٣) فيها من العالم التحرير ، فإذا ذاك كذلك ، فالشغل بطلب العلم ليكون سبيلاً إلى كسب المال والتعب فيه بهذه النية عناءٌ وضلال ، وفاعله قد جمع عيين عظيمين : أحدهما ترك أخصر الطريقين إلى مطلوبه وأسهلهما في التوصل إلى غرضه ، وركب أوعرهما مسلماً وأطولهما تعباً وأقلهما فائدة وأبعدهما منفعة . والوجه الثاني أنه استعمل الفضيلة التامة التي بان بها عن الحشرات والبهائم في اقتناء حجارة لا يدرى متى تدعه أو يدعها ، وكان كمن أتعب نفسه ، وأسهر ليله وأطال كده في إقامة سيف هندي قاطع نفيس ، وبنى داراً سرية أنيقة البناء محكمة النقوش (٤) ، موثقة الأساس ، فلما تمَّ له كما أراد جعل يستعمل السيف في كسر العظام وقطع البقل ، وأوقف الدار لطرح ما يكنس فيها من الحشوش ، فمن أخسر صفقة من هذا !!

وأما العلم الذي ليس فيه إلا حفظ صحة الجسم فقط ، فإن المتعب فيه

(١) في الأصل : فائل

(٢) زيادة يقتضيها السياق

(٣) في الأصل : انفسد

(٤) في الأصل : النفوس

بدنه ، المجهود انفسه في تلقّيه (١) وتقييده لا يحصل من تمامه لديه إلا على
البصر (٢) في معاناة مرض لا يدري أيتم له غرضه من برئه أم لا يتم . ثم
إن تمّ فليس على ثقة من عود ذلك الداء بعينه أشد ما كان ، أو حدوث داء
آخر مثل الذي استنفذ طوقه في معاناته (٣) وأعضل منه . وأما المضمون
المحتوم فإنه لا يقدر على دفع الموت إذا حل ، ولا على علاج الزمانة إذا
استحكمت ؛ ولعل ذلك يحدث بمن أتعب نفسه في مداواته في أسرع
من كرّ (٤) الطرف .

فمن تأمل ما ذكرنا ، علم أن المنفعة بما قصد به من العلوم إلى المنفعة
الخاصة ، قليلة جداً وضعيفة العائدة جملة . إلا أن هذين الوجهين (٥) وإن
كانا وتحي النفع قليلاً إلى الأجزاء (٦) لانتصاليهما (٧) بالتعب في اقتناء العلم الذي
هو سببهما ، فلماذا حظّ من النفع . وإنما الداء العياء ، والذم الكامل ،
والخسارة المحضة ، حال من اقتنى أرفع العلوم ليحصل به على كسب مال من
غير وجهه ، وصرف ما علم في غير طريقه ، فإن حال الجاهل الخاملة
أجل (٨) من حال العالم ، لما ذكرنا . ونسأل الله التوفيق ونعوذ
به من الخذلان .

فإذ الأمر كما ذكرنا ، فأفضل العلوم ما أدّى إلى الخلاص في دار الخلود
ووصل إلى الفوز في دار البقاء . فطالب هذه العلوم لهذه النية هو المستعيب
بتعب يسير راحة الأبد ، وهو ذو الصفة الرابحة والسعي المنجح الذي بذل

(١) في الأصل : تقيّنه

(٢) في الأصل : الحصر

(٣) في الأصل : استنفذ طوقه في معانه

(٤) في الأصل : كد

(٥) في الأصل : إن هذا من الوجهين

(٦) الوتج : القليل النافع ، والأجزاء : مصدر من أجزأ بمعنى أغنى وكفى

(٧) في الأصل : لانتصاليهما (٨) في الأصل : لحامله أمل

قليلاً واستحقَّ كثيراً ، وأعطى تافهاً وأخذ عظيمها . وهو الذى عرف ما لا يبق
معه فزهد فيه ، وَمَيَّزَ ما لا يزايله فسعى له ، ونسأل الله أن يجعلنا فى عدادهم
بمنته آمين .

وباليقين يدرى كل ذى [لب] (١) سليم أنه لا يتوصل إلى العلوم إلا
بطلب ، ولا يكون الطلب إلا بسمع وقرأة وكتاب ، لا بدّ من هذه الثلاث
خِصال ، وإلا فلا سبيل دونها إلى شىء من العلوم ألبتة . فإذ ذلك كذلك ،
فلانستكمل — بعون الله تعالى — على وجه التوصل إلى العلوم ، وبيان أفضليها
صفة وأعلها قدرأ ، والذى بالناس إليه الضرورة الماسة ، والفاقة الشديدة
والحد الذى لا يحزى منه ما دونه ، والنهاية التى لا وراء لها منه . فالواجب
على من ساس صغار ولدانه وغيرهم أن يبدأ منذ أول اشتدادهم وفهمهم
ما يخاطبون به ، وقوتهم على رجوع الجواب — وذلك يكون فى خمس سنين
أو نحوها من مولد الصبى — فيسلمهم [الى مؤدب] (٢) فى تعليم الخط
وتأليف الكلمات من الحروف فإذا درب الغلام فى ذلك ، درس (٣) وقرأ
والحدّ الذى لا ينبغي أن يقتصر المعلم على أقلّ منه أن يكون الخط قائم
الحروف ، يبدأ صحيح التأليف الذى هو الهجاء ، فإن الخط إن لم يكن هكذا
لم يقرأ إلا بتعب شديد . وأما التزيد فى حسن الخط فليس هو فضيلة بل لعله
داعية إلى التعلق بالسلطان ، فيفنى دهره إما فى ظلم الناس ، وإما فى تسويد
القراطيس بتواقيع بعيدة (٤) من الحق ، مشحونة بالكذب والباطل ، فيضيع
زمانه باطلا ، وتحسر صفقته ، ويندم حين لا ينفعه الندم ، وكان كإنسان ملك
مسكاً كثيراً فترك أن يصرفه فى التطيب به ومداواة النفوس بريحه وفغوته (٥)

(١) زيادة لازمة

(٢) زيادة يقتضيها السياق

(٣) فى الاصل : ودرب

(٤) فى الاصل : بميد

(٥) فى الاصل : وقوته ، والفغوة : الرائحة الطيبة .

وأقبل يطيبُّ به البهائم ، ويصبه في الطريق حتى فنى في غير فائدة . فهذا [حد] تعلم الكتاب .

وحد تعلم القراءة أن يمهر في القراءة لكل (١) كتاب يخرج من يده بلغته التي يخاطب بها صقعه ، وينفذ فيه ، ويحفظ مع ذلك القرآن فإنه يجمع بذلك وجوهاً كثيرة عظيمة ، أحدها التدرب في القراءة له وتمرين (٢) اللسان على تلاوته فيحصل من ذلك حداً ، إلى ما يحصل عنده من عهده الفاضلة ووصاياه الكريمة ، ليجدها عدة عنده مدخرة لديه قبل حاجته إليها يوم حاجته إليها (٣) .

فإذا نفذ في الكتابة والقراءة كما ذكرنا . فلينتقل إلى علم النحو واللغة معاً : ومعنى النحو : هو معرفة تنقل هجاء اللفظ وتنقل حركاته الذي يدل كل ذلك على اختلاف المعاني كرفع الفاعل ونصب المفعول ، وخفض المضاف ، وجزم الأمر والنهي ، وكالياء في التثنية والجمع ، في النصب وخفضهما ، وكالآلف في رفع التثنية ، والواو في رفع الجمع وما أشبه ذلك . فإن جهل هذا العلم عسر عليه علم ما يقرأ من العلم .

واللغة : هي ألفاظ يعبر بها عن المعاني فيقتضى من علم النحو وكل ما يتصرف في مخاطبات الناس وكتبهم المؤلفات ، ويقتضى من اللغة المستعمل الكثير التصرف . وأقل ما يجزى من النحو « كتاب الواضح » للزبيدي (٤) أو ما نحا نحوه « كالموجز » لابن السراج (٥) ، وما أشبه هذه الأوضاع

(١) في الأصل : كل

(٢) في الأصل : وتميز

(٣) في الأصل : إليه يوم حاجته إليه

(٤) هو محمد بن الحسن نحوى الاندلس ولغويها المشهور ؛ انظر ترجمته في الجذوة رقم ٣٤

وابناء الرواة : ٦٢٤ وأخبار المحمدين : ٧٣ — ٧٤ والواقى : ٢ : ٣٥١ وبغية الوعاة : ٣٤

(٥) هو محمد بن السرى البغدادى النحوى صاحب المبرد وعنه أخذ انزجاجى والسيرافى .

توفى سنة ٣١٦ وله مؤلفات أخرى عدا الموجز منها الأصول في النحو ، والجل والاشتقاق وغيرها (انظر تاريخ بغداد : ٥ : ٣٩٣ ومجمع الأدباء : ٧ : ٩ والواقى : ٣ : ٧٦) .

الحقيقية ، وأما التعمق في علم النحو ففضول لا منفعة بها بل هي مشغلة عن الأوكد ، ومقطعة دون الأوجب والأهم ، وإنما هي تكاذيب فمواجه الشغل بما هذه صفته ؟ وأما الغرض من هذا العلم فهي المخاطبة ، وما بالمرء حاجة إليه في قراءة (١) الكتب المجموعة في العلوم فقط . فمن يزيد في هذا العلم إلى إحكام كتاب سيبويه فحسن ، إلا أن الاشتغال بغير هذا أولى وأفضل ، لأنه لا منفعة للزبد على المقدار الذي ذكرنا إلا لمن أراد أن يجعله معاشاً فهذا وجه فاضل لأنه باب من العلم على كل حال .

والذي يحزى من علم اللغة كتابان : أحدهما « الغريب المصنف » لأبي عبيد ، والثاني « مختصر العين » للزبيدي ، ليقف على المستعمل بهما . ويكون ما عدا المستعمل منهما عدة حاجة إن عنت يوماً ما في لفظ مستغلق فيما يقرأ من الكتب . فإن أوغل في علوم اللغة حتى يحكم « خلق الإنسان » لثابت ، و « الفرق » له ، (٢) و « المذكر والمؤنث » لابن الأنباري و « الممدود والمقصود والمهموز » لأبي علي القالي و « النباتات » لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري ، وما أشبه ذلك فحسن بخلاف ما قلنا في علل النحو ، لأن اللغة كلها حقيقة وذات أوضاع صحاح وعبارات عن المعاني ولو كانت اللغة أوسع حتى يكون لكل معنى في العالم اسم مختص به ، لكان أبلغ للفهم وأجلى للشك وأقرب للبيان ، إلا أن الاختصار على المقدار الجاري بما ذكرنا ، والانصراف إلى الأهم والأوكد من سائر العلوم أولى .

وإن كان مع ما ذكرنا رواية شيء من الشعر فلا يكن إلا من الأشعار التي فيها الحكم والخير كشعر حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبيد الله ابن رواحة رضي الله عنهم ، وكشعر صالح بن عبيد القدوس ونحو ذلك ، فإنها نعم العون على تنبيه النفس وينبغي أن يتجنب من الشعر أربعة أضرب :

(١) في الأصل : قل

(٢) ثابت بن أبي ثابت ، أبو محمد الملقب ، من أصحاب أبي عبيد القاسم بن سلام وكتابه

« خلق الإنسان » أجاد فيه حق الاجادة (أنظر انباء الرواة : ١٦٢ وبغية الوعاة : ٢١٠)

أحدهما : الأغزال والرقيق فإنها تحث على الصباية وتدعو إلى الفتنة ، وتحض على الفتوة وتصرف النفس إلى الخلاعة واللذات (١) وتسهل الانهماك في الشطارة والعشق وتنتهي عن الحقائق حتى ربما أدى ذلك إلى الهلاك والفساد في الدين وتبذير المال في الوجوه الذميمة وإخلاق العرض وإذهاب المروءة وتضييع الواجبات . وإن سماع شعر رقيق لينقض بنية المرء الرائض لنفسه حتى يحتاج إلى إصلاحها ومعاناتها برهة لاسيما ما كان يعنى (٢) بالمذكر وصفة الخمر والخلاعة ، فإن هذا النوع يسهل الفسوق ويهون المعاصي ويردى جملة .

والضرب الثاني : الأشعار المقولة في التصعلك وذكر الحروب كشعر عنبرة وعروة بن الورد وسعد (٣) بن ناشب وما هنالك ، فإن هذه أشعار تثير النفوس وتهيج الطبيعة وتسهل على المرء موارد التالف في غير حق وربما أدته إلى هلاك نفسه في غير حق ، وإلى خسارة الآخرة مع إثارة القتل وتهوين الجنايات والأحوال الشنيعة والشره إلى الظلم وسفك الدماء .

والضرب الثالث : أشعار التغرب ، وصفات المفاوز والبيد المهامه ، فإنها تسهل التحوّل والتغرب وتنشئ المرء فيما ربما صعب عليه التخلص منه بلا معنى .

والضرب الرابع : الهجاء ، فإن هذا الضرب أفسد الضروب لطالبه ، فإنه يهون على المرء الكون في حالة أهل السفه من كناسي الحشوش (٤) والمماناة لصناعة الزمير المتكسبين بالسفاهة والاندالة والخساسة وتمزيق الأعراض وذكر العورات وانتهاك جرم الآباء والأمهات وفي هذا حلول الدمار في الدنيا والآخرة .

(١) في الأصل : الذات .

(٢) في الأصل : ينهى

(٣) في الأصل : سعيد . أما سعد فهو أحد شعراء الحنابلة ، كان من شياطين العرب وهو صاحب يوم الوقيط في الإسلام بين تميم وبكر ، وقد أصاب دماً فهدم بلال داره . راجع الشعر والشعراء : ٦٧٧ والخزانة ٣ : ٤٤٤ والسمط : ٧٩٢ .

(٤) في الأصل : كناسي الحشوش

ثم صنفان من الشعر لا يُنهى عنهما نهياً تاماً ولا يُخصّص عليهما بل هما عندنا من المباح المكروه وهما : المدح والرثاء : فأما إباحتهما فلأن فيهما ذكر فضائل الموت والممدوح وهذا يقتضى للراوى ذلك الشعر الرغبة فى مثل ذلك الحال ، وأما كراهتهما لهما فإن أكثر ما فى هذين النوعين الكذب ، ولا خير فى الكذب .

وأيضاً فإن الإكثار من رواية الشعر ، هو كسب غير محمود ، لأنه [من] طريق الباطل والفضول ، لا من طريق الحق والفضائل ، ولا يظن ظان أن هذا علم جهلناه فذمناه فقد علم من داخلنا أو بلغه أمرنا كيف تَوَسَّعْنَا فى رواية الأشعار ، وكيف تمكنا من الإشراف على معانيها ، وكيف وقوفنا على أفانين الشعر ومحاسنه ، ومعانيه وأقسامه ، وكيف قُوَّتْنَا على صناعته ، وكيف تأتَّى مقصده ومقطوعه لنا ، وكيف سهولة نظمه علينا فى الإطالة فيه والتقصير (١) ، ولكن الحق أولى بما قيل .

فإذا بلغ المرء من النحو واللغة إلى الحد الذى ذكرنا فلينتقل إلى علم العدد ، فليحكم الضرب والقسم والجمع والطرح والنسبية وليأخذ طرفاً من المساحة ، وليشرف على الارثماطيق — وهو علم طبيعة العدد — وليقرأ كتاب أقليدس قراءة متفهم له ، واقف على أغراضه ، عارف بمعانيه ، فإنه علم رفيع ، به يتوصل إلى معرفة نصبة الأرض ومساحتها وتركيب الأفلاك ودورانها ومراكزها وأبعادها ، والوقوف على براهين كل ذلك وعلى دوران الكواكب وقطعها فى البروج ، فهذا علم رفيع جداً يقف به المرء على حقيقة تنهى جرم العالم وعلى آثار صنعة البارئ فى العالم فلا يبقى له إلا مشاهدة الصانع فقط ، وأما الصنعة والادارة والتركيب ، فقد شاهد كل ذلك بوقوفه

(١) بذلك شهد الحميدى تلميذ ابن حزم (الجنوة : ٧٠٨) حين قال : وكان له فى الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وشعره كثير .

على ما ذكرنا . وبمطالعته كتاب المجسطى يعرف الكسوفات وعروض البلاد وأطوالها والأوقات وزيادة الليل والنهار والمد والجزر ومنازل الشمس والقمر والدرارى . وأما الايغال فى المساحة فمنفعته فى جلب المياه ورفع الأثقال وهندسة البناء وإقامة الآلات الحكيمة .

وأما الاشتغال بأحكام النجوم فلا معنى له ، ولا يخلو من أن يكون ما يحكون من قضاياها حقاً أو باطلاً ، إذ لا سبيل إلى قسم ثالث ، فإن كانت حقاً فما لها فائدة إلا استعجال الهم والغم والبؤس والنكد ، لتوقع المرض والنكبات وموت الأحبة وانقطاع كمية العمر ومعرفة فساد المولد . فإن قالوا إنه قد يمكن دفع ما يتوقع من ذلك فقد قضوا بأنها لا حقيقة لها ، إذ الحق الحتم لا سبيل إلى رده . وإن كان باطلاً فأهل (١) أن لا يشتغل به . ونقول قولاً صحيحاً متيناً ليعلم كل ذى عقل ينصح نفسه بأنه لا سبيل إلى قلب الأنواع وإحالة الطبائع ، فمن اشتغل بشئ من هذين العلمين ، فإنما هو إنسان محروم مخذول يطلب ما لا يجد أبداً ، وبالجملة فليس القضاء بالنجوم علم برهان ، وإنما هو تراعى (٢) أبداً ، وبالجملة تجارب ، وإذ هى كذلك ، فباطل بلا شك ، لأن التجارب لا تكون إلا بتكرير الحال مراراً كثيرة جداً على صفة واحدة لا تستحيل أبداً (٣) والنسبة التامة من الكواكب لا تعود إلا إلى عشرة آلاف من السنين ، ولا سبيل إلى ضبط تجربة مثل هذه إلا بتداول قوم متعاقبين لرصد تلك النصب (٤) ؛ وباليقين ندرى أنه

(١) فى الأصل : أهل (٢) فى الأصل : تداعى

(٣) تكلم ابن خلدون فى إبطال صناعة النجوم ناقضاً إمكان كمال التجربة فقال : فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تنصر الأعمار كلها لو اجتمعت عن تحصيله ، إذ التجربة إنما تحصل فى المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم أو الظن (مقدمة : ٤٧٧) .

(٤) كرر ابن حزم نقض القضاء بالنجوم فى كتابه الفصل (٣٨:٥) مستدلاً بفكرة استحالة ==

لا يبقى فيما انحدر عن شرق العمود ، مملكة عَشْرَ الدَّوَرِ ، فكيف الدور كله ؟ وإذا ذهبت المملكة لم تذهب إلا بحروب وغارات وسوء حال وفساد بلاد وحوادث آخر ، وهذا كله يذهب علوم تلك المملكة ورتبها وأرصادها وأكثر أخبارها بل كلها ، فلا سبيل مع ذلك إلى اتصال رصد هذه المدة كلها ، فكيف أن يمكن دوام التجربة تكررارا دورا بعد دور ؟ وما عندنا تاريخ أبعد من تاريخ التوراة وليس له إلا ثلاثة آلاف سنة فقط ، فأين يقع مما نريد (٢) ؟ وأما تاريخ الفرس [فإ] عندنا أخبار لهم فاشية محققة إلا من عهد ملوك الساسانية وذلك أقل من ألف عام ، وكذلك تاريخ الروم . وأما تاريخ القبط والسريانيين وأدوم وعمون ومؤاب وسائر تلك الأمم ، فما لهم اليوم في الدنيا خبر ولا أثر ، فكيف تبقى أرصاد المدة المذكورة ؟ وأما الهند والصين فلم تبلغنا آثارهم كما نريد ، ولعل لهم أرصاداً قديمة ، فإنهما مملكتان سلمتا من الآفات على مر الدهور . على أن أهل الصين ليسوا أهل علوم ألبتة ، وإنما هم أهل صناعات ، فلعل هذا يكون بالهند . فإن لم يكن فمضمون عدمه من العالم — هذا إلى ما في شروط علم القضاء من الصفات التي لا سبيل لمن يدعى علمها إلى استيفائها (٣) : من مواقع السهام ومطارح الشعاعات والدرج النيرة والمظلمة ، والقمة والآبار (٤) ، وخواص

== التجربة فقال « إن التجربة لا تصح إلا بتكرر كثير موثوق بدوامه تضطر النفوس إلى الإقرار به كاضطرارنا إلى الإقرار بأن الإنسان إن بقي ثلاث ساعات تحت الماء مات ، وإن أدخل يده في النار احترق ولا يمكن هذا في القضاء بالنجوم لأن النصب الدالة عندهم على السكائنات لا تعود إلا في عشرات آلاف من السنين ، لا سبيل إلى أن يصح منها تجربة » .
(٢) في الأصل : فأين يقعان مما أريد .

(٣) أنظر العبارة التالية في شروط علم القضاء مكررة نصاً في الفصل ٥ : ٣٨ وهي محرفة أيضاً هنالك .

(٤) في الأصل : والقمة والآبار . قال الخوارزمي في مفاتيح العلوم : ١٣٢ « والدرجات المظلمة درج معروفة والدرجات القمّة من القنّام وهو الغبار ، والآبار درج في البروج إذا باعتهما السكواكب نحتت فيها واحدها بئر » .

الدرارى فى كل برج ، والكواكب البنيانية (١) وغير ذلك مما لا يمكنهم توفيته حقه على أصولهم . فإذا كان ذلك كذلك ، فتحقيق عليهم فى القضاء لا سبيل إليه ألبتة ، ولا يحصى كم شهدنا لهم من القضايا المحققة المتفق عليها من أهل الإحسان لهذا العلم ، على ما فى كتبهم ، فما صدق منها شيء إلا الأقل . النزر الذى يصدق بالتقدير أكثر منه ، نعى من المواليد التى لا شيء فى علمهم أحق منها . وأما المناخات وتحاويل السنين والقرانات الصغار فيعلم الله أننا ما رأيناهم صدقوا منها فى قضية أبداً ، كل سنة رأينا ، وما وجدنا أكثر كلامهم فى ذلك إلا على ظاهر الرأى والتقدير فقط (٢) ، ولو لم يكن من ظاهر الدعوى إلا قولهم زحل يشرف فى برج كذا ، ويسقط فى برج كذا (٣) ، وكذا سائر الدرارى ودعواهم فى وجوه المطالع وسائر تلك الخرافات ، فإنهم لا يأتون على ذلك لا برهان ولا بإقناع ولا بشغب وإنما هو « اسمع واسكت وصدق الأمير » ، وما كان هذا سبيله فلا ينبغي أن يشتغل به عاقل . اشتغال معتد به علماً ، إلا أنه لا ينبغي لطالب الحقائق أن يخلو من النظر فيه ليعرف أغراضهم ، ويرى نفسه من تطلعها إلى الوقوف [عليها] ، وليفريق من دعاويهم وتخرفاتهم ، ويزيل عن نفسه الهم إذا عرف أنه لا فائدة فيه .

ولقد حدثنى شيخنا يونس بن عبد الله القاضى (٤) قال : سمعت يحيى بن مجاهد الفزارى الزاهد يقول : هذا كان أوان طلبى للعلم إذ قوى فهمى واستحكمت إرادتى . فقلت له : فعلنا الطريق ، لعلنا ندرك ذلك بوصاتك ، فى استقبال

(١) كذا فى الفصل ، وهذه القراءة توافق رسم السكامة فى المخطوطة . ولم أهتم إلى المتصود منها ، فالكواكب منها السيارة والثابتة ، ومنها العلوية والسفلية ، ومنها المتحركة .

(٢) راجع الفصل ٥ : ٣٩

(٣) شرف الكوكب درجه فى برج ينسب إليه ولكل واحد من السبعة سرفرفد زحل فى الميزان وشرف المشتري فى السرطان وشرف المريخ فى الجدى ... وهكذا ، والذي يقابل الشرف هو الهبوط أو السقوط .

(٤) مرت ترجمته فى رسالة البيان عن حقيقة الإيمان ، ص ٢٢ : تعليق ٣ .

أعمارنا قال : نعم كنت آخذ من [كل] علم طرفاً ، فإن سماع الإنسان قوماً يتحدثون وهو لا يدري ما يقولون غمة عظيمة . أو كلاماً هذا معناه . قال أبو محمد : ولقد صدق رحمه الله .

فإذا بلغ الانسان حيث ذكرنا ، أخذ في النظر في حدود المنطق وعلم الأجناس والأنواع والأسماء المفردة والقضايا والمقدمات والقرائن والنتائج ليعرف المرء ما البرهان وما الشغب ، وكيف التحفظ مما يظن أنه برهان وليس ببرهان ، فهذا العلم يقف على الحقائق كلها ويميزها من الأباطيل تمييزاً لا يبق معه ريب ، وينظر في الطبيعيات ، وعوارض الجو ، وتركيب العناصر ، وفي الحيوان والنبات والمعادن ، ويقرأ كتب التشريح ليقف على محكم الصنعة وتأثير الصانع وتأليف الأعضاء واختيار المدبر وحكمته وقدرته ، فإذا أحكم ذلك في خلال ابتدائه بالنظر في العلوم فلا يكن منه إغفال لمطالعة أخبار الأمم السالفة والخالفة ، وقراءة التواريخ القديمة والحديثة ليقف من ذلك على فناء (١) الممالك المذكورة ، وخراب البلاد المعمورة ، ودثور المدائن المشهورة التي طالما حُصِّنتْ وأحكمت مبانيها ، وذهاب من كان فيها وانقطاعهم ، وتقلب الدنيا بأهلها ، وذهاب الملوك الذين قتلوا النفوس وظلموا الناس واستكثروا من الأموال والجيوش والعدد ليستديموها لهم (٢) ولأعقابهم فما دامت (٣) لهم ، بل ذهبوا وانقطعت آثارهم ، ورَحلَ بنوهم وضاعوا ، وبقي ما تحملوا من الآثام والذم والذكر القبيح لازماً لأرواحهم في المعاد ولذكرهم في الدنيا ، فيحدث له فيها بذلك زهد وقلة رغبة وليسرف على اغترار الملوك بها ، لعظيم الحسرات النازلة بهم وبمخلفيهم ، وليقف على حمد المتقين الأخيار للفضائل فيرغب فيها ، ويسمع ذمهم للردائل فيكرهها . ويوفى على تيقن النصيح منها لما يرى من تناصر التواريخ على تباعد

(١) في الأصل : خنا

(٢) في الأصل : ليستدموا ما هم ولا

(٣) في الأصل : دام

أقطار حاملها ، وتفاوت أزمانهم وتباين هممهم واختلاف أديانهم وتفرق مذاهبهم على نقل قصة ما ، فيوقن أنها حق لاشك فيه ، ويسمع بخلاف نقلهم في قصة ما ، فيدرى أنها مضطربة . ويرى أخبار العلماء والصالحين فيرى الحرص على مثل حالهم ويرغب في إلحاق اسمه بأسمائهم إذاسلك طريقهم وحذا حذوهم وعمل عملهم ، ويطالع آثار المفسدين في الأرض وسوء الآثار عليهم ، وما أبقوا من الأسماء الذميمة ، فيمقت طريقهم ، ويجتنب أن يكون مذكوراً فيهم . ويجعل هذا العلم خاصة وقت راحته وسأته من تعلم غيره من العلوم ، فإن هذا العلم سهل جداً وَ مَنَشَطٌ وَ مُنَزَّهٌ وَلَذَّةٌ ، لا ينبغي لأحد أن يخلو منه فلا يدرى أثراً ولا ما تقوم به الحجة من الأخبار التي يضطر إلى العلم بها حقيقة ، بل يكون بمنزلة من قدّر أن العالم لم يكن إلا مذكاً كان هو .

فإذا أحكم ما ذكرنا فأولى الأشياء به معرفة ما له خرج إلى هذا العالم ، وما إليه يرجع إذا خرج من هذا العالم ، وبيان ذلك بيان انقضاء أيام سفره ، فإنها قليلة جداً ، فلا شيء أؤكد عليه من هذا ، لأن ما عدا ذلك من بؤس ونعيم ولذة ومال ورياسة وفقر وخمول ونكد فنقص كله في أسرع وقت ، لسنا نقول بالموت الذي لا بد منه فقط ، بل بالهرم وعوارض الدهر الذي لا يؤمن تقلبه بأهله قبل كر الطرف .

فيلزم (١) المرء أن ينظر — إذا أحكم ما ذكرنا — أن يطلب البرهان من العلوم الضرورية التي ذكرنا على : هل العالم محدث أو لم يزل . فإذا حصل له أنه محدث وذلك قائم في إحصاء العدد لازمانه وعدد أشخاصه وأنواعه ، نظر هل [له] (٢) محدث أو لا محدث له فإذا حصل له أنه محدث لم يزل ، وهذا قائم من باب الفضائل من حدود المنطق ، نظر هل المحدث واحدٌ أو أكثر من واحد ، فإذا حصل له أنه واحد وهذا قائم من باب الإحصاء المذكور

(١) في الأصل : فليزم

(٢) زيادة لازمة .

في العدد، [نظر] (١) هل النبوة ممكنة أو واجبة أو ممتنعة، فإذا حصل له أنها ممكنة بالقوة بما يوجبه أن المحدث مختار لا يعجز عن شيء، ثم إذا حصل له أنه قد وجدت بالأخبار الضرورية، نظر في النبوات التي افترقت عليها الملل، فإذا حصل له أن كل ما ثبتت به نبوة واحد منهم، فواجب أن تثبت بمثله نبوة مَنْ تَقَلَّ عنه مثل الذي نقل عن غيره منهم، وقف عند ذلك وسلم الأمر إلى من صحَّت له البراهين بنبوته، وأنه عن الله عز وجل يتكلم وعن عهوده يخبر، وتبحث حينئذ عن كل ما أُمرَ به أو نُهي عنه فاستعمل نفسه به. ولم يقبل من إنسان مثله لم يؤيد بوحى من الله، عز وجل، أمراً ولا نهياً، فهذا [طريق] (٢) الخلاص وشارع النجاة ومحلة الفوز التي من عاج عنها طال تحيره وتردده. وافترقت به السبل حتى يهلك خاسراً نادماً، أو موفياً [على النجاة] (٣) بالبخت، كمن وجد لقطة بلا طلب، ونعوذ بالله من البلاء.

وهذه الطريق التي (٤) وصفنا مؤديةً إلى الإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وموجبة لطلبنا في القرآن من عهود الله تعالى، وطلب عهوده عليه السلام. وتميز صحيحهما مما لم يصحَّ منهما والأخذ بكل ذلك، والتمسك به فإن هذا معدوم في جميع الملل، حاشا ملة الإسلام: لأن ملة من عبد الأوثان أو دانَ بِمَقُولِ البراهمة المبطلين للنبوات فإنه لا سبيل إلى إثبات شريعة لهم وإذا قد أعدموا المثبت الشارع، وأعدموا الطريق الموصلة إليه، فبقى الناس على قولهم سدَّي لا زاجر لهم عن ظلم ولا عن فاحشة — وأما دين المنانية

(١) زيادة لازمة

(٢) زيادة يقتضيها المعنى

(٣) زيادة موضحة للمعنى

(٤) في الأصل: الذي

فظاهر التخليط لقولهم بأن الصانع صَنَعَ في نفسه، وهذا مُبْطَل بما يوجب حدوث العالم على ما بيَّناه في كتابنا الموسوم بالفصل بالملل والنحل (١) — وأما شريعة النصارى فإنهم مُقَرُّونَ أن شرائعهم ليست عن وحى الله تعالى، وإنما هُنَّ وضع زكريا الملك وسائر بطارفته، وهذا تشهد العقول بأنه لا يلزم إذ لم يُوجب إلزامه برهان — وأما ملة المجوس فهم معترفون بأن ثلثي كتابهم ذهب، وأن في ذلك الذاهب كانت الشرائع، ومن الباطل المستنع أن يكلف الله تعالى الناس أن يعملوا بشيء لا يدرونه، وقد ذهب عن أيديهم. ويقولون أن أزدشير بن بابك وضع لهم شرائع غير التي كانت لازمة لهم، فهذا لا يعتقده إلا جاهل، ولا يدين به إلا مخذول — وأما ملة اليهود فمعترفون أن أكثر شرائعهم اللازمة لاسبيل لهم اليها إذ خرجوا عن صهيون، وإن شرائع الربانيين منهم (٢) التي هم الآن عليها، هي غير شرائعهم التي أمروا بها في التوراة، وأن علماءهم عوضوهم عن تلك هذه، ويلزمهم الإقرار بمن صحَّ عنه من الأعلام مثلها صحَّ عن نبيهم عليه السلام.

فإن اشتغل مغفل عن علم الشريعة بعلم غيره، فقد أساء النظر وظلم نفسه، إذ أثر الأدنى والأقل منفعة، على الأعلى والأعظم منفعة؛ فإن قال قائل إن في علم العدد والهيئة والمنطق (٣) معرفة الأشياء على ما هي عليه. قلنا إن هذا حسن إذا قصد به الاستدلال على الصانع للأشياء بصنعتة، ليتدرج بذلك إلى الفوز والنجاة والخلاص من العذاب والنكد؛ وأما إن لم يكن الغرض إلا معرفة الأشياء الحاضرة على ما هي عليه فقط، فطالب هذه العلوم، ومن جعل وكده معرفة صفة البلاد على ما هي عليه، وصفات سكان أهل كل بلد، وما هي عليه، وصورهم، سواء.

(١) كذا ورد اسم الكتاب هنا وهو معروف باسم الفصل في الملل والأهواء والنحل وأُنظر في هذا الكتاب ١ : ١٤ وما بعدها أدلته على حدوث العالم؛ وقد تصدى ابن حزم لحكمة النحل أيضاً في رسالة «التوقيف على شارح النجاة» — فيما تقدم.

(٢) قال ابن حزم في ذكر فرق اليهود (الفصل ١ : ٩٩) : الربانية هم الأشعنية وهم القائلون بأقوال الأخبار ومذاهبهم، وهم جمهور اليهود.

(٣) في الأصل : المنطق

ومن كان هذا هو غرضه فقط فهو إلى أن يوصف بالفضول والحماسة أقرب منه إلى أن يوصف بالعلم ، إذ حقيقة العلم هو ما قلنا إنه يطلبه لينتفع به طالبه ، وينتفع به غيره في داره العاجلة وداره الآجلة التي هي محل قراره ومكان خلوده ، وبالله تعالى نتأيد .

فإن كان المرء العالم في كفاف من العيش ، من وجه مرضى ، فليحمد الله عز وجل ، وليقنع به ، وليعمل لدار القرار ، ولا يسرّه الإكثار من أحجارٍ وخرقٍ يتركها عما قريب ، أو تتركه . وإن كان في حاجة ، فإن أمكنه أن يجعل مكتسبه من العلم فحسن ، أما أن يكون معلّم هجاء — فهي فضيلة عظيمة لأنه سبب [حياة] (١) كل من تعلم منه شيئاً وله الأجر المضاعف من كل من يتعلم من علّمه هو إلى انقضاء الأبد ، بأن كان سبب حياة نفوسهم — أو مؤدب نحو أو مؤدب حساب أو طبيباً . فإن كان في أحد هذه السبل فلينصح في صناعته تلك ، وليطلب التزيد من العلم بما أمكنه ، ليكون سبباً للخير في تعليم الجاهل ، وإبراء الأدواء بإذن الله تعالى ، ولا يرض بالعيش والتمويه ، فيفسد خلقه ومتاعه ومكتسبه فيخسر صفقته ، وليس تعمل القناعة جهده .

وإن ابتلى بصحبة سلطان فقد ابتلى بعظيم البلايا ، وعرض للخطر الشنيع في ذهاب دينه ، وذهاب نفسه وشغل باله وترادف همومه ، فلا يشارك في محذور ألبته وإن أداه ذلك إلى التلف ، فلاّن يتلف مظلوماً مأجوراً محتسباً محموداً أفضل من أن يبقى ظالماً مسيئاً آثماً مذموماً ، ولعل تلفه سريع وإن تأخر مدة ، فلا بدّ من التلف ، وليعلم أن السلطان إذا رأى منه إشفاقاً على دينه ونصيحة له فيما لا يؤذيه في معاده ، فإنه تزيد ثقته به ، ويجلّ في عينه ؛ وإذا رآه شرهاً مؤثراً عاجلته على آخرته ، ساء ظنه به ، ولم يأمنه على نفسه إذا رأى الحظ له في هلاكه .

(١) زيادة يقتضيه السياق .

وانقد نكره للفاضل أن يصحب السلطان بعلم الطب ، فإن الغالب على الملوك الجهل والسبعية (١) وقلة الصبر على ما قطع بهم عن لذاتهم . وتدير الأوصياء ومعاناة المرضى لا يحتمل هذا ، فهم دأباً يكلفون الطبيب إحياء الموتى ويستقصرونه (٢) دون هذه المنزلة ، فإن اتبع أهواءهم غشَّهم ، وإن نصحهم عصوه واستثقلوه .

وأما صحتهم بالنجوم فلا يدخل في ذلك ذو مسكة عقل البتة ، لأنه يتعاطى ما ليس في قوته الوفاء به ، فهو دهره في كذب متصل ومواعيد مختلقة وخدائع متصلة ، وفضائح متواترة ، وخزايا متتابعة . وكدُّ من اتصل بسلطان ، إصلاح أخلاقهم وحملهم على البر وصرفهم عن المائثم جهده وطاقته . ودعائم العلم مشهورة مستحكمة يؤثر بها العلم على سائر أعراض الدنيا من اللذات والمال والصوت (٣) ، ثم قصَّد إلى عين العلم ، ليخرج به ، عن جملة أشباه البهائم فقط ، لا ليجعله مكتسبه ولا ليدح به ، وذكاء وفهم وبحث وذكر وصبر على كل ذلك ، والتعب فيه وإنفاق المال عليه والاستكثار من الكتب ، فإن يخلو كتاب من فائدة وزيادة علم يجدها فيه إذا احتاج إليها ، ولا سبيل إلى حفظ المرء لجميع علمه الذي يختص به . فإذا لا سبيل إلى ذلك فالكتب نعم الخازنة له إذا طلب ، ولو لا الكتب لصاعت العلوم ولم توجد . وهذا خطأ من ذم الإكثار منها ، ولو أخذ برأيه لتلفت العلوم ولجاذبهم الجهال فيها وادَّعوا ما شاءوا . فلو لا شهادة الكتب لاستوت دعوى العالم والجاهل . وسقوط الأنفة في التكرار على العلماء ، وتقييد ما [يسمع] وجمعه ، وملازمة المحبرة والكتب يده وكُمه ، وسكنى حاضرة فيها العلم ، ولقاء المتنازعين وحضور المتناظرين ، فهذا تلوح الحقائق ، فليس من تكلم عن نفسه وما يعتقد

(١) في الأصل : والسبعية

(٢) في الأصل : ويستقصرونهم

(٣) الصوت والصفات والصيت : الذكر الحسن .

كمن تكلم عن غيره ، ليست الشكلى كالناثحة المستأجرة ، ومن لم يسمع إلا من عالم واحد أو شك أن لا يحصل على طائل ، وكان كمن يشرب من بئر واحدة ولعله اختار المالح المسكدر ، وقد ترك العذب . ومع اعتراك الأقران ومعارضتهم يلوح الباطل من الحق ، ولا بد ، فمن طلبه كما ذكرنا ، أو شك أن ينجح مطلبه وأن لا يخفق سعيه وأن يحصل في المدة اليسيرة على الفائدة العظيمة . ومن تعدى هذه الطريق كثر تعب ، وقلت منفعة . ومن اقتصر على علم واحد لم يطالع غيره ، أو شك أن يكون ضحكة وكان ما خفي عليه من علمه الذي اقتصر عليه ، أكثر مما أدرك منه لتعلق العلوم بعضها ببعض ، كما ذكرنا ، وأنها درج بعضها إلى بعض ، كما وصفنا ، ومن طالب الاحتواء على كل علم أو شك أن ينقطع وينحسر ، ولا يحصل على شيء ، وكان كالحاضر إلى غير غاية ، إذ (١) العمر يقصر عن ذلك وليأخذ من كل علم بنصيب ، ومقدار ذلك معرفته بأعراض ذلك العلم فقط ، ثم يأخذ مما به ضرورة إلى ما لا بد له منه كما وصفنا ، ثم يعتمد العلم الذي يسبق (٢) فيه بطبعه وبقلبه [و] بحيلته ، فيستكثر منه ما أمكنه ، وربما كان ذلك منه في علمين أو ثلاثة ، أو أكثر على قدر زكاء فهمه ، وقوة طبعه ، وحضور خاطره ، وإكبابه على الطلب ، وكل ذلك بتيسير الله تعالى : فلو بارادة المرء كان ، لكان منى كل أحد أن يكون أفضل الناس . والفهم والعناية مقسومان كقسمة المال والحال :

• والخط مقسومٌ فأجمل في الطلب •

ومن طلب [العلم] (٣) ليفخر به أو ليدح به أو ليكتسب به مالا أو جاهاً ، فبعيد عن الفلاح لأنه ليس له غرض في التحقيق فيه ، وإنما غرضه شيء آخر غير العلم . ونفس الإنسان وعينه طامحان إلى غرضه فقط فلا يبالي كيف كان طلبه إذا حصل على مراده الذي إياه قصد .

(١) في الأصل : أذى

(٢) في الأصل : ينشق

(٣) زيادة لازمة .

فالعلوم تنقسم أقساماً سبعة عند كل أمة وفي كل زمان وفي كل مكان وهي :
علم شريعة كل أمة ، فلا بدّ لسكل أمة من معتقدها ، إما إثبات وإما إبطال
وعلم أخبارها وعلم لغتها ، فالأمة تتميز في هذه العلوم الثلاثة ، والعلوم الأربعة
الباقية تتفق فيها الأمم كلها ، وهي [علم النجوم] وعلم العدد والطب وهو معاناة
الاجسام وعلم الفلسفة وهي معرفة الأشياء على ما هي عليه من حدودها من
أعلى الأجناس إلى الأشخاص ، ومعرفة إلهية .

وقد بينا أن كل شريعة سوى الإسلام فباطل ، فالواجب الاقتصار
على شريعة الحق ، وعلى كل ما أعان على التجر في عليها .

وعلم شريعة الإسلام ينقسم أقساماً أربعة : علم القرآن ، وعلم الحديث ،
وعلم الفقه ، وعلم الكلام .

فعلم القرآن : ينقسم إلى معرفة قراءته ومعانيه . وعلم الحديث : ينقسم
إلى معرفة متونه ومعرفة رواته . وعلم الفقه : ينقسم إلى أحكام القرآن ،
وأحكام الحديث ، وما أجمع المسلمون عليه وما اختلفوا فيه ، ومعرفة
وجوه الدلالة وما صحّ منها وما لا يصح . وعلم الكلام : ينقسم إلى معرفة
مقالاتهم ومعرفة حججهم وما يصح منها بالبرهان وما لا يصح .

وعلم النحو : ينقسم إلى مسموعه القديم وعلله المحدثه .

وعلم اللغة : مسموع كله فقط .

وعلم الأخبار ينقسم على مراتب : إما على الممالك (١) أو على السنين
وإما على البلاد وإما على الطبقات أو منشورا . فأصح التواريخ عندنا تاريخ
الملة الإسلامية ومبداؤها وفتوحها وأخبار خلفائها وملوكها والمنزّين عليهم
وعلمائهم وسائر ما انتظم بذلك . وأما تاريخ بني إسرائيل فأكثره صحيح وفي
بعضه دخل ، وإنما يصح منه أخبارهم منذ صاروا بالشام إلى أن خرجوا

عنها الخرجة الآخرة ، لا من قبل ذلك . وأخبار الروم إنما تصح من عهد الاسكندر لا ما قبل ذلك . وأخبار الترك والخزر وسائر أمم الشمال وأمم السودان فلا علوم لهذه الأمم ولا تواليف ولا تواريخ . ولم تبلغنا أخبار الهند والصين كما نريد ، إلا أنهم أمّتا علم وضبط وتواليف وجمع . وأما الأمم الدائرة من القبط واليمنيين والسريانيين والاشمانين وعمون وموآب وسائر الأمم فقد بادت أخبارهم جملة ، فلم يبق منها إلا تكاذيب وخرافات . وأما الفرس فلا يصح شيء من أخبارهم إلا ما كان من عهد دارا بن دارا فقط . وأصح أخبارهم ما كان من عهد أزدشير بن بابك فقط . فالطالب للأخبار ينبغي له ألا يشتغل إلا بما أعلنه بصحته — ولا ينبغي له قطع وقته بما لا يجدى عليه نفعاً — لا بما أخبرناه ببطلانه فقد كفيناه التعب في ذلك ، وإن أحب التعب وقف على ما وقفنا عليه من ذلك .

وعلم النسب جزء من علم الخبر .

وعلم النجوم : ينقسم إلى معرفة علم الهيئة والتعديل ببرهانه ثم الذي يذكرونه من القضاء .

وعلم العدد : ينقسم إلى ضبط قوانينه ثم برهانه ثم العمل بذلك في المساحات وغير ذلك .

وعلم المنطق : ينقسم إلى عقلي وحسي أما العقلي فالأهلي وطبيعي ، وأما الحسي فطبيعي فقط .

وعلم الطب : ينقسم قسمين : طب النفس وهو من نتيجة علم المنطق بإصلاح الأخلاق ومداراتها (١) وصرفها عن الإفراط والتقصير وإقامتها على الاعتدال ؛ وطب الأجسام : وهو ينقسم إلى معرفة الطبائع الجسمية ومعرفة تركيب الأعضاء ومعرفة العلل وأسبابها وما تعارض به من الأدوية وتميز القوى من الأدوية والأغذية (٢) ، وينقسم أيضاً قسمين : عمل باليد كالجبر

(٢) في الأصل : للأغذية

(١) في الأصل : ومداراتها

والبط والكي والقطع، وعمل في صرف قوى العلل بقوى الأدوية، وينقسم أيضاً قسمين : حفظ الصحة لئلا يحدث المرض ثم معاناة المرض .

وعلم الشعر : ينقسم إلى روايته ومعانيه ومحاسنه ومعانيه وأقسامه ووزنه ونظمه .

وهما هنا علمان إنما يكونان (١) نتيجة العلوم التي ذكرنا إذا اجتمعت أو من نتيجة اجتماع علمين منهما فصاعداً ، وهما علم البلاغة ، وعلم العبارة : فأما علم البلاغة فإن صرفه صاحبه إلى الله عز وجل وإلى تبيين الحقائق وتعليم الجهال فهي فضيلة ، وأما إن صرفه في ضد ذلك خسرت صفته ، إذ أتعب نفسه وأفنى عمره فيما هو وبال عليه ، ونعوذ بالله من البلاء .

وأما علم العبارة (٢) فهو طبع في المعبر مع عون العلم عليه ولا يقطع بصحته إلا بعد ظهور ذلك عليه لا قبله .

فهذه الألفانين هي التي يطلق عليها في قديم الدهر وحديثه اسم العلم والعلوم .

وعند التحقيق وصحة النظر فكل ما علم فهو علم ؛ فيدخل في ذلك علم التجارة والخيطة والحياكة وتدبير السفن وفلاحة الأرض وتدبير الشجر ومعاناتها ، وغرسها ، والبناء وغير ذلك . إلا أن هذه إنما هي للدنيا خاصة فيما بالناس إليه الحاجة في معاشهم . والعلوم التي قدمنا ، العرض [منها] التوصل إلى الخلاص في المعاد فقط ، فلذلك استحققت التقديم والتفضيل وبالله تعالى التوفيق .

ونحن نوصي طالب العلم بأن لا يذم ما جهل منها فهو دليل على نقصه وقوله بغير معرفة ، وأن لا يعجب بما علم فتطمس فضيلته ، ويستحق المقت.

(١) في الأصل : يكونا

(٢) يعني علم تعبير الرؤيا

من الواهب له ما وهب ، وأن لا يحسد من فوقه حسداً يؤديه إلى تنقيصه ، فهذه رذيلتان . وأما إن حسده ولم ينتقصه ، وكان ذلك رغبة في الوصول إلى ما وصل إليه محسودهُ فحسن ، وهو رغبة في الخير . وأن لا يحقر من دونه فقد كان في مثل حاله قبل أن يعلم ما علم . وأن لا يكتم علمه فيحصل هو ومن لا علم له في منزلة واحدة ، إذ كلاهما غير مستعمل للعلم ولا مظهر له . وأن لا يتكلم في علم قبل أن يحكمه فيخزي وأن لا يطلب بعلمه عرض الدنيا فيبذل الأفضل بالأدنى . وأن يستعمل تقوى الله تعالى في سره وجهره ، فهو زين العالم ، وبالله التوفيق .

فصل : والعلوم التي ذكرنا يتعلق بعضها ببعض ولا يستغنى منها علم عن غيره ، فأول ذلك أنا قد أبتنا أن غرضنا من الكون في الدنيا والمطلوب بتعلم العلوم إنما هو تعلم علم ما أراد الله تعالى منا ، وما به أخبرنا (١) ، وما به يكون المخلص من هول مكاننا الكدر المظلم المشوب بالآفات المماوء من أنواع المتالف والمهالك ، والمحفوف بأصناف البلايا والمعاطب ، وهو المعرفة بالشرعية والاعلان بها والعمل بموجبها ، فإذا الأمر كذلك ، فلا سبيل إلى صحة المعرفة بها واستحقاق حقيقتها إلا بمعرفة أحكام الله عز وجل وعهوده إلينا في كتابه المنزل ، وبمعرفة ما وصانا به محمد عليه السلام وبلغه إلينا ، وما أجمع علماء الديانة عليه ، وما اختلفوا فيه ، ولا يوصل إلى هذا إلا بمعرفة الناقلين لتلك الوصايا وأزمانهم وأسمائهم وأنسابهم للفرق بين ما اتفقت فيه الأسماء ، وبمعرفة المقبولين من غيرهم ومعرفة من لقوا فخذثوا عنه ممن لم يلقوه فبالغهم عنه ، وبمعرفة القراءات المشهورة ليوقف بذلك على ما تتفق فيه المعاني مما تختلف فيحدث باختلافها حكم ما ، وكل هذا لا يتم إلا بمعرفة مستعمل اللغة ومواقع الإعراب الذي تختلف المعاني باختلاف أمثلته .

وأشكاله ، ولا بدَّ في اللغة والاعراب من التعلق بطرف من علم الشعر ، ولا بد من المعرفة بالنسب بما يدرى المرء من تجوز الإمامة بمن لا تجوز فيهم ، ومن هم الأنصار الذين [أمرنا] (١) بالإحسان إلى محسنهم والتجاوز عن مسيئهم ، ومن هم أولو القربى الذين حرمت عليهم الصدقة ، ولا بد أن يعرف من الحساب ما يعرف به القبلة والزوال إلى أوقات الصلوات ، ولا يوقف على حقيقة ذلك إلا بمعرفة الهيئة ، ولا يعرف حقيقة البرهان في ذلك إلا من وقف على حدود الكلام ، ولا بد أن يعرف من الحساب أيضاً كيف قسمة الموارد والغنائم ، فإن تحقيق ذلك فرض لا بد منه .

ولا بد في الشريعة من معرفة العيوب التي تجب (التكليف كعاهة الجنون المتماكة ، وقوام الآفات والأدواء ، فلا بدَّ من) (٢) معرفة العلل ومداواتها وهو علم الطب . والدعاء إلى الله عز وجل واجب ، ولا سبيل إليه إلا بالخطِّ والبلاغة ، ومعرفة ما تستجلب به القلوب من حسن اللفظ وبيان المعنى ، ولا يكون هذا إلا بالمعرفة الشرعية وباللغة وبالاعراب وبالفصاحة وحكم المنظوم والمنثور ، والرؤيا حق وهي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، فلا بد من معرفة عباراتها ، ولا تكون عباراتها إلا بالتسكن في العلوم المذكورة . وأما القضاء بالنجوم فلا يعرف بطلانه إلا من أشرف عليه ، ولا يعرف الخطأ والصواب إلا بمعرفتهما معاً ، فهذا وجه تعلق العلوم بعضها ببعض ، واقتدار بعضها إلى بعض .

وإن لم تمكن (٣) المرء الإحاطة بجميعها فليضرب في جميعها بسهم ما وإن قلَّ ، — كما قدَّمنا — وليسكن الناس فيها في تعاونهم على إقامة الواجب من ذلك عليهم كالمجتمعين لإقامة منزل ، فإنه لا بدَّ من بئس وأجراء ينقلون

(١) زيادة لازمة

(٢) ما بين معقنين مكتوب في هامش النسخة وقد طمس معظمه

(٣) في الأصل : يكن

الحجر وينقلون الطين ، ومن صناع القرمذ وقطاعى الخشب وصناعى الأبواب والمسامير حتى يتم البناء ، وكذلك سائر ما بالناس الحاجة إليه من الحرث فإنه لا يتم إلا بالتعاون على [القيام] بآلاته والعمل بها . وكذلك التعاون على ما به تكون النجاة والترقى إلى عالم الخلود ، ورضى الخالق أوجب وأكرم ، وبالله تعالى تنأيد .

فصل : ومن السمع القبيح بقاء الإنسان فارغاً فى مدة إقامته فى هذه الدار ، مفنيا تلك المدة فيما غيره أولى به وأحسن منه ، فى حماقة وبطالة أو معصية وظلم . وقد سمعت شيخنا ابن الحسن (١) يقول لى ولغيرى «إن من العجب من يبقى فى هذا العالم [دون] معاونة لنوعه على مصلحة . أما يرى الحراث يحرث له والطحان يطحن له والنساج ينسج له والخياط يخط له والجزار يجر له والبناء يبنى له وسائر الناس كل متولٍّ شغلا ، له فيه مصلحة وبه إليه ضرورة ؟ أفما يستحى أن يكون عيالا على كل العالم لا يعين هو أيضاً بشئ من المصلحة ؟ » (٢) ولقد صدق ، ولعمري إن فى كلامه من الحكم لما يستشير الهمم الساكنة إلى ما هيئت له . وأى كلام فى نوع هذا أحسن من كلامه فى تعاون (٣) الناس . وقد نبه الله تعالى عباده بقوله «وتعاونوا على البر والتقوى» (٤) فكل ما لمخلوق فيه مصلحة فى دينه أو ما لاغنى للمرء عنه فى دنياه فهو برٌّ وتقوى ، إذا استعان به على ما أمر الله وحض عليه . وأفضل ما استعمله المرء فى دنياه بعد أداء ما يلزمه الله تعالى فى نفسه من تعلم اعتقاده من قول وعمل ، أن يعلم الناس دينهم الذى

(١) فى الأصل : أبو الحسن ، وشيخه هذا هو أبو عبد الله محمد بن الحسن المعروف بابن الكثانى ، وقد مرت ترجمته فى رسالة البيان عن حقيقة الإيمان ؛ انظر ص : ٢٠ : تعليق : ٢ من هذا الكتاب .

(٢) نص هذه العبارة كما أوردها الحميدى فى الجذوة ، مروياً عن ابن حزم : إن من العجب من يبقى فى العالم دون تعاون على مصلحة ؛ أما يرى الحراث يحرث له والبناء يبنى له والغزاز يجر له ؛ وسائر الناس كل يتولى شغلا له فيه مصلحة به إليه ضرورة أما يستحى أن يبق عيالا على كل من فى العالم ، ألا يعين هو أيضاً بشئ من المصلحة ؟

(٣) فى الأصل : كلام فى نوع (٤) القرآن الكريم ٥ : ٣

له خلقوا ، فيقودهم إلى رضى الله عزَّ وجل ويخرجهم بلطف خالقه تعالى من الظلمة العميَّة إلى النور الخالص ، ومن المضيق المهلك إلى السعة الرحبة ، ثم الحكم بالحق ، والمنع من الظلم ، والذب عن الحوزة بجهد أهل الحرب والمحاربة (١) وأهل البغي وإقامة [الناس] (٢) على ما خلقوا له من إقامة الدين الذى افترضه الله تعالى عليهم ، ثم العون فى إحراز ما ذكرنا بكتابة واحتراز وقسمة وإقامة حدٍّ وقبض مال واجب قبضه وغير ذلك ، ثم هكذا أبدأ كل ما فيه عون على ذلك حتى يبلغ الأمر إلى الصناعات التى لا غنى بالناس عنها .

واعلم أن كل أحد من الناس ممن له تمييز صحيح فإنه لا يخلو من أن يكون موقناً بصحة المعاد بعد الموت وبالجزاء ، أو يكون شاكاً فى ذلك ، أو يكون معتقداً أن لا معاد ولا جزاء وإنما هى هذه الحياة الدنيا فقط . فإن كان ممن يوقن بالمعاد والجزاء فاللازم له إجهاد نفسه واستفراغ طوقه فيما يتخاص به من الهلكة فى معاده ، ويكون حينئذ إذا اشتغل بغير ذلك وضع ما فيه نجاته وخلاصه فى الأبد ، فاسد التمييز سخييف العقل مذموماً مهلكاً لنفسه ، بل أسوأ حالة من المجانين والحيوان الدارج (٣) غير الناطق . ولا مخلص فى المعاد إلا بالبحث عن شريعة الحق و [إشار] (٤) تعلّمها على كل علم . و [إحراز] نجاته فى دنياه [الآجلة] . فالواجب عليه إجهاد نفسه وترك كل حال شاغلة له عن البحث عن صحّة الأمر ، عن أن المعاد حق أو شىء غيره حق . وإذا اشتغل بذلك عن شىء غيره فهو بلا شك فاسد التمييز ، خاسر

(١) أهل المحاربة هم المفسدون فى الأرض الذين حكم القرآن بأن يقتلوا أو يصلبوا أو ينفوا من الأرض .

(٢) زيادة لازمة

(٣) فى الأصل : الدراج

(٤) ما بين معقنين فى هذه العبارة التى كتبت بها مش نسخة ، مضموس .

الصفقة مغرر بنفسه عن الأمر الذى فيه عظيم البلاء عليه أو كثير السعادة له ، ولا يصل إلى علم ذلك إلا بالبحث عن الشرائع وطلب البرهان فيها حتى يقع على حقيقة الأمر فى ذلك .

وإن كان غير معتقد لصحة المعاد ، ولم يكن عنده شيء غير هذه الدار ، فلا يخلو من أحد وجهين لا ثالث لهما : إما أن لا يكون يرى إمرأج النفس (١) فى الشهوات ، وإهمالها فى اللذات وإطلاقها على اتباع الهوى — فإن كان هذا هكذا فليس أولى بذلك فيه (٢) من غيره ، وهذا رأى يقتضى له أن لا يتظلم ممن تلف بقتله وأخذ ماله أو هتك ستره وتسخيره (٣) فيما يلذ به غيره وإشقاؤه فيما ينعم به سواه ، ولا أخسر صفقة ممن يرى أن لا دار له سوى هذه ثم لا يكون حظه منها إلا الشقاء والتعب والهلاك — أو يكون ممن يقول بالسياسة التى جماعها الأمن له من غيره ، ولغيره منه ، على دمه وحرمة وبشرته وماله وشمول العاقبة (٤) وصلاح الحال والكفاية . وهذا لا يصح البتة ولا يوجد إلا باستعمال الشريعة الداعية بالوعيد بالآخرة والعقاب فى الدنيا لأجل معصيته ، فإذا لا سبيل إلى ذلك إلا بالشريعة فالاشتغال بها هو الغرض ، والاشتغال عنها رأى فاسد .

وأيضاً فإن المشتغل بعلم الشريعة محصل الأمن من السلطان والخاصة والعامة ، متصد ، لعلو الحال فى الدنيا والصلاح فيها ؛ ومن خالفها محصل (٥) للمخالفة للسلطان والخاصة والعامة ، متعرض للبلاء فى دمه وحاله وماله ، فلا أضعف حالاً ولا أسوأ تمييزاً ولا أضعف عيشاً ممن (٦) لا يقر بالمعاد ولا يعرف إلا هذه الدار ، ثم هو متعرض للبلاء مدة حياته . وإنما يتحمل

(١) فى الأصل : إمرأج . وإمرأج النفس إطلاقها على سجيبتها ، وتركها ترعى حيث شاءت

(٢) فى الأصل : فى غيره

(٣) فى الأصل : وتسخير

(٤) فى الأصل : العاقبة

(٥) فى الأصل : خصل

(٦) فى الأصل : لمن

الأذى والمخاوف ويتعرض للهلكة والبلاء (١) من يرى أنه إذا خرج من هذه الدار صار إلى الحياة الأبدية والنعيم السرمدي والسرور الخالد (٢) وإلا فهو أحمق مجنون . وإنما قلنا هذا البرهان العقلي الحسي الضروري : أن إيثار علم الشريعة على كل علم واجب على كل من لا يقر بالمعاد وعلى من يشك بالمعاد ، كوجوبه على من يقر بالمعاد .

وإن قوماً قوى جهلهم ، وضعفت عقولهم ، وفسدت طبائعهم ، يظنون أنهم من أهل العلم وليسوا من أهله ، ولا شيء أعظم آفة على العلوم وأهلها الذين هم أهلها بالحقيقة من هذه الطبقة المذكورة ، لأنهم تناولوا طرفاً من بعض العلوم يسيراً ، وكان الذي فاتهم من ذلك أكثر مما أدركوا منه ، ولم يكن طلبهم لما طلبوا من العلم لله تعالى ، ولا ليخرجوا من ظلمة الجهل ، لكن ليزدروا بالناس زهواً وعجباً ، وليناروا لجاجا وشغياً ، وليفخروا أنهم من أهله تطاولوا ونفخا ، وهذه طريق بجانب الفلاح ، لأنهم لم يحصلوا على الحقيقة وضيعوا سائر لوازمهم فعظمت خيبتهم ولم يكن وكدهم أيضاً ، مع الازدراء بغيرهم ، إلا الازدراء بسائر العلوم وتنقيصها ، لظنهم الفاسد أنه لا علم إلا الذي طلبوا فقط . وكثيراً ما يعرض هذا للبتيدي في علم من العلوم وفي عنفوان الصبا وشدة الحداثة . إلا أن هؤلاء لا يرجي لهم البرء من هذا الداء ، مع طول النظر والزيادة في السن .

فَقَصْدُنَا أَنْ نُرِيَ كُلَّ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ أَحَدَ وَجْهَيْنِ : إما نقصُ علمه الذي يتبجح به عن غيره من العلوم ؛ أو فاقة (٣) علمه ذلك إلى غيره من العلوم ، وأنه إن لم يُضَفْ غَيْرُهُ من العلوم إلى علمه كان ناقصاً لا ينتفع به كبير منفعة بل لعله يستضرُّ به (٤) جداً :

(١) في الأصل : وبلاء

(٢) في الأصل : الخالدي

(٣) في الأصل : بانه

(٤) في الأصل : يستصره

فمن ذلك أنا وجدنا قوماً من أهل طلب العلم ، أعنى الديانة ، يزرون بسائر العلوم ، وهذا نقص عظيم شديد لا يتتفع به صاحبه في قسمة الفرائض والموارث وأن يعرف من المطالع ما يعرف به أوقات الصلوات ودخول شهر رمضان — شهر الصوم — ووقت الحج ، وإن لم يعرف مضار الماء كل والمشرب أو شك أن يتناول ما يؤذيه ويضر به ، وذلك محرم وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتداوى فاتباع أمره فرض . فتعلم الطب فرض على الكفاية ، ومضيعة مضيع فرض . والقرآن عربي فلا سبيل إلى أن يعلمه من لم يعلم العربية ، ولا سيما إن كان المذكور لم يتناول من الشريعة إلا علماً واحداً من علومها ، فهذا إنسان ناقص مسيء إلى نفسه مهلك لها ، لأنه إن تناول علم القرآن ولم يتناول علم السنن كانت يده من الدين صفراً ، وكان علمه عليه لا له . ومن أحسن علم السنن ولم يحسن علم القرآن لم يعلم ما يجوز به القراءة مما لا يجوز ، وما أنزل الله تعالى مما لم ينزل . وإن تعلق بالفتيا دون علم بالقرآن والسنن فهو والحمار سواء ولا يحل له أن يفتي لأنه لا يفتي أحق أم باطل ، وإنما يفتي مقلداً لمن لا يدري هل أصاب أو أخطأ ولا يعرف ما هو عليه أهو من الدين أم من غير الدين إلا ظناً . وإن تعلق بالكلام دون أن يعرف السنن كان هالكا ، لمغيبه عن حقيقة الشريعة التي كلفه الله تعالى إياها ، وألزمه أدائها (١) .

ووجدنا قوماً طلبوا علوم العرب فازدروا على سائر العلوم كالنحو واللغة والشعر والعروض ، فكان هؤلاء بمنزلة من ليس في يده من الطعام إلا المالح وليس معه من السلاح إلا المصقلة التي بها يحلى السلاح ، وكان غائباً عن علم الشريعة التي لا معنى لخروجنا إلى هذا العالم غيرها ، ولا خلاص لنا ولا سلامة عند خروجنا من الدنيا إلا بها ، وكان بمعزل عن علم الحقائق . ووجدنا قوماً طلبوا علوم الأوائل أو علماً منها ، واتخذوا سائر العلوم

سخرياً مثل من تعلق بالطب فلم ير علماً غيره ؛ فيقال له إنك لا تشك أنه قد يكون فيمن لا يتعافى ولا يحسن الطب أحسن أجساماً وأطول أعماراً من المتعنتين ، كأهل البادية (١) والعامّة والبلاد التي لا يحسن أهلها الطب ، هذا أمر لا ينكره منكر ، فإن هذا عيان مشاهد ، فما فائدة الطب إذن ؟ ولا غرض لأهله إلا تصحيح الأجسام ودفع الأمراض المخوف منها الموت (٢) ولم يحصلوا من هذا الغرض إلا على أقلّ مما حصل عليه غيرهم . ومثل قوم من أهل الهندسة وعلم الهيئة لا يرون ما عدا ذلك من العلوم إلا هذراً ولغواً فيقال لهم : ما الفرق بين معرفة قطع كوكب كذا وكوكب كذا وصفة برج كذا وبرج كذا من الأرض وبين صفة مدينة كذا ، وحركات ملك فلانه ، أو حركات فلان وفلان ؟ وهذا لا سبيل لهم إلى التخلص منه لأن كل ذلك خير عن بعض ما في العالم فقط لا يفيد فائدة إلا المعرفة بما عرف من كل ذلك أنه على هيئته والاستدلال بكل ذلك على الصانع المدبر سواء فإن صار إلى علم القضاء لم يحصل إلا على دعاوى كاذبه وخرافات لا تصح ، بل البرهان قائم على بطلان هذه الدعاوى ، بما قد أحكمناه في غير هذا الموضع ، ومن ذلك أنهم لا يدعون على ذلك دليلاً أصلاً إلا تجارب يذكرونها وهذا باطل لأن تلك التجارب لا يمكن إثباتها اليقينة لأنها لا تكون إلا في مدد طوال ، ولا سبيل إلى بقاء دولة ولا استمرار حالة على سلامة ، مقدار تلك المدة أبداً ، ونقول لهم : إن أصبح ما بأيديكم ، باقراركم ، المواليد والقرانات (٣) ونحن نجد الكباش يولد ويعيش وينبج وهو يباشر أكله (٤) في دقيقة واحدة

(١) كرر ابن حزم هذه الفكرة عن أهل البادية وصحتها وطول أعمارهم في رسالة « التوفيق على شارح النجاة » — وانظر كيف كانت هذه الفكرة مخنمة أيضاً عند ابن خلدون فقد وضحا كما وضع استقلال أهل البوادي بطبهم في المقدمة : ٣٦٤ وما بعدها .

(٢) في الأصل : للموت .

(٣) إذا ذكر القرآن إطلاقاً عنى به إجتماع زحل والمشتري خاصة ، فإذا قصد قران

كوكبين آخرين قيد بذلكهما .

(٤) في الأصل : وهو ناشر كاه

ثم يعمل من جلده أديم ، فبعضه رَقٌّ يُنْسَخُ فيه (١) وتطول مدة بقائه ، وبعضه نطاق (٢) تقطع وتعفن ، ولم يتقدم في الوجود والنشأة بعض ذلك الأديم بعضاً . وأيضاً فإنهم خابوا من علم الشريعة الذي هو الحقيقة . وطائفة حصلت على علم حدود المنطق ، فنقول لهم : إنكم لم تحصلوا إلا على العلوم التي لا منفعة لها ولا فائدة ، إلا تصريحها في سائر العلوم فأنتم (٣) كمن جمع آلة البناء ولم يصرفها في البنيان فهي معطلة لديه لا معنى لها ، فإن قالوا إن لهذه العلوم معاش ومكاسب ، قلنا هي أضعف المكاسب وأقل المعاش سعة ، فإذا ليس غرضكم إلا هذا ، فالتجارة والزراعة وصحبة السلطان أجدي بالمكسب وأوسع بالوفر (٤) حظاً مما أنتم عليه .

ولم نورد شيئاً من هذا تنقيصاً لشيء من هذه العلوم — ومعاذ الله من هذا — ولو فعلنا ذلك لدخلنا في جملة من نذم ، ولركبنا الملة (٥) الخسيسة لكن تنقيصاً لمن قصد بعلمه ذم سائر العلوم وتنقصها . وأما من طلب علماً ما ، لم يفتح الله تعالى له في غيره ، وهو مع ذلك معترف بفضل سائر العلوم ، ونقص ما حصل عليه ونقص حاله إذ أقصر عنها ، فهو بحسن محمود فاضل قد تعوض الإنصاف والعدل والصدق بما فاته منها فنعم العوض ، ولا ملامة عليه فيما لم يفتح الله تعالى له فيه ، وأما من أخذ من كل علم ما هو محتاج إليه واستعمل ما علم كما يجب فلا أحد أفضل منه ، لأنه قد حصل على عز النفس وغناها في العاجل وعلى الفوز في الآجل ، ونجا بما حصل فيه أهل الجهل ، ومن لم يستعمل ما علم من أضرار هذه الأحوال .

(١) في الأصل : ورق ينسخ فيه

(٢) في الأصل : نطاق

(٣) في الأصل : أنت

(٤) في الأصل : بالوفر

(٥) في الأصل : الملة

وجملة الأمر أنه لو لا طلب النجاة فى الآخرة لما كان لطلب شىء من العلوم معنى لأنه تعب ، وقاطع عن لذات الدنيا المتعجلة من المشارب والمآكل والملاهى والسفاه والاعتلاء واتباع الهوى ؛ فلو لم يكن آخرة يؤدى إليها طلب العلوم ، لما كان أحد أسوأ حالا من المشتغل بالعلم ؛ فإذا الأمر كذلك فالعلوم كلها (١) متعلق بعضها ببعض كما بينا قبل ، محتاج بعضها إلى بعض ، ولا غرض لها إلا معرفة ما أدى إلى الفوز فى الآخرة فقط ، وهو علم الشريعة ، وبالله تعالى التوفيق ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

تمت الرسالة الموسومة بمراتب العلوم
والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

(١) فى الأصل : فالأمر كله

رسالة في الفناء الملهي أرباح هو أم محظور

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

رسالة في الغناء الملهي أمباح هو أم محظور

قال أبو محمد : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين :
أما بعد ، أيديكم الله وإيائى بتوفيقه ، وأعاننا بلطفه على أداء حقوقه ، فإنك رغبت أن أقدم لك فى الغناء الملهي ، أمباح هو أم من المحظور ، فقد وردت أحاديث بالمنع منه وأحاديث بإباحته . وأنا أذكر الأحاديث المانعة وأنبه على عللها ، وأذكر الأحاديث المبيحة له وأنبه على صحتها إن شاء الله والله الموفق للصواب .

فالأحاديث المانعة : ما روى سعيد بن أبى رزين عن أخيه عن ليث بن أبى سليم (١) عن عبد الرحمن بن سابط (٢) عن عائشة أم المؤمنين عن النبي عليه السلام أنه قال : إن الله حرم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها (٣) والاستماع عليها .

وروى لاحق بن حسين بن عمر أن ابن أبى الورد المقدسي (٤) قال : ثنا أبو المُرَجَّى ضرار بن على بن عمير القاضى الجيلاني (٥) ، ثنا أحمد

(١) راجع ما جاء عنه فى التهذيب ٨ : ٤٦٧

(٢) عبد الرحمن بن سابط أرسل عن النبي وتوفى سنة (١١٨هـ) انظر ترجمته فى التهذيب

رقم ٣٦١ .

(٣) فى الأصل : الاستماع

(٤) ابن أبى الورد اسمه عمران بن عبد الله ، انظر لسان الميزان : ١٧٣٠

(٥) أبو المُرَجَّى ضرار بن على (لسان الميزان : ٩١٣) ، وحكى النبأى عن ابن حزم

أنه قال : لا يدري من هو ، قال النبأى : وهو كما قال .

ابن سعيد عن محمد بن كثير (١) الحصى ثنا فرج [بن] فضالة عن يحيى بن سعيد (٢) عن محمد بن الحنفية عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله إذا عملت أمتي خمس عشرة خصلة حلَّ بها البلاء : إذا كان المال دولاً ، والأمانة مغنماً ، والزكاة مفرماً وأطاع الرجل زوجته ، وعقَّ أمه وجفا أباه ، وارتفعت الأصوات في المساجد ، وكان زعيم القوم أردأهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، ولبست الحرير واتخذت القينات والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها فليستوقعوا عند ذلك ريحاً حمراء ومسخاً وخسفاً .

وروى أبو عبيدة بن فضيل بن عياض (٣) ثنا أبو سعيد مولى بني هاشم هو عبد الرحمن بن عبد الله ابنا عبد الرحمن بن العلاء عن محمد بن المهاجر (٤) عن كيسان مولى معاوية ثنابه معاوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن تسع وأنا أنهاكم عنهن : ألا إن منهن الغناء والنوح والتصاوير والشعر والذهب وجلود السباع والخز والحرير .

وروى سلام بن مسكين عن شيخ شهد ابن مسعود يقول : الغناء ينبت النفاق في القلب (٥) .

وروى عبد الملك بن حبيب (٦) ثنا عبد العزيز الأنديسى عن اسماعيل ابن عياش عن علي بن زيد عن القاسم عن أبي أمامة قال : سمعت رسول الله يقول : لا يحل تعليم المغنيات ولا شراؤهن ولا بيعهن ولا اتخاذهن ، ومنهن حرام . وقد أنزل الله ذلك في كتابه « ومن الناس من يشتري لهو الحديث

(١) انظر ترجمة محمد بن كثير في اللسان : ٥٧٢

(٢) يحيى بن سعيد في اللسان : ٩٠٩

(٣) في الأصل فضل (انظر اللسان ٧٧٢) . وضعه ابن الجوزي وثقه الدارقطني وابن حبان .

(٤) محمد بن المهاجر في اللسان : ١٢٨٧

(٥) هذا الحديث في سنن أبي داود : ٤٧٥٦ وما بعدها

(٦) انظر اللسان : ١٧٤ والتهذيب : ٧٣٦ قال ابن حجر : وقد أخش ابن حزم القول فيه ونسبه إلى الكذب وتلقاه جماعة بأنه لم يسبقه أحد إلى رميته بالكذب (توفي سنة ٥٢٣٨ هـ) .

نحوه

ليضل عن سبيل الله بغير علم « (١) والذي نفسى بيده ما رفع رجل عقيرته بالغناء إلا ارتدفه شيطانان يضربان بأرجلها صدره وظهره حتى يسكت .

وبه إلى عبد الملك بن حبيب عن الأويسى (٢) عن عبد الله بن عمر ابن حفص بن عاصم أن رسول الله قال : إن المغنى أذنه بيد شيطان يرعشه حتى يسكت .

وبه إلى عبد الملك بن حبيب ثنى ابن معين عن موسى بن أعين (٣) عن القاسم عن أبي أمامة أن رسول الله قال : إن الله حرم تعليم المغنيات وشراءهن وبيعهن وأكل أثمانهن .

وذكر البخارى قال : قال هشام بن عمار (٤) ثنا صدقة بن خالد (٥) ثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر (٦) ثنا عطية بن قيس الكلأبى (٧) ثنا عبد الرحمن ابن غنم الأشعرى ثنى أبو عامر أو أبو مالك الأشعرى [أنه] سمع النبي عليه السلام يقول : ليكونن من أمتى قوم يستحلون الخبز والحرير والخمر والمعازف .

وروى ابن سفيان ثنى إبراهيم بن عثمان بن سعيد ثنى أحمد بن الزمر ابن أبي حماد بجمص ويزيد بن عبد الصمد قالأ ثنا عبيد بن هشام الحلبي هو أبو نعيم ، ثنا عبد الله بن المبارك عن مالك عن محمد بن المنكدر عن أنس قال : قال رسول الله من جلس إلى قينة صب في أذنيه الآلئك (٨) يوم القيامة .
وبه إلى ابن شعبان ثنى عمى ثنا أبو عبد الله الدورى ثنا عبيد الله القواريرى

(١) سورة لقمان : ٦

(٢) الأويسى هو عبد العزيز بن عبد الله بن يحيى القرشى المدنى الفقيه روى عن عبد الله ابن عمر العمري (التهذيب : ٦٦٢)

(٣) أنظر ترجمة موسى بن أعين فى التهذيب : ٥٨٥ (توفى ١٧٧ هـ)

(٤) هشام بن عمار فى التهذيب ١١ : ٥١٠

(٥) فى الأصل مجالد وترجمته فى التهذيب ٤ : ٤١٤

(٦) أنظر ترجمة عبد الرحمن فى التهذيب ٦ : ٢٩٧

(٧) راجع التهذيب ٧ : ٢٢٨ ، وتوفى عطية سنة ١٢١ هـ .

(٨) فى الأصل : لإياك ؛ والآلئك : الرصاص

ثنا عمران بن عبيد عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله عز وجل « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله » قال : الغناء .

وروى ابن أبي شيبة أبو بكر ثنا زيد بن الحباب (١) ثنا معاوية ابن صالح (٢) عن حاتم بن حريث (٣) عن مالك ابن أبي مريم (٤) قال : دخل علينا عبد الرحمن بن غنم فقال : أنبأنا أبو مالك الأشعري أنه سمع النبي عليه السلام يقول : يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها ، تضرب على رؤوسهم المعازف والقيينات يخسف الله بهم الأرض .

وحدث فيه : أن الله تعالى نهى عن صوتين ملعونين ، صوت نائحة ، وصوت مغنية .

وكل هذا لا يصح منه شيء ، وهي موضوعة :

أما حديث عائشة رضي الله عنها ففيه سعيد بن أبي رزين عن أخيه (٥) ، وكلاهما لا يدرى أحد من هما . وأما حديث علي رضي الله عنه فجميع من فيه إلى يحيى بن سعيد لا يدرى من هم .

ويحيى بن سعيد لم يرو عن محمد بن الحنفية كلمة ولا أدركه .

وأما حديث ابن مسعود رضي الله عنه ففيه شيخ لم يسم ولا يعرفه أحد .

وأما حديث معاوية فإن فيه كيسان ولا يدرى من هو ، ومحمد بن مهاجر وهو ضعيف ، وفيه النهي عن الشعر وهم يبيحونه .

وأما أحاديث عبد الملك بن حبيب فكلها هالكة .

(١) انظر ترجمة زيد في التهذيب ٣ : ٤٠٢ والظن أنه سمع معاوية بكعة لأن معاوية أندلسي .

(٢) في الأصل جريب ، وترجمته في التهذيب ٢ : ١٢٩ .

(٣) توفي معاوية بن صالح عام (١٨٥) وترجمته في التهذيب ١٠ : ٢٠٩ وفي توثيقه اختلاف .

(٤) مالك بن أبي مريم : نقل في التهذيب (١٠ : ٢١) قول ابن حزم لأنه لا يدرى من هو وقال الذهبي لا يعرف .

(٥) في الأصل : عن أبيه ، انظره في لسان الميزان : ٩٨ حيث نقل كلام ابن حزم فيه .

وأما حديث أبي أمامة ففيه إسماعيل بن عياش (١) وهو ضعيف ،
والقاسم وهو مثله وأما حديث البخاري فلم يورده البخاري مسنداً وإنما
قال فيه : قال هشام بن عمار ثم هو إلى أبي عامر أو إلى أبي مالك ولا يدرى
أبو عامر هذا
وأما أحاديث ابن شعبان فهالكة .

وأما حديث أنس فبيلية لأنه عن مجهولين ، ولم يروه أحد قط عن
مالك من ثقات أصحابه ، والثاني عن مكحول عن عائشة ولم يلقها قط ولا
أدركها وفيه أيضاً من لا يعرف وهو هاشم بن ناصح وعمر بن موسى ، وهو
أيضاً منقطع والثالث عن أبي عبد الله الدوري ولا يدرى من هو .
وأما حديث ابن أبي شذبة ففيه معاوية بن صالح وهو ضعيف ، ومالك
ابن أبي مريم ولا يدرى من هو .

وأما انتهى عن صوتين فلا يدرى من رواه . فسقط كل ما في هذا
الباب جملة .

وأما تفسير قول الله تعالى ومن الناس من يشتري لهو الحديث بأنه (٢)
الغناء فليس عن رسول الله ، ولا ثبت عن أحد من أصحابه ، وإنما هو قول بعض
المفسرين ممن لا يقوم بقوله حجة ، وما كان هكذا فلا يجوز القول به . ثم
لو صح لما كان فيه متعلق لأن الله تعالى يقول : ليضل عن سبيل الله وكل
شيء يفتن ليضل به عن سبيل الله فهو إثم وحرام ، ولو أنه شراء مصحف
أو تعليم قرآن ، وبالله التوفيق
فإذ لم يصح في هذا شيء أصلاً ، فقد قال تعالى : وقد فصل لكم ما حرم

(١) إسماعيل بن عياش (التهذيب : ٥٨٤) تكلم فيه قوم ووثقه آخرون ، وسئل عنه
يحيى بن معين فقال ليس به في أهل الشام بأس ، والعراقيون يكرهون حديثه وقال آخر : وأما
روايته عن أهل الحجاز فإن كتابه ضاع فخلط في حفظه عنهم .
(٢) في الأصل : فإنه

عليكم (١) وقال تعالى « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » (٢) وقال رسول الله من طريق سعد بن وقاص ، وطريقه ثابتة ، « إن من أعظم الناس جرماً فى الاسلام [من سأل عن شيء] لم يحرم فخرم من أجل مسألته » (٣) فصيحاً أن كل شيء حرمه تعالى علينا قد فصله لنا ، وما لم يفصل لنا تحريره فهو حلال .

وخرج مسلم بن الحجاج (٤) قال ثنى هارون بن سعيد الأيلي (٥) ثنا عبد الله بن وهب ثنى عمرو هو [ابن] الحارث أن ابن شهاب حدثه عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين ، أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان فى أيام منى وتضربان ورسول الله مسجى بثوبه فنهراهما أبو بكر فكشف رسول الله عنه فقال : دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد .

وبه (٦) إلى عمرو بن الحارث أن محمد بن عبد الرحمن حدثه عن عروة عن عائشة قالت . دخل رسول الله وعنده جاريتان تغنيان بغناء بعث فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، فدخل أبو بكر فانهرنى وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله ! فأقبل عليه فقال : دعهما .

فإن قيل إن أبا أسامة روى هذا الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه فقال فيه : وليستا بمغنيات ، قيل له قد قالت عائشة تغنيان فاثبتت الغناء لهما بقولها وليستا بمغنيات ، أى ليستا بمحسنتين ، وقد سمع رسول الله قول أبى

(١) سورة الأنعام : ١١٩

(٢) سورة البقرة : ٢٩

(٣) كرهه أحمد فى مسنده (١٥٢٠ ، ١٥٤٥) ورواه البخارى ٩ : ٩٥ ومسلم ٧ : ٩٢ وتختلف روايته بعض الشيء عما ورد هنا ، وأقربها إلى ما رواه ابن حزم « إن أعظم المساءين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فخرم من أجل مسألته » .

(٤) أنظر صحيح مسلم ٣ : ٢١ باب صلاة العيدين ، والبخارى باب سنة العيدين لأهل الإسلام ٢ : ١٧

(٥) فى الأصل : الأبدى

(٦) صحيح مسلم ٣ : ٢٢

بكر : مزمار الشيطان ، فأنكر عليه ولم ينكر على الجاريتين غناءهما . وهذا هو الحجة التي لا يسع أحد خلافها ولا يزال التسليم لها .

وروى أبو داود السجستاني (١) ثنا أحمد بن عبيد العداني ثنا الوليد بن مسلم ثنا سعيد بن عبد العزيز ثنا سليمان بن موسى عن نافع قال : سمع ابن عمر مزماراً فوضع إصبعيه في (٢) أذنيه ونأى عن الطريق ، وقال : يا نافع هل تسمع شيئاً ؟ قال : لا ؛ فرفع إصبعيه وقال : كنت مع رسول الله فسمع مثل هذا ، فصنع (٣) مثل هذا . فلو كان حراماً ما أباح رسول الله لابن عمر سماعه ، ولا أباح ابن عمر لنفسه سماعه . ولا يمكنه عليه السلام ، كره لنفسه كل شيء ليس من التقرب إلى الله ، كما كره إلا كل متكبراً والتنشف بعد الغسل بشوبه بعد ذلك والستر الموشى على سُدَّة (٤) عائشة وعلى باب فاطمة رضوان الله عليهما ، وكما كره أشد السكرامية عليه السلام أن يبيت عنده دينار أو درهم . وإنما بعث عليه السلام منكر المنكر وأمر بالمعروف فلو كان ذلك حراماً ، لما اقتصر عليه السلام أن يسد أذنيه عنه دون أن يأمر بتركه وينهى عنه . فلم يفعل عليه السلام شيئاً من ذلك ، بل أقره وتنزه عنه ، فصح أنه مباح وأن تركه أفضل ، كسائر فضول الدنيا المباحة ، ولا فرق .

وروى مسلم بن الحجاج (٥) قال ثنا زهير بن حرب ثنا جرير بن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : جاء حبش يزفنون في المسجد في يوم عيد ، فدعاني رسول الله فوضعت رأسي على منكبه (٦) فجعلت أنظر إلى

(١) مسند أبي داود : ٧ : ٢٣٨

(٢) في مسند السجستاني : على

(٣) في الأصل : وصنع ، وفي مسند أبي داود تعليقاً على هذا الحديث ، قال أبو علي اللؤلؤي .

سمعت أبا داود يقول : وهو حديث منكر .

(٤) السدة هنا باب الدار والبيت ، أو شيء كالظلة على الباب

(٥) أنظر صحيح مسلم ٣ : ٢٢

(٦) في الأصل : منكبه .

لعبهم حتى كنت أنا التي انصرفت عن النظر به إليهم (١) .

وروى سفيان الثوري وشعبة كلاهما عن أنى إسحاق السبيعي عن عامر ابن سعد البجلي (٢) أن أبا مسعود البدرى وقرظة بن كعب وثابت بن زيد كانوا في العريش وعندهم غناء فقلت : هذا وأنتم أصحاب رسول الله فقالوا إنه رخص لنا في الغناء في العرس ، والبكاء على الميت في غير نوح إلا أن شعبة قال : ثابت بن وداعة مكان ثابت بن زيد ولم يذكر أبا مسعود .

وروى هشام بن زيد ثنا حسان عن محمد بن سيرين قال : إن رجلاً قدم المدينة بجوار فزل على ابن عمر وفيهم جارية تضرب ، فجاء رجل فساومه فلم يهو منهم شيئاً ، قال انطلق إلى رجل هو أمثل لك بيعاً من هذا . فأتى إلى عبد الله بن جعفر فعرضهن عليه فأمر جارية فقال : خذى فأخذت حتى ظن بن عمر أنه قد نظر إلى ذلك ، فقال ابن عمر حسبك سائر اليوم من مزبور الشيطان ، فبايعه ثم جاء الرجل إلى ابن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن إني غبنت بتسعمائة درهم ، فأتى ابن عمر مع الرجل إلى المشتري فقال له إنه غبن في تسعمائة درهم ، فإما أن تعطيها إياه وإما أن ترد عليه بيعه . فقال : بل نعطيها إياه . فهذا عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما قد سمعا الغناء بالعود ، وإن كان ابن عمر كره ما ليس من الجذبة فلم ينه عنه ، وقد سفر في بيع (٣) مغنية كما ترى ، ولو كان حراماً ما استجاز ذلك أصلاً وقد قال قائل : قال الله تعالى « فاذا بعد الحق إلا الضلال » (٤) فقرأ في ذلك يقع الغناء ، قيل له حيث يقع الترويح في البساتين وصباغ ألوان الشباب وكل ما هو من اللهو (٥) .

(١) في الصحيح : أنصرفت عن النظر إليهم .

(٢) انظره في التهذيب : ١٠٧ .

(٣) في الأصل : بيه

(٤) سورة يونس : ٣٢

(٥) في الأصل : اللهو

وقال رسول الله ﷺ : إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فإذا نوى المرء بذلك ترويح نفسه وإجمامها (١) لتقوى على طاعة الله عز وجل فما أتى ضلالاً . وقد قال أبو حنيفة : من سرق من مزاراً أو عوداً قطعت يده ومن كسرهما ضمنهما . فلا يحل تحريم شيء ولا إباحته إلا بنص من الله تعالى أو من رسوله عليه السلام لأنه إخبار عن الله تعالى ، ولا يجوز أن يخبر عنه تعالى إلا بالنص (٢) الذي لا شك فيه وقد ، قال رسول الله ﷺ « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » (٣)

قال أبو بكر عبد الباقي بن بريال الحجارى (٤) رضى الله عنه : ولقد أخبرني بعض كبار أهل زمانه (٥) أنه قال : أخذت النسخة التي فيها الأحاديث الواردة في ذم الغناء والمنع من بيع المغنيات ، وما ذكره فيها أبو محمد رضى الله عنه ونهضت بها إلى الإمام الفقيه أبي عمر بن عبد البر (٦) ووقفته عليها أياماً ورغبته في أن يتأملها ، فأقامت النسخة عنده أياماً ثم نهضت إليه فقلت ما صنعت في النسخة ؟ فقال : وجدت ما أزيد فيها وما أنقص .

تمت رسالة الغناء بحمد الله وعونه

(١) في الأصل : وأجماعها

(٢) في الأصل : بنص

(٣) أنظر هذا الحديث في باب إثم من كذب على النبي من صحيح البخارى ١ : ٢٩

(٤) في الأصل : أبو بكر بن محمد بن الباقي نوفل الحجارى والاسم محرف تحريفاً شديداً . وصوابه أبو بكر عبد الباقي بن محمد بن سعيد بن بريال الحجارى نسبة إلى وادى الحجارة توفى سنة ٥٠٧ هـ

(٥) في الأصل : ماته

(٦) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمرى الفقيه الحافظ المكثر العالم بالقراءات وعلوم الحديث والرجال كان كثير الشيوخ على أنه لم يخرج عن الأندلس لكنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها ومن الغرباء القاهدين إليها ، وله مؤلفات كثيرة قيمة توفى سنة ٤٦٠ هـ . وترجمته في الجنوة رقم ٨٧٤

رسالة في ألم الموت وإبطاله

فصل

هل للموت ألم أم لا

قال أبو محمد رحمه الله : اختلف المتقدمون من أصحاب الطبائع في الموت : هل له ألم أم لا ألم له ، فقالت طائفة إنه لا ألم له أصلاً وبهذا نقول ، لبرهانين : أحدهما حسى والآخر ضرورى عقلى راجع إلى الحس أيضاً . فأما الأول فهو أنه كل من رأينا يموت ، وهو فى عقله ، إذا سئل عما يجد فإنه يقول : لا شيء إلا الانحلال فقط ، وأن كل من يحس عند ذلك ألماً فإنه ألم المرض الذى كان فيه ، كالوجع المختص بمكان واحد ، وما أشبه ذلك ، حتى إنه لا بد من شيء يسميه الناس راحة الموت ، ثم لا يكون بين حكايتهم وبين زهوق أنفسهم إلا لحظة يسيرة جداً .

وأما البرهان الضرورى فإنه لا يكون ألم للشيء المألوم البتة فى حين وقوعه ولا يكون إلا فى ثانى وقوعه ، وليس للنفس بعد الموت بقاء بحيث يصل إليها الألم الجسدى أصلاً ، لأنها قد فارقت الجسد ، وأكثر ما يكون القلق الشديد ، والشوق المرعب ، لمن فارق عقله . وقد يعرض مثل ذلك القلق لمن يبرأ من مرضه ، فإذا برئوا وسئلوا عن ذلك أخبروا أنهم لم يكونوا يجدون شيئاً .

وقد نجد من تخرج النفس من بعض أعضائه فيموت ذلك العضو خاصة من المفلوجين ، ومن عفن بعض أعضائه لبعض القروح والعلل ، لا بالموت ، لخروج النفس عن ذلك الموضع ، حين خروجها ، لا بعده . وإنما الألم ما دامت النفس فى ذلك الموضع قوية التشبث .

وأما الطائفة التى قالت إن الموت ألماً ، فلم تأت ببرهان يصحح قولها ،

وقد يمكن أن تشغب من شذائد المرض (١) ومقدمات الموت التي عنها يكون ،
ومن الشريعة بقول النبي صلى الله عليه وسلم : إن للموت لسكرات . وهذا
لا حجة فيه لقولهم ، لأن هذه الآلام التي تظهر من المريض إنما هي مادامت
النفس متشبثة بالجسد مقترنة به ، لا بعد الموت . إنما هو حال الفراق ، وحال
الفراق [أليم] . وقوله إن للموت سكرات حق وصدق لاشك فيه ، لأنه قد يمكن
أنه عليه السلام يصف ما يكون سبباً للموت ، من فساد الجسم واضطراب
حاله الموجب للآلم للموت ، فهي من سكراته ؛ وقد يكون ذلك لعناء في
النوم ، فلم يعن عليه السلام قط إلا من له سكرات متقدمة ، وقد يكون عليه
السلام [يصف] حاله ، وما كان مثلها ، أو يكون عنى ما كان ما يتخوف بعده ،
وما يفكر العاقل حينئذ فيما يقدم عليه ، فتكون سكرات معلقة بنفسه ولا سبيل
إلا ما يكون إلا ما في قلبه أو فيما بعده حين لقائه لها ، ولم ينصَّ عليه السلام
على أن حال الموت ذات ألم فيكون معارضاً للذكور ، وحاشا له عليه السلام
أن يأتي بخلاف ما تقتضيه العقول وتدركه المشاهدات ، إنما يصفه بهذا من يريد
إطفاء نوره ، وإبطال كلمته ، وتوهين أمره ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ،
وبالله تعالى التوفيق .

تمت الرسالة في ألم الموت وإبطاله
والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد

(١) أي تؤيد رأيها بشغب وسفسطة . مستشهدة بشذائد المرض ، وبقول الرسول : إن
للموت لسكرات

فصل في معرفة النفس بغيرها وجعلها بذاتها

بسم الله الرحمن الرحيم
اللهم صلى على سيدنا محمد وآله

فصل في معرفة النفس بغيرها ومجربها بزماتها

قال أبو محمد علي بن أحمد بن حزم رضى الله عنه :

أطلت الفكر في نفسى ، بعد تيقنى أنها المدبرة للجسد ، والحساسة الحية العاقلة المميزة للعالمة ، وأن الجسد موات لا حياة له ، وجماد لا حركة فيه إلا أن تحركه النفس ، وبعد إيقانى أنها صاحبة هذه الفكرة ، والمحركة للسانى بما تريد إخراجها مما استقر عندها فقالت مخاطبة لنفسها ، باحثه عن حقيقة أمرها :

يا أيتها النفس المدبرة لهذا الجسد : أأست التى قد عرفت صفات جسدك الذى واليت تدبيره ، وحققته وضبطتها ؟ قالت بلى . قالت : يا أيتها النفس المدبرة لهذا الجسد : أأست التى تجاوزت جسدك المضاف تدبيره إليك فخلص فهمك وبحثك إلى سائر ما يليك من الأرض والماء والهواء ، وسائر الأجرام ثم إلى ما لم يَلِك من الأجرام ، فبرزت أجناس كل ذلك وأنواعه وأشخاصه ، وحققته صفات كل ذلك : الذاتية والغيرية ، وفرقت بين كل ذلك بالفروق الصحيحة ، ثم تخطيطت كل ذلك إلى الأفلاك البعيدة وما فيها من الأجرام النيرة فعرفت كيفية أدوارها ، ووقفت على حقيقة مدارها ، وضبطت كل ذلك ، وأشرفت عليه ، وسرحت هنالك ، وأوغلت فى تلك الطرق والمسالك ، وخضت إليه الأنوار والظلم ، واقتحمت نحوه الأبعاد حتى أتيت من أمم ، ولم يخف ما بعد وغض ؟ قالت : بلى .

قالت : يا أيتها النفس المشرفة على ذلك كله : أأست التى لم تقنعى بهذا المقدار من العلم على عظمه وطوله ، ولا ملاً خزانتك هذا الحظ من

الإشراف، على كبر شأنه وهوله، حتى تعديت إلى ما كان قبل حلولك في هذا الجسد وارتباطك به، من أخبار القرون البائدة والممالك الدائرة والأمم الغابرة والوقائع الشنيعة. ألسنت التي لم يكفك هذا كله حتى تجاوزت العالم بما فيه، وظفرت من جميع نواحيه، فشاهدت الواحد الأول، ووقفت إلى الحق الأول المبدع للعالم بكل ما فيه، فأشرفت على أنه هو، وتوهمت إحداثه لكل ما دونه لتوهمك لكل ما شاهدته بحواسك، فأحطت بكل هذا علماً، واحتويت على جميعه فهما؟ قالت: بلى.

قالت: يا أيتها النفس التي بلغت هذه المبالغ النائية، وترقت إلى هذه المراقي العالية، وسربت في تلك السبل الغامضة، واستسهلت الولوج إلى تلك الشهاب الخافية، وسمت إلى التوقل إلى تلك المنازل السامية، وتكلفت الارتقاء إلى دار تلك الفلك الشاهقة: تفكرى إذ وصلت إلى هذه الرتب، وخرقت تلك الحجب، ورفعت دونك تلك الستور المسبلة، وفتحت لك تلك الأبواب المغلقة المقفلة، وسهل عليك توج تلك المضائق الهائلة، وتأتى لك تخلل تلك الشبايا البعيدة، هل عرفت مائيتك، وهل دريت كيفيتك، وهل وقفت على أى شئ أنت، وما هو جوهرك؟ وهل أشرفت على حملك لصفاتك، كيف حملتها؟ قالت: لا، ما عرفت شيئاً من ذلك.

قالت: يا أيتها النفس العارفة بغيرها، الجاهلة بذاتها: هل تعرفين محلك ومن أين أنت، ومن أين تتكلمين، وكيف تحركين هذه الأعضاء المصونة إذا حركتها، الساكنة إذا تركتها؟ قالت: لا.

قالت: يا أيتها النفس المعجب شأنها فيما علمت وفيما جهلت: هل تذكرين أين كنت ومن أين أقبلت، وكيف تعلقت بهذا الجسد المظلم الميت الجاهل، وكيف تصريفك له، وكيف بقاؤك فيه بالأسباب الممسكة الك معه، وكيف انفصالك عنه عند الآفات العارضة له؟ قالت: لا.

قالت: يا أيتها النفس المعترفة بجهل ذاتها، الواقفة على علم ما عداها:

أأنت المخاطبة والمسئولة السائلة ؟ قالت : بلى .

قالت : فما قطع بك عن معرفة ذاتك وصفاتك ومكانك وبدء شأنك ومخلّك وتنقلك ، وكيف تعلقت بهذا الجسد وكيف تصرّيفك له وكيف تنقلك عنه ؟ فتدبرت هذا فأيقنت أنه لو كان عليها ما علمت بقوتها وطبيعتها ، دون مادة من غيرها ، لكان المعجز لها بما جهلته أسهل عليها من الممكن لها بما علمت . فاعترفت بأن لها مدبراً عليها ما علمت من البعيدات فعلته ، وجهلت ما لم يطلعها طلعه من القريبات فجعلته . فيالك برهاناً على عجز المخلوق ومهانتة وضعفه وقلته ، نعم وعلى أن النفس لا تفعل ولا تقعد إلا بقوة وإرادة من قبل غيرها لا تتجاوزها ولا تتعدها ، والله الأمر كله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

انتهى القول في النفس والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، وسلم تسليماً كثيراً



رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق
والزهد في الرذائل

بسم الله الرحمن الرحيم
رب أسألك العون
اللهم صل على محمد وآله وسلم

رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل

قال أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفقيه الأندلسي :
الحمد لله على عظيم منته ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده وخاتم أنبيائه
ورسله . وسلم تسليماً كثيراً ، وأبرأ إليه تعالى من الحول والقوة ، وأستعينه
على كل ما يعصم في الدنيا من جميع المخاوف والمكاره ، ويخلص في الآخرة
من كل هول ومضيق .

أما بعد : فإنني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة أفادنيها واهب التمييز تعالى ،
بمرور الأيام وتعاقب الأحوال ، بما منحني عز وجل من الفهم (١) بتصاريف
الزمان والإشراف على أحواله . حتى أنفقت في ذلك أكثر عمري . وآثرت
تقييد ذلك بالمطالعة له ، والفكرة فيه ، على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر
النفوس ، وعلى الازدياد من فضول المال ، ورقمت (٢) كل ما سبرت من ذلك
بهذا الكتاب لينفع الله تعالى به من شاء من عباده ممن يصل إليه ، ما أعجبت
فيه نفسي وأجهدتها فيه وأطلت فيه فكري ، فيأخذه عفواً ، وأهديته إليه
هدياً ، فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال وعقر الأملاك إذا تدبره
ويسره الله تعالى لاستعماله . وأنا راجٍ في ذلك من الله تعالى أعظم الأجر
لنيتي في نفع عباده وإصلاح ما فسد من أخلاقهم ، ومداواة عال نفوسهم
وبالله تعالى أستعين ، وحسبنا الله تعالى ونعم الوكيل .

(١) في الاصل : التهم

(٢) في الاصل : وزمت

١ - فصل في مداواة النفوس وإصلاح الأخلاق

١ - لذة العاقل بتمييزه ، ولذة العالم بعلمه ، ولذة الحكيم بحكمته ، ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده ، أعظم (١) من لذة الآكل بأكله ، والشارب بشربه والواطي بوطئه ، والكاسب بكسبه ، واللعب بلعبه ، والآمر بأمره . وبرهان ذلك أن الحكيم والعالم والعاقل والعامل ومن ذكرنا (٢) واجدون لسائر اللذات التي سميناهم كما يجدها المنهمك فيها ، ويحسونها كما يحسها المقبل عليها ، وقد تركوها وأعرضوا عنها وآثروا طلب الفضائل عليها .

وإنما يحكم في الشئيين من عرفهما ، لا من عرف أحدهما ولم يعرف الآخر .
٢ - إذا انعقت الأمور كلها فسدت عليك ، وانتهت في آخر فكرتك باضحلال جميع أحوال الدنيا إلى أن الحقيقة إنما هي العمل للأخرة فقط ، لأن كل أمل ظفرت به ، فعقباه حزن إما بذهابه عنك وإما بذهابك عنه ، ولا بد من أحد هذين السبيلين ، إلا العمل لله عز وجل فعقباه - على كل حال - سرور في عاجل وآجل : أما في العاجل فقلة الهم بما يهتم به الناس وأنتك به مُعَظَّم من الصديق والعدو ، وأما في الآجل ، فالجنة .

٣ - تطلبت غرضاً يستوى الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه فلم أجده إلا واحداً وهو : طرد الهم : فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط ولا في طلبه فقط ، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم وتباين همهم وإرادتهم لا يتحركون حركة أصلاً إلا فيما يرجون به طرد همٍّ ، ولا ينطقون بكلمة أصلاً إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم ؛ فمن مخطئ وجه سبيله ومن مقارب للخطأ ، ومن مصيب ، وهو الأقل من الناس في الأقل من أموره ، والله أعلم .

(١) في الأصل : أعظم لذة ما ذكرنا .

(٢) مكررة في الأصل .

[فطرد الهم (١)] مذهب قد اتفقت الأمور كلها مذ خلق الله تعالى العالم إلى أن يتناهى عالم الابتداء ، ويعاقبه عالم الحساب ، على أن لا يعتمدوا جميعهم (٢) شيئاً سواه وكل غرض غيره : ففي الناس من لا يستحسن أذى الناس ومن لا دين له فلا يعمل للأخرة ، وفي الناس من أهل الشر من لا يريد الخير ولا الأمن ولا الحق ، وفي الناس من يريد (٣) الخمول بهواه وإرادته على بعد الصيت ، ومن الناس من لا يريد المال ويؤثر عدمه على وجوده ككثير من الأنبياء عليهم السلام ، ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة ، وفي الناس من يبغض اللذات بطبعه ويستنقص طالبها ، كمن ذكرنا من المؤثرين فقد المال على اقتنائه ، وفي الناس من يؤثر الجهل على العلم كأكثر من نرى من العامة ، وهذه هي أغراض الناس التي لا غرض لهم سواها ، وليس في العالم مذ كان إلى أن يتناهى ، أحد (٤) يستحسن الهم ولا يريد إلا طرحه عن نفسه . فلما استقر في نفسى هذا العلم الرفيع ، وانكشف لى هذا السر العجيب ، وأثار الله تعالى لفكرى هذا الكينز العظيم ، بحثت عن سبيل موصلة - على الحقيقة - إلى طرد الهم ، الذى هو المطلوب النفيس الذى اتفق جميع أنواع الإنسان الجاهل منهم والعالم والصالح والطالح على السعى له ، فلم أجدها إلا التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للأخرة ؛ وإلا فإنما طلب المال طلابه ليطردوا به عن أنفسهم هم الفقر ، وإنما طلب الصوت من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الاستعلاء عليها ، وإنما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه هم فوتها ، وإنما طلب العلم من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الجهل ، وإنما هش إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس من يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه هم التوحد

(١) زيادة من « م » . وفي الأصل بياض

(٢) في م : بسمهم .

(٣) في م : يؤثر

(٤) في الأصل : لأحد والتصحيح عن « م »

ومضيب أحوال العالم عنه ، وإنما أكل من أكل ، وشرب من شرب ، ونكح من نكح ، ولبس من لبس ، ولعب من لعب ، واكتنز من اكتنز ، وركب من ركب ، ومشى من مشى ، وتورع من تورع ، ليطردوا عن أنفسهم همَّ أضداد هذه الأفعال . وسائر الهموم في كل ما ذكرنا - لمن تدبره - هموم حادثة لا بد منها من عوارض تعرض في خلالها ، وتعذر ما يتعذر منها ، وذهاب ما وجد منها ، والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة ، وأيضاً سوء شحِّ بالحصول على ما حصل عليه من كل ذلك : من خوف منافس ، أو طعن حاسد أو اختلاس راغب ، أو اقتناء عدو ، مع الذم والإثم وغير ذلك . ووجدت العمل للأخرة سالماً من كل عيب ، خالصاً من كل كدر ، موصلاً إلى طرد الهمِّ على الحقيقة ؛ ووجدت العامل للأخرة ، إن امتحن بمكروه في تلك السبيل ، لم يهتم ، بل يسر ؛ إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال منه ، عون^(١) له على ما يطلب وزائداً في الغرض الذي إياه يَسْقُصِد ، ووجدته إن عاقبه عما هو بسبيله عائق لم يهتم ، إذ ليس مؤاخذاً بذلك فهو غير مؤثر فيما يطلب . ووجدته إن قصد بالأذى سر ، وإن نكبته نكبة سر ، وإن تعب فيما سلك فيه سر ، فهو في سرور متصل أبداً ، وغيره بخلاف ذلك أبداً .

فاعلم أنه مطلوب واحد : وهو طرد الهم ؛ وليس إليه ، إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالى . فما عدا هذا فضلال وسخف .

٤ - لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها ، وليس ذلك إلا في ذات الله عز وجل في دعاء إلى حق ، وفي حماية الحريم ، وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى . وفي نصر مظلوم ، وبإذل نفسه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالخصى .

٥ - لا مروءة لمن لا دين له .

٦ - العاقل لا يرى لنفسه ثمناً إلا الجنة .

٧ - لا بليس في ذم الرياء حِسَالَة : وذلك أنه رُبَّ مَنَّمَنَع من فعل خير خوف أن يُظَنَّ به الرياء ، فإذا طَرَقَكَ منه هذا فامضِ على فعلك ، فهو شديد الألم عليه .

٨ - باب عظيم من أبواب العقل والراحة وهو : طرح المبالاة بكلام الناس ، واستعمال المبالاة بكلام الخلق عز وجل بل هو باب العقل كله والراحة كلها - من قدَّر أنه يسلم من طعن الناس وعيهم فهو مجنون . من حقق النظر وراض نفسه على السكوت على الحقائق ، وإن آلمته (١) في أول صدمة كان اغتباطه بدم الناس إياه أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه . بل مدحهم إياه إن كان بحق : وبلغه مدحهم له أسرى ذلك فيه العجب ، فأفسد بذلك فضائله . وإن كان بباطل ، فبلغه ، فسُرَّ ، فقد صار مسروراً بالكذب . وهذا نقص شديد . وأما ذم الناس إياه ، فإن كان بحق ، فبلغه ، فربما كان ذلك سبباً إلى تجنبه ما يعاب عليه ؛ وهذا حظ عظيم لا يزهده فيه إلا ناقص . وإن كان بباطل ، فبلغه ، فصبر ، اكتسب فضلاً زائداً بالحلم والصبر ، وكان مع ذلك غانماً ، لأنه يأخذ حسنات من ذمِّه بالباطل ، فيحظى بها في دار الجزاء ، أحوج ما يكون إلى النجاة بأعمال لم يتعب فيها ولا تكلفها ، وهذا حظ رفيع لا يزهده فيه إلا مجنون . وأما إن لم يبلغه مدح الناس فكلامهم وسكوتهم سواء ، وليس كذلك ذمهم إياه لأنه غانم للأجر ، على كل حال ، بلغه ذمهم أو لم يبلغه . ولو لا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الثناء الحسن « ذلك عاجل بشري المؤمن » لوجب أن يرغب العاقل في الذم بالباطل أكثر من رغبته في المدح بالحق ، ولكن إذا جاء هذا القول فإنما تكون البشري بالحق لا بالباطل ، فإنما تجب البشري بما في المدح لا بنفس المدح .

٩ — ليس بين الفضائل والردائل ، ولا بين الطاعات والمعاصي ، إلا نفار النفس وأنسها فقط . فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات ، ونفرت من الردائل والمعاصي ، والشقي من أنست نفسه بالردائل والمعاصي ونفرت عن الفضائل والطاعات . وليس ما هنا إلا صنع الله وحفظه .

١٠ — طالب الأجر في الآخرة (١) متشبه بالملائكة ، وطالب الشر متشبه بالشياطين ، وطالب الصوت والغلبة متشبه بالسباع ، وطالب اللذات متشبه بالبهائم ، وطالب المال لـحَيْنِ المال - لانيقه في الواجبات والنوافل المحموده - أسقط وأرذل من أن يكون له في شيء من الحيوان شبه ، ولكنه يشبه الغدران التي في الكهوف في المواضع الوعرة ، لا يَنْتَفِعُ بها شيء من الحيوان إلا ما قل من الطائر ، ثم تجفف الشمس والريح ما بق منه ، كذلك يُجْتَنَحُ المال الذي لا ينفق في معروف .

١١ — العاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها سبع أو بهيمة أو جماد ، وإنما يغتبط بتقدمه في الفضيلة التي أبانه الله بها عن السباع والبهائم والجمادات ، وهي التمييز الذي يشارك فيه الملائكة . فمن سر بشجاعته التي يضعها في غير حقها (٢) لله تعالى فليعلم أن النمر أجرو منه ، وأن الأسد والذئب والفيل أشجع منه ، ومن سر بقوة جسمه فليعلم أن البغل والثور والفيل أقوى منه جسماً ، ومن سر بحمله الأثقال فليعلم أن الحمار أحمل منه ، ومن سر بسرعة عدوه فليعلم أن الكلب والأرنب أسرع عدواً منه ، ومن سر بحسن صوته فليعلم أن كثيراً من الطير أحسن منه صوتاً ، وأن أصوات المزامير الذ وأطرب من صوته ؛ فأى غفر أو أى سرور فيما تكون فيه هذه البهائم متقدمة له ؟ لكن من قوى تمييزه ، واتسع عليه وحسن عمله ، فليغتنب بذلك فإنه لا يتقدمه في هذه الوجوه إلا الملائكة وخيار الناس .

(١) في م : طالب الآخرة

(٢) في م : موضعها

١٢ - قول الله تعالى «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى» (١) ، جامع لكل فضيلة . لأن نهى النفس عن الهوى هو ردها عن الطبع الغضبي ، وعن الطبع الشهواني ، لأن كليهما واقع تحت موجب الهوى . فلم يبق إلا استعمال النفس للانطق بالموضوع فيها ، الذي به باتت عن البهائم والحشرات والسباع .

١٣ - قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للذي استوصاه «لا تغضب» وأمره عليه السلام : أن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ، جامعان لكل فضيلة لأن في نهيه عن الغضب ردع النفس ذات القوة الغضبية عن هواها ، وفي أمره عليه السلام بأن يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ردع النفوس عن القوة الشهوانية وجمع لأزمة العدل ، الذي هو فائدة النطق بالموضوع في النفس الناطقة .

٢ - فصل في العلم

١٤ - لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويحبونك وأن العلماء يحبونك ويكرمونك ، لكان ذلك سبباً إلى وجوب طلبه ، فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة ؟ ولو لم يكن من نقص الجهل إلا أن صاحبه يحسد العلماء ويغبطه نظراؤه من الجهال ، لكان ذلك سبباً إلى وجوب الفرار منه فكيف بسائر رذائله في الدنيا والآخرة .

١٥ - ولو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به إلا أنه يقطع المشتغل به عن الوساويس المضنية ، ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم ، وكفاية الأفكار المؤلمة للنفس ، لكان ذلك أعظم داع إليه . فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره ؟ ومن أقلها ما ذكرنا ، بما يحصل عليه طالب العلم . وفي مثله

أتعب ضعفاء الملوك أنفسهم فتشاغلوا عما ذكرنا بالشطرنج والنرد والخمر والأغاني وركض الدواب في طلب الصيد وسائر الفضول التي تعود بالمضرة في الدنيا والآخرة ، وأما بفائدة فلا (١) .

١٦ — لو تدبر العالم في مرور ساعاته ماذا كفاه العلم من النذل بتسلط الجبال ، ومن ألهم بمغيب الحقائق عنه ، ومن الغبطة بما قد بان له وجهه من الأمور الخفية عن غيره ، ل زاد حمداً لله عز وجل ، وغبطة بما لديه من العلم ، ورغبة في المزيد منه .

١٧ — ومن شغل نفسه بأدنى العلوم وترك أعلاها ، وهو قادر عليه ، كان كزارع الذرة في الأرض التي يجود فيها البر ، وكزارع الشعراء حيث يزكو النخل والزيتون .

١٨ — نشر العلم عند من ليس من أهله مفسد لهم كإطعام العسل والحلوى من به احتراق وحمى ، وكتشميمك المسك والعنبر لمن به صداع من احتدام الصفراء .

١٩ — الباخل بالعلم ألوّم من الباخل بالمال ، لأن الباخل بالمال أشفق من فناء ما يديه ، والباخل بالعلم بخل بما لا يفنى على النفقة ولا يفارقه مع البذل .

٢٠ — من مال بطبعه إلى علم ما — وإن كان أدنى من غيره — فلا يشغلها بسواه ، فيكون كغارس النارجيل بالأندلس وكغارس الزيتون بالهند ، وكل ذلك لا ينبغي .

٢١ — أجل العلوم ما قربك من خالقك تعالى ، وما أعانك على الوصول إلى رضاد .

٢٢ — أنظر في المال والحال والصحة إلى من دونك ، وانظر في الدين والعلم والفضائل إلى من فوقك .

٢٣ — العلوم الغامضة كالدواء القوى ، يصلح الأجساد القوية ، ويهلك الأجساد الضعيفة ، وكذلك العلوم الغامضة تزيد العقل القوى جودة ، وتصفية من كل آفة ، وتهلك ذا العقل الضعيف .

٢٤ — من الغوص على الجنون ما لو غاصه صاحبه على العقل لكان أحكم من الحسن البصرى ، وأفلاطون الاثينى ، وبزر جمهر الفارسى .

٢٥ — وقف العقل عند أنه لا ينفع ، أنه لم يؤيد بتوفيق في الدين أو بسعد في الدنيا .

٢٦ — وقف العلم عند الجهل بصفات البارى عز وجل .

٢٧ — لا آفة على العلوم وأهلها أضر من الدخلاء فيها ، وهم من غير أهلها ، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون ، ويفسدون ويقدررون أنهم يصلحون .

٢٨ — من أراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها ، واستحقاق الفضائل بأسرها فليقتد بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه ، أعاننا الله على الاقتداء به بمنه ، آمين آمين .

٢٩ — غاظنى أهل الجهل مرتين من عمرى : إحداهما كلامهم فيما لا يحسنونه أيام جهلى ، والثانية بسكوتهم عن الكلام بحضرتى أيام على . فهم أبدأ ساكتون عما ينفعهم ناطقون فيما يضرهم . وسرّنى أهل العلم مرتين من عمرى : إحداهما بتعليمى أيام جهلى ، والثانية بمذاكرتى أيام على .

٣٠ — من فضل العلم والزهد في الدنيا أنهما لا يؤتيهما الله عز وجل إلا أهلها ومستحقهما ، ومن نقص علو أحوال الدنيا - من المال والصوت -

أن أكثر ما يقعان في غير أهلها وفيمن لا يستحقهما ، ومن طلب الفضائل لم يسائر إلا أهلها ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق — أهل المواساة والبر والصدق وكرم العشرة والصبر والوفاء والأمانة والحلم وصفاء الضمائر وصحة المودة — ومن طلب الجاه والمال واللذات لم يسائر إلا أمثال الكلاب الكلبة والثعالب الخلبة ، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو في المعتقد ، خبيث الطبيعة .

٣١ — منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة وهو أنه يعلم حسن الفضائل ، فيأتيها — ولو في الندرة — ويعلم قبح الرذائل ، فيتجنبها — ولو في الندرة — ويسمع الثناء الحسن فيرغب في مثله ، والثناء الرديء فينفّر منه ، فعلى هذه المقدمات وجب أن يكون للعلم حصة في كل فضيلة ، وللجهل حصة في كل رذيلة ، ولا يأتي الفضائل من لم يتعلم العلم إلا صافي الطبع جداً . فاضل التركيب ، وهذه منزلة خص بها النبيون عليهم الصلاة والسلام ، لأن الله تعالى عليهم الخير كله دون أن يتعلموه من الناس .

٣ — فصل في الأخلاق^(١) والسير

٣٢ — احرص على أن توصف بسلامة الجانب ، وتحفظ من أن توصف بالدهاء فيكثر المتحفظون منك ، حتى ربما أضربك ، وربما قتلك .

٣٣ — وطن نفسك على ما تكره ، يقل همك إذا أتاك ، ولم تستضر بتوطينك أولاً ، ويعظم سرورك ، ويتضاعف إذا أتاك ماتحب بما لم تكن قدرته .

٣٤ — إذا تكاثرت الهموم سقطت كلها .

٣٥ — الغادر يفي بالمحدود [والوافي يغدر بالمحدود] (٢) ، والسعيد كل السعيد في دنياه من لم يضطره الزمان إلى اختبار الإخوان .

(١) في الأصل : الاختلاف

(٢) زيادة من « م »

٣٦ — لا تفكر فيمن يؤذيك ، فإنك إن كنت مقبلاً ، فهو هالك ، وسعدك يكفيك ، وإن كنت مدبراً فكل أحد يؤذيك .

٣٧ — طوبى لمن علم من عيوب نفسه أكثر مما يعلم الناس منها .

٣٨ — الصبر على الجفاء ينقسم ثلاثة أقسام : فصبر عن من يقدر عليك ولا تقدر عليه ؛ وصبر عن من تقدر عليه ولا يقدر عليك ، وصبر عن من لا تقدر عليه ، ولا يقدر عليك . فالأول ذل ومهانة وليس من الفضائل ، والرأى لمن خشي ما هو أشد مما يصبر عليه المتاركة والمباعدة . والثاني فضل وبر وهو الحلم على الحقيقة ، وهو الذى يوصف به الفضلاء ، والثالث ينقسم قسمين : إما أن يكون الجفاء ممن لم يقع منه إلا على سبيل الغلطة والوهلة ، ويعلم قبح ما أتى به ويندم عليه ، فالصبر عليه فضل وفرض وهو حلم على الحقيقة ، وأما ما من كان لا يدرى مقدار نفسه ويظن أن لها حقاً يستطيل به ، فلا يندم على ما سلف منه ، فالصبر عنه ذل للصابر وإفساد للبصير عليه لأنه يزيد استشرافه ، والمعارضة له سخر ، والصواب إعلامه بأنه كان ممكناً أن ينتصر منه ، وأنه إنما ترك ذلك استزدالاً له فقط ، وصيانة عن مراجعته ، ولا يزداد على ذلك ، وأما جواب السفلة فليس جوابه إلا النكال وحده .

٣٩ — من جالس الناس لم يعدم همماً يؤلم نفسه ، وإثماً (١) يندم عليه في معاده ، وغيتاً ينضج كبده . وذلاً ينكس همته . فالظن بعد بمن خالطهم وداخلهم ؟ والعز والراحة والسرور والسلامة فى الانفراد عنهم ، ولكن اجعلهم كالنار ، تدن بها ولا تحاط بها ليلة .

٤٠ — لا تؤخر (٢) شيئاً من عمل عدل (٣) لأن تحققه ، بأن تعجله اليوم (٤) — وإن قل — فإن من قليل الأعمال يجتمع كثيرها ، وربما أعجز

(١) فى الأصل : وإثماً

(٢) فى الأصل : لا تؤخر لا تحقرن

(٣) فى الأصل : عدلاً

(٤) فى الأصل : بأن العجلة اليوم

أمرها عن ذلك فبطل الكل ، ولا تحقر شيئاً مما ترجو به تشقيل ميزانك يوم البعث أن تعجله الآن — وإن قلَّ — فإنه يحط عنك كثيراً ، لو اجتمع لقذف بك في النار .

٤١ — الوجد والفقر والنكبة والخوف لا يحس أذاها إلا من كان فيها ولا يعلمه من كان خارجاً عنها ، وفساد الرأي والعار والإثم لا يعلم قبورها إلا من كان خارجاً عنها ، وليس يراه من كان داخلها فيها . الأمن والصحة والغنى لا يعرف حقها إلا من كان خارجاً عنها ، وليس يعرفه (١) من كان فيها ؛ وجودة الرأي والفضائل وعمل الآخرة لا يعرف فضلها إلا من كان من أهلها ، ولا يعرفه من لم يكن منها .

٤٢ — أول من يزهد في الغادر من غدر له الغادر ، وأول من يمقت شاهد الزور من شهد له به ، وأول من تهون الزانية في عينه فالذي يزني بها .

٤٣ — ما رأينا شيئاً فسد وعاد إلى صحته إلا بعدلأى — أى بعد شدة — فكيف بدماع يتوالى عليه فساد السكر كل ليلة ؟ وإن عقلاً زَيْنَ لصاحبه تعجيل إفساده كل ليلة ، لعقل (٢) ينبغي أن يتهم .

٤٤ — قد ينحس العقل بتدبيره ، ولا يجوز أن يسعد الأحقق بتدبيره .

٤٥ — لاشيء أضرب على السلطان من كثرة المتفرخين حواله ، فالخازم يشغلهم بما لا يظلمهم فيه ، فإن لم يفعل شغلوه بما يظلمونه فيه .

٤٦ — مقرب أعدائه قاتل نفسه .

٤٧ — كثرة وقوع الهين على الشخص تسهل أمره وتهوئنه .

٤٨ — التهويل بلزوم زيِّ ما ، والا كفهرار وقلة الانبساط ، ستائر جعلها الجبال الذين مكنتهم (٣) الدنيا ، أمام جهلهم .

(١) في م : وليس يعرف حقها

(٢) في الاصل : العقل

(٣) في الاصل : مكنتهم

٤٩ — لا يغتر العاقل بصدقة حادثة أيام دولته فكل أحد صديقه يومئذ .

٥٠ — اجهد في أن تستعين في أمورك بمن يريد منها لنفسه مثل ما تريد لنفسك ولا تستعن فيها بمن حظه من غيرك كحظه منك .

٥١ — لا تجب عن كلام نقل إليك عن قائل حتى توقن أنه قاله ، فإن من نقل إليك كذباً ، رجع من عندك بحق .

٥٢ — ثق بالمتدين وإن كان على غير دينك ، ولا تثق بالمستخف وإن أظهر أنه على دينك ؛ من استخف بحرمات الله تعالى فلا تأمنه على شيء مما تشفق عليه .

٥٣ — وجدت المشاركين بأرواحهم أكثر من المشاركين بأموالهم وعلة ذلك طبيعة في البشر ، إنما تأنس النفس بالنفس ، فأما الجسد فمستثقل مبروم به ودليل ذلك استعجال المرء بدفن جسد حبيبته إذا فارقتة نفسه وأسفه لذهاب النفس وإن كانت الجثة حاضرة بين يديه .

٥٤ — لم أر لأبليس (١) أصيب ولا أقبح ولا أحمق من كلمتين ألقاهما على ألسنة دعااته : إحداهما إعتذار من أساء بأن فلاناً أساء قبله ، والثانية : استسهال الإنسان أن يسيء اليوم لأنه قد أساء أمس .

٥٥ — بذل الواجبات فرض ، وبذل ما فضل عن القوت جود ، والإيثار على النفس من القوت ، بما لا تهلك على عدمه ، فضل ، ومنع الواجبات حرام ، ومنع ما فضل عن القوت بخل وشح . والمنع من الإيثار ببعض القوت منع ، ومنع النفس أو الأهل القوت أو بعضه نهن ورذالة ومعصية ، والسخاء بما ظلمت فيه أو أخذته بنير حقه ، ظلم مكرر (٢) ، والذم جزاء ذلك لا الحمد ، لأنه إنما تبذل مال غيرك على الحقيقة لا مالك ، وإعطاء

(١) في الاصل : لا إبليس

(٢) في «م» : مكروه

الناس حقوقهم مما عندك ليس جوداً ولكنه حق .

٥٦ — حدُّ الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين أو الحريم ، وعن الجار المضطهد ، وعن المستجير المظلوم ، وعن الهضيمة ظلماً في المال والعرض وسائر سبيل الحق ، — سواء قل من يعارض أو كثير — والصبر عن ما ذكرنا جبن وخور . وبذلها في عَرْض الدنيا تهور وحمق ، وأحمق من ذلك من بذلها في المنع عن الحقوق والواجبات — قبلك أو قبل غيرك — وأحمق من هؤلاء كلهم قوم شاهدتهم لا يدرون فيما يبذلون أنفسهم ، فتارة يقتاتلون زبداً عن عمرو ، وتارة يقتاتلون عمراً عن زيد ، ولعلَّ ذلك يكون في يوم واحد فيتعرضون المهالك بلا معنى فيقتلون (١) إلى النار ، أو يفرّون إلى العار ، وقد أنذر بهؤلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : « يأتى على الناس زمان لا يدري القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قتل » .

٥٧ — حدُّ العفة أن تغض بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التي لا تحل لك ، فما عدا هذا فهو عهر ، وما نقص حتى تمسك عما أحلَّ الله تعالى فهو ضعيف وعجز .

٥٨ — حدُّ العدل أن تعطى من نفسك الواجب وتأخذه ، وحدُّ الجور أن تأخذه ولا تعطيه .

٥٩ — وحدُّ الكرم أن تعطى من نفسك الحق طائعاً ، وتتجافى عن حَقِّك لغيرك قادراً وهو فضل أيضاً ، وكل جود كرم وفضل ، وليس كل كرم وفضل جوداً . فالفضل أعم والجود أخص ، إذ الحلم فضل وليس جوداً والفضل فرض زدت عليه نافلة .

٦٠ — إهمال ساعة يفسد رياضة سنة .

٦١ — خطأ الواحد خير في تدبير الأمور من صواب الجماعة التي لا يجمعها

(١) في «م» : فيقتلون

واحد ، لأن خطأ الواحد في ذلك يستدرك ، وصواب الجماعة يضرى على استدامة الإهمال ، وفي ذلك الهلاك .

٦٢ - سوء الظن يعده (١) قوم عيباً على الإطلاق ، وليس كذلك ، إلا إذا أدى صاحبه إلى ما لا يحل في الديانة أو إلى ما يتجبح في المعاملة ، وإلا فهو حزم ، والحزم فضيلة .

٦٣ - عيب بعضهم بإتلاف ماله فقال : إني لا أضيع منه إلا ما كان في حفظه نقص ديني ، أو إخلاق عرضي ، أو إمتاع نفسي ، فإني أرى الذي أحفظ من هذه الثلاثة وإن قل ، أجل في العوض مما يضيع من مالي ، ولو أنه كل ما دارت عليه الشمس .

٦٤ - أفضل نعم الله على العبد أن يطيعه على العـدل وحبـه ، وعلى الحق وإيـثاره .

٦٥ - من عيب حب الذكر أنه يحبط الأعمال إذا أحب عاملها أن يذكر بها ، وكاد يكون شركاً لأنه يعمل لغير الله عز وجل ، وهو يطمس الفضائل لأن صاحبه لا يكاد يفعل الخير حباً للخير لكن ليذكر به .

٦٦ - أبلغ في ذمك من مدحك بما ليس فيك ، لأنه نبه على نقصك ، وأبلغ في مدحك من ذمك بما ليس فيك لأنه نبه على فضلك ، ولقد انتصر لك من نفسه بذلك ، وباستهدافه إلى الإنكار واللائمة .

٦٧ - لو علم الناقص نقصه لكان كاملاً .

٦٨ - لا يخلو مخلوق من عيب ، فالسعيد من قلت عيوبه ودفنت .

٦٩ - أكثر ما يكون مالم نطن ، فالحزم هو التأهب لما نطن ، فسبحان مرتب (٢) ذلك يرى الإنسان عجزه وافتقاره إلى خالقه .

(١) في الاصل : يعد

(٢) في «م» : من رتب

٤ — فصل فى الإخوان والصدقة والنصيحة

٧٠ — استبقاك من عاتبك ، وزهد فيك من استهان بشأنك .

٧١ — العتاب للصديق كالسبك للسبيكة ، فإما تصفو وإما تطير .

٧٢ — من طوى من إخوانك سره الذى يعينك دونك أخون لك بمن أفضى سره ، لأن من أفضى سره فإنما خانك فقط ، ومن طوى سره دونك منهم فقد خانك واستخونك .

٧٣ — لا ترغب فيمن يزهد فيك فتحصل على الخيبة والخزى .

٧٤ — لا تزهد فيمن يرغب فيك فإنه باب من أبواب الظلم وترك مقارضة الإحسان ، وهذا قبيح .

٧٥ — من امتحن بأن يخالط الناس فلا يكون (١) توهمه كله إلى من صحب ، ولا يثبت (٢) منه إلا على أنه عدو مناصب ، ولا يصبح كل غداة إلا وهو مترقب من غدر إخوانه وسوء معاملتهم مثل ما يترقب من العدو المكاشف ؛ فإن سلم من ذلك فله الحمد ؛ وإن كانت الأخرى ؛ ألقى متأهباً ولم يمت همأً . فلا تستعمل مع هذا سوء المعاملة فتلحق بذوى الشرارة من الناس وأهل الخب منهم ؛ ولا تكن ها هنا طريق وعرة المسلك ، شاقة المتكلف ، يحتاج سالكها إلى أن يكون أهدى من القطا وأحذر من العقق حتى يفارق الناس راحلاً إلى ربه . وهذه الطريق هى طريق الفوز فى الدين والدنيا ، وهى : أن تسكتهم سر كل من وثق بك وأن لا تفضى إلى أحد من إخوانك ولا من غيرهم من سره ما يمكنك طيه بوجه ما من الوجوه ، وإن كان أخص الناس بك ؛ وأن تفى لجميع من ائتمنك ، ولا تأمن أحداً على شيء من أمرك تشفق عليه إلا عن ضرورة لا بد منها . فارتد حينئذ واجتهد وعلى الله الكفاية ،

(١) فى «م» : فلا باق

(٢) فى الاصل : يبين

وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألَكَ أو لم يسألك ولكل من احتاج إليك وأمكنك نفعه ، وإن لم يعمدك بالرغبة . ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة على ذلك من غير ربك عز وجل . ولا تبت إلا على أن أول من أحسنت إليه أول مضرّ بك وساع (١) عليك فإن ذوى التراكيب الخبيثة يبغيضون — أشدة الحسد — كلّ من أحسن إليهم إذا رأوه في أعلى من أحوالهم . وعامل كل أحد في الأنس أجل معاملة ، وأضر السلو عنه إن حلت بعض الآفات التي تأتي مع مرور الأيام والليالي ، تعش سالماً مستريحاً .

٧٦ — لا تنصح على شرط القبول ، ولا تشفع على شرط الإجابة . ولا تهب على شرط الإثابة . لكن على سبيل استعمال الفضل وتأدية ما عليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف .

٧٧ — حد الصداقة الذي يدور على طرفي محدوده هو أن يكون المرء يسوءه ما ساء الآخر ، ويسره ما سره ، فما سفل عن هذا فليس صديقاً ومن حمل هذه الصفة فهو صديق .

وقد يكون المرء صديقاً لمن ليس صديقه ، وإنما الذي يدخل في باب الإضافة فهو المصادق ، فهذا يقتضى فعلاً من فاعلين ، إذ قد يحب الإنسان من يبعضه ، وأكثر ذلك في الآباء مع الأبناء ، وفي الإخوة مع إخوتهم ، وبين الأزواج وفيمن صارت محبته عشقاً ، وليس كل صديق ناصحاً ، لكن كل ناصح صديق فيما نصّح فيه .

٧٨ — [حدّ (٢)] النصيحة هو أن يسر المرء ما ضرّ الآخر — ساء ذلك أم سره — وأن يسره ما نفعه من الآخر أو ساءه ، فهذا شرط في النصيحة

(١) في الأصل : وتسارع

(٢) زيادة من «م»

زائد على شرط الصداقة . وأقصى غايات الصداقة التي لا مزيد عليها من
شاركك بنفسه وماله بغير علة توجب ذلك ، وآثر ك على من سواك .
ولو لا أنى شاهدت مظفراً ومباركا صاحبي بلنسية ، لقدرت أن هذا
الخلق معدوم في زماننا وليكني ما رأيت قط رجلين استوفيا جميع أسباب
الصداقة ، مع تأنى الأحوال الموجبة للفرقة ، غيرهما .

٧٩ — ليس شيء من الفضائل أشبه بالذائل من الاستكثار من
الإخوان والأصدقاء ، فإن ذلك فضيلة تامة مركبة ، لأنهم لا يكسبون
إلا بالحلم والجود ، والصبر والوفاء ، والاستطلاع والمشاركة والعفة وحسن
الدفاع وتعليم العلم وبكل حالة محموده ، ولسنا نغنى الشاكرية (١) والاتباع أيام
الدنيا لانحرافهم عند انحراف الدنيا ، ولا نغنى المصادقين لبعض الأطلاع ،
ولا المتتادمين على الخمر والمجتمعين على المعاصي والقبائح ونيل أعراض الناس
والفضول وما لا فائدة فيه ، فليس هؤلاء أصدقاء — لنيل بعضهم من بعض
وانحرافهم عند فقد تلك الذائل التي جمعتهم — وإنما نغنى إخوان الصفاء
لغير معنى إلا الله عز وجل ، وإذا حصلت عيوب الاستكثار منهم وما يلزمك
من الحق لهم عند نكبة تعرض : إما بموت أو فراق أو غدر من يغدر منهم ،
كان السرور بهم لا يبق بالحزن الممض من أجلهم ، وليس في الذائل شيء
أشبه بالفضائل من محبة المدح ، لأنه في الوجه سخف ممن يرضى به ، إلا أنه
قد ينتفع به في الإقصار عن الشر والتزيد من الخير ، وفي أن يرغب في ذلك
الخلق الممدوح ممن سمعه .

ولقد صحَّ عندي أن بعض السائسين للدنيا لقي رجلا من أهل الأذى
للناس وقد قلده بعض الأعمال الخبيثة ، فقابلته بالثناء وبأنه قد يسمع شكره
مستقيضا ، ووصفه بالجميل والرفق منتشرا ، فكان ذلك سببا إلى إقصار
ذلك الفاسق عن كثير من شره .

٨٠ — بعض أنواع النصيحة بشكل تمييزه من النسيمة ، لأن من سمع

(١) الشاكرى : الأجير قيل إنه معرب جاكرك ؛ وقال ادنى شير إنه معرب شاكر ومعناه السخري .

إنساناً يذم آخر ، ظالماً له ، أو يكيد به ، ظالماً له ، فسكتم ذلك عن المقول فيه والمكيد ، كان السكتم لذلك ظالماً مذموماً ، ثم إن أعلمه بذلك على وجهه كان ربما وقد ولد [العداوة] (١) على الدوام — والسكائد لم (٢) يبالغ استحقاقه بعد من الأذى — فيكون ظالماً له ، وليس من الحق أن يقتصر من الظالم بأكثر من قدر ظلمه ، والتخلص في هذا الباب صعب ، إلا على ذوى العقول ، والرأى للعاقل في مثل هذا أن يحفظ المقول فيه من القائل فقط دون أن يبالغ ما قال شيئاً يقع في الإسترسال إليه فيهلك . وأما في السكيد فواجب أن يحفظ من الوجه الذي يكاد منه بالأطف ما يقدر في السكتمان على السكائد ، وأبلغ ما يقدر من تحفيظ المكيد ، ولا يزد على هذا ، وأما النسيمة فهي التبليغ لما سمع بما لا ضرر فيه على المبلغ إليه ، وبالله تعالى التوفيق .

٨١ — النصيحة مرتان فالأولى فرض وديانة ، والثانية تنبيه وتذكير ، وأما الثالثة فتوبيخ وتقريع وليس وراء ذلك إلى الركل واللطم (٣) وربما أشد من ذلك من البغي (٤) والأذى اللهم إلا في معاني الديانة فواجب على المرء ترداد النصح فيها — رضى المنصوح أو سخط تأذى الناصح بذلك أو لم يتأذى .

٨٢ — إذا نصحت فانصح سرّاً لا جهراً ، أو بتعريض لا بتصريح إلا لمن لا يفهم فلا بدّ من التصريح له (٥) .

٨٣ — لا تنصح على شرط القبول منك ، فإن تعديت هذه الوجوه فأنت ظالم لا ناصح ، وطالب طاعة (٦) لا مؤدى حق ديانة وأخوة . وليس هذا حكم العقل ولا حكم الصداقة ولكن حكم الأمير مع رعيته والسيد مع عبيده .

(١) زيادة يقتضها السياق .

(٢) في الأصل : ما لم

(٣) في «م» : اللكام

(٤) في الأصل : التعنى ؛ والتصحيح عن «م»

(٥) في «م» : إلا أن لا يفهم المنصوح تعريضاً

(٦) زاد في «م» لفظه «والمالك» بعد كلمة طاعة

٨٤ — لا تكلف صديقك إلا مثل ما تبذل له من نفسك فإن طلبت أكثر فأنت ظالم .

٨٥ — لا تكسب إلا على شرط الفقد ؛ ولا تتولَّ إلا على الشرط العزلة (١) وإلا فأنت مضر بنفسك ، خبيث السيرة .

٨٦ — مساححة أهل الاستئثار والاستغناء ، والتغافل لهم ، ليس مروءة ولا فضيلة ، بل هو مهانة وضعف وتضرية لهم على التماذى على ذلك الخلق المذموم وتغيبط لهم به وعون على ذلك الفعل السوء وإنما تكون المساححة مروءة لأهل الإنصاف والمبادرين إلى (٢) المساححة والإيثار فهو لاء فرض على أهل الفضل أن يعاملوهم بمثل ذلك ، لا سيما إن كانت حاجتهم أمس ، وضرورتهم أشد ، فإن قال قائل : فإذا كان كلامك هذا موجباً لإسقاط المساححة والتغافل للإخوان ، فقد استوى الصديق ، والعدو ، والأجنبي ، فى المعاملة ، وهذا إفساد ظاهر فنقول وبالله تعالى التوفيق : كلا مانحض إلا على المساححة والإيثار والتغافل - ليس لأهل التغشُّم - لكن للصديق حقاً . فإن أردت معرفة وجه العمل فى هذا ، والوقوف على نهج الحق فإن القضية (٣) التى توجب الأثرة من المرء (٤) على صديقه ، ينبغى لكل واحدٍ من الصديقين أن يتأمل ذلك النازل : فأيهما كان أمس حاجةً فيه وأظهر ضرورة لديه فحكم الصداقة والمروءة يقتضى للآخر ويوجب عليه أن يؤثر على نفسه من ذلك . فإن لم يفعل فهو متغشِّم (٥) مستكثراً لا ينبغى أن يسامح البتة ؛ إذ ليس صديقاً ولا خلا . فأما إذا استوت حاجتهما واتفقت

(١) فى م : العزل

(٢) فى الأصل : المبادرين لأهل المساححة والنصوب عن «م»

(٣) فى الأصل : النصبة

(٤) فى الأصل : الأمر

(٥) فى الأصل : معتم والتصحيح عن «م»

ضرورتها ، فحق الصداقة هاهنا أن يسارع كل واحد منهما إلى الأثرة على نفسه فإن فعلا ذلك فهما صديقان ، وإن بدر أحدهما إلى ذلك ، ولم يبادر الآخر إليه ، فإن كانت عادته هذه ، فليس صديقاً ولا ينبغي أن يعامل معاملة الصداقة ، وإن كان قد تبادر هو أيضاً إلى مثل ذلك في قضية أخرى فهما صديقان .

٨٧ — من أردت قضاء حاجته بعد أن سألك إياها ، وأردت ابتداءه بقضائها فلا تعمل له إلا ما يريد هو ، لا ما تريد أنت : وإلا فأمسك ، فإن تعديت هذا كنت مسيئاً لا محسناً ومستحقاً للوم منه ومن غيره لا للشكر ، ومقتضياً للعداوة لا للصداقة .

٨٨ — لا تثقل إلى صديقك ما يؤلم نفسه ولا ينتفع بمعرفته ، فهذا فعل الأراذل (١) ولا تكتمه ما يستنصر بجهله فهذا فعل أهل الشر .

٨٩ — لا يسرك أن تمدح بما ليس فيك بل ليعظم (٢) غمك بذلك ، لأنه نقصك يذبه الناس عليه ويسمع إياه ، وسخرية منك وهزم بك ، ولا يرضى بهذا إلا أحمق ضعيف العقل ، ولا تأس إن ذمت بما ليس فيك بل افرح به فإنه فضلك يذبه الناس عليه . لكن إفرح إذا كان فيك ما تستحق به المدح - وسواء مدحت به أو لم تمدح - واحزن إذا كان فيك ما تستحق به الذم ، وسواء ذمت به أو لم تدم .

٩٠ — من سمع قائلاً يقول في امرأة صديقه قول سوء فلا يخبره بذلك أصلاً ، لا سيما إن كان القائل عيابة وقاعة في الناس سليط اللسان أو دافع معرّة (٣) عن نفسه يريد أن يكثر أمثاله في الناس ، وهذا كثير موجود ،

(١) في الأصل : الإدراك

(٢) في الأصل : لتعظيم .

(٣) في م : مغرم

وبالجملة فلا تحدث الناس إلا بالحق ، وقول هذا القائل لا يدرى أحق هو أم باطل ، إلا أنه في الديانة عظيم . فإن سمع القول مستفيضاً من جماعة وعلم أن أصل ذلك القول شائع ، وليس راجعاً إلى قول إنسان واحد ، أو اطلع إلى حقيقة إلا أنه لا يقدر يوقف صديقه على ما وقف هو عليه ، فليخبره بذلك بينه وبينه في رفق . وليقل له : النساء كثير ، أو حصن منزلك ، وثقف أهلك واجتنب أمر كذا ، وتحفظ من وجه كذا ، فإن قبل المنصوح وتحرز ، حفظ نفسه أصاب ، وإن رآه لا يتحفظ ولا يبالي أمسك ولم يعاوده بكلمة ، وتمادى على صداقته إياه ، فليس في أن لا يصدقه في قوله ما يوجب قطيعته فإن اطلع على [حقيقة] وقدر أن يوقف صديقه على مثل (١) ما وقف هو عليه من الحقيقة ففرض عليه أن يخبره بذلك وأن يوقفه على الجلية ، فإن غير فذلك ، وإن رآه لا يغير (٢) ، فليجتنب صحبته ، فإن رذل لا خير فيه ولا بقية . ودخول رجل مستتر في منزل المرأة دليل سوء لا يحتاج إلى غيره ودخول المرأة في منزل رجل على سبيل التستر مثل ذلك أيضاً . وطلب دليل أكثر من هذين سخف . وواجب أن يجتنب مثل هذه المرأة . وفراقها على كل حال ومسكها لا يبعد عن الديانة .

٩١ — الناس في بعض أخلاقهم على سبع مراتب : فطائفة تمدح في الوجه وتذم في المغيب ، وهذه صفة أهل النفاق والعيابين ، وهذا خلق فاش في الناس غالب عليهم . وطائفة تدم في المشهد والمغيب ، وهذه صفة أهل السلاطة والوقاحة من العيابين . وطائفة تمدح في الوجه والمغيب ، وهذه صفة أهل الملق والطمع . وطائفة تدم في المشهد وتمدح في المغيب ، وهذه صفة السخف والنواكه . وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم في المشاهد ويثنون بالخير في المغيب أو يمسكون عن الذم . وأما العيابون البراء من النفاق والقحة

(١) في م : جل

(٢) في الأصل : يتغير

فيمسكون في المشهد ويذمون في المغيب . وأما أهل السلامة فيمسكون عن المدح وعن الذم في المشهد والمغيب . ومن كل هذه الصفات قد شاهدنا وبلونا .

٩٢ — إذا نصحت في الخلاء وبكلام لين ولا تسند سب من تحذنه إلى غيرك فتكون نماماً ، فإن خشنت كلامك في النصيحة فذلك إغراء وتنفير وقد قال الله تعالى « فقولوا له قولاً ليناً » (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تنفر » وإن نصحت بشرط القبول منك فأنت ظالم ولعلك تخطيء في وجه نصحك فتكون مطالباً بقبول أخطائك وبترك الصواب .

٩٣ — لكل شيء فائدة ، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل (٢) منفعة عظيمة وهي أنه تنوَّعَ طبعي ، واحتدم خاطري ، وحمى فكري ، وتهيج نشاطي ، فكان ذلك سبباً إلى تواليف لي عظيمة المنفعة . ولولا استنارتهم ساكني واقتداحهم كامنِي ، ما انبعثت لتلك التواليف .

٩٤ — لا تصاهر إلى صديق ولا تبايعه ، فما رأينا هذين العلمين إلا سبباً للقطيعة ؛ وإن ظن أهل الجهل أن فيهما تآكيداً للصلة فليس كذلك لأن هذين العقدين داعيان كل واحد إلى طاب حظ نفسه . والمؤثرون على أنفسهم قليل جداً ، فإذا اجتمع طلب كل امرئ حظ نفسه ، وقعت المنازعة . ومع وقوعها فساد المودة . وأسلم المصاهرة مغبة مصاهرة الأهلين بعضهم بعضاً لأن القرابة تقتضي الصبر وإن كرهوه ، لأنهم مضطرون إلى ما لا انفكاك لهم منه من الاجتماع في النسب الذي توجب الطبيعة لكل أجد ، الذب عنه والحماية له .

(١) القرآن الكريم ١٠ : ٤٤

(٢) المحك : المنازعة في الكلام والتماهى في اللجاجة ، والإغصاب .

٥- فصل في أنواع المحبة

وقد سئلت عن تحقيق القول فيها وفي أنواعها

٩٥ — المحبة كلها جنس واحد . ورسمها أنها الرغبة في المحبوب وكراهة منافرة والرغبة في المعارضة منه بالمحبة . وإنما قدر الناس أنها تختلف من أجل اختلاف الأغراض فيها ، وإنما اختلفت الأغراض من أجل اختلاف الأطماع وتزايدها وضعفها وانحسامها . فتكون المحبة لله عز وجل وفيه ، وللتفاني على بعض المطالب ، وللأب وللابن والقراة والصديق والسلطان ولذات الفراش والمحسن والمأمول والمعشوق ، فهذا كله جنس واحد اختلفت أنواعه — كما وصفت لك — على قدر الطمع فيما ينال . فلذلك اختلفت وجوه المحبة ، وقد رأينا من مات على ولده ، كما يموت العاشق أسفاً على معشوقه ، وبلغنا عن من شق خوف الله تعالى ومحبه فمات ، ونرى المرء يغار على سلطانه وعلى صديقه كما يغار على ذات فراشه ، وكما يغار العاشق على معشوقه ، فأدنى أطماع المحبة من حب ، الخطوة منه والرفعة لديه ، والزلفة عنده إذا لم تطمع في أكثر ، وهذه غاية أطماع المحبين لله تعالى . ثم يزيد الطمع في المجالسة ثم في المحادثة والمؤازرة . وهذه أطماع المرء في سلطانه وصديقه وذوى رحمه . وأقصى أطماع الحب من يحب ، المخالطة بالأعضاء إذا رجا ذلك ، ولذلك نجد الحب المفرط المحبة في ذات فراشه يرغب مجامعتها على هيئات شتى ، في أما كن مختلفة ليستكثر من الاتصال . ويدخل في هذا الباب الملامسة بالجد والتقبيل ؛ وقد يقع بعض هذا الطمع في الأب . في ولده ، فيتعدى إلى التقبيل والتعنيق . وكل ما ذكرنا إنما هو على قدر الطمع فإذا انحسم الطمع عن شيء ما لبعض الأسباب الموجبة له ، مالت النفس إلى ما تطمع فيه . ونجد المقرّ بالرؤية لله عز وجل ؛ شديد الحنين إليها ؛ عظيم التروُّح (١) نحوها ، لا يقنع بدرجة دونها . لأنه يطمع فيها . ونجد المنكر

(١) التروُّح: السير واتهاب ، ولعلها تقرأ : التروع

لها لا تحن نفسه إلى ذلك ولا تتمناه أصلاً . لأنه لا يطمع فيه ، ونجده يقتصر على الرضى والحلول في دار الكرامة فقط ، لأنه لا تطمع نفسه في أكثر . ونجد المستحل لنكاح القرائب لا يقنع منهن بما يقنع المحرم لذلك ولا تقف محبته حيث تقف محبة من لا يطمع في ذلك ؛ فنجد من يستحل نكاح ابنته وابنة أخيه كالمجوس واليهود لا يقف عن محبتها حيث يقف المسلم بل نجدهما يتعشقان الابنة وابنة الأخ كتعشق المسلم من يطمع في مخالطته بالجماع ، ولا نجد مسلماً يبلغ ذلك فيهما ولو أنهما أجمل من الشمس وكان هو أعمر الناس وأغزلهم . فإن وجد ذلك في الندره ، فلا تجده إلا من فاسد الدين قد زال عنه ذلك الرادع فانفسح له الأمل ، وانفتح له باب الطمع . ولا يؤمن من المسلم أن تفرط محبته لابنة عمه (١) ، حتى تصير عشيقاً ، وحتى تتجاوز محبته لها محبته لابنته وابنة أخيه ، وإن كانتا أجمل منها لأنه يطمع من الوصول إلى ابنة عمه حيث لا يطمع من الوصول إلى ابنته وابنة أخيه ، ونجد النصراني قد أمن ذلك من نفسه في ابنة عمه أيضاً ، لأنه لا يطمع منها في ذلك ولا يأمن ذلك من نفسه في أخته من الرضاعة ، لأنه طامع بها في شرعته (٢) .

فلاح بهذا عياناً ما ذكرنا أن المحبة كلها جنس واحد لكنها تختلف أنواعها على قدر اختلاف الأغراض فيها . وإلا فطبائع البشر كلهم واحدة إلا أن للعادة والاعتقاد الدياني تأثيراً ظاهراً . ولسنا نقول إن الطمع له تأثير في هذا الفن وحده ، لكننا نقول إن الطمع سبب إلى كل هم ، حتى في الأموال والأحوال فإننا نجد الإنسان يموت جاره وخاله وصديقه وابن عمته وعمه لأمر وابن أخيه لأمر ، وجده أبو أمه وابن ابنته ، فإذا لامطمع له في ماله ارتفع عنه أهم بفؤوته عن يده ، وأن جل خطره ، وعظم مقداره . فلا سبيل إلى أن يمر الاهتمام بشيء منه بباله ؛ حتى إذا مات له عصابة على بعد ، أو مولى على بعد ، حدث له الطمع في ماله ، وحدث له من الهم والأسف والغیظ والفكرة

(١) لحاء : لاصق النسب (٢) في « م » : شريعته .

بفوت اليسير منه عن يده أمر عظيم . وهكذا في الأحوال : فيجد الإنسان من أهل الطبقة المتأخرة ، لا يهتم لانفاذ غيره أمور بلده دون أمره ، ولا لتقريب غيره وإبعاده ، حتى إذا حدث به طمع في هذه المرتبة ، حدث له من الهم والفكر والغيظ أمرٌ ربما قاده إلى تلف نفسه وتلف ديناه وأخراه . فالطمع أصل كل ذلّ وكل هم (١) ، وهو خلق سوء ذميم . وضده نزاهة النفس ، وهذه صفة فاضلة مترتبة من النجدة والجود والعدل والفهم لأنه فـمـم (٢) قلة الفائدة في استعمال ضدها فاستعملها ، وكانت فيه نجدة أنتجت له عزة نفسه فتنزه ، وكانت فيه طبيعة سخاوة نفس فلم يهتم لما فاتته . وكانت فيه طبيعة عدل حببت إليه القنوع وقلة الطمع . فإذا نزاهة النفس مترتبة من هذه الصفات . فالطمع الذي هو ضدها متركب من الصفات المضادة لهذه الأربع الصفات وهي : الجُبْنُ والشح والجور والجهل . والرغبة طمع مستوفى متزايد مُتَعَمِّد . ولولا الطمع ما ذلّ أحد لأحد . وأخبرني أبو بكر بن [أبي] (٣) الفياض قال : كتب عثمان بن محامس (٤) على باب داره باستجة : يا عثمان لا تطمع .

فصول من هذا الباب

٩٦ — من امتحن بقرب من يكره كمن امتحن ببعيد من يحب ، ولا فرق .

٩٧ — إذا دعا المحب في السلو فإجابته مضمونة ، وهي دعوة مجابة .

(١) في الأصل : أصل كل ذلّ وهم ولكل هم .

(٢) في «م» : رأى .

(٣) زيارة من الجنوة ص : ٢٨٨

(٤) في الأصل : محاسن ، والتصحيح عن الجنوة رقم : ٧٠٥ وكان زاهدا عالماً مشهوراً بالعرف عن الدنيا كما ذكره الحميدى ثم روى العبارة المروية هنا نقلاً عن ابن حزم . وإستجة اسم لسكورة بالأندلس متصلة بأعمال رية ، متسعة الأراضي على نهر سنجل ، وكانت أعمالها متصلة بأعمال قرطبة . وانظر الروض المعطار ص : ١٤

٩٨ — اقنع بمن عندك يقنع بك من عندك .

٩٩ — السعيد في المحبة هو من ابتلى بمن يقدر أن يلقي عليه تِعلَّةٌ ولا تلحقه من مواصلته تبعه من الله تعالى ، ولا ملامة من الناس . صلاح ذلك أن يتوافقا في المحبة وتحديدده (١) أن يكونا خاليين من الملل فإنه خلق سوء منغص (٢) ، وتماه نوم الأيام عنهما مدة انتفاع بعضهما ببعض ، وأنسى بذلك إلا في الجنة . وأما ضمانه بيقين فليس إلا فيها ، فهي دار القرار . وإلا فلو حصل ذلك كله في الدنيا لم يؤمن الفجائع والقطع والهرم دون استيفاء اللذة .

١٠٠ — إذا ارتفعت الغيرة فأيقن بارتفاع المحبة .

١٠١ — الغيرة خلق فاضل متركب من النجدة والعدل ، لأن من عدل كره أن يتعدى إلى حرمة غيره وأن يتعدى غيره إلى حرمة . ومن كانت النجدة له طبعاً حدثت فيه عزة ، ومن العزة تحدث الأنفة من الاهتمام .

١٠٢ — أخبرني بعض من صحبناه في الدهر عن نفسه أنه ما عرف الغيرة قط حتى ابتلى بالمحبة . فغار ، وكان هذا الخبر فاسد الطبع خبيث التركيب إلا أنه [كان] (٣) من أهل الفهم والجود .

١٠٣ — درج المحبة خمسة : أولها الإستحسان ، وهو أن يتمثل الناظر صورة المنظور إليه حسنة أو يستحسن أخلاقه ، وهذا يدخل في باب التصديق . ثم الإعجاب وهو رغبة الناظر في المنظور إليه في قربه ، ثم الألفة وهي الوحشة إليه متى غاب ، ثم الكلف وهو غلبة شغل البال به ، وهذا النوع

(١) في «م» : ونحريره

(٢) في «م» : مبعص

(٣) زيادة من «م»

يسمى في باب الغزل بالعشق ، ثم الشغف وهو امتناع النوم والأكل والشرب إلا اليسير من ذلك ، وربما أدى ذلك إلى المرض أو إلى التوسوس أو إلى الموت ، وليس وراء هذا منزلة في تنهاى المحبة أصلاً .

١٠٤ — كنا (١) نظن أن العشق في ذوات الحركة والحدة من النساء أكثر فوجدنا الأمر بخلاف ذلك . وهو في الساكنة الحركات أكثر ما لم يكن ذلك السكون بلهاً .

٦ — فصل في أنواع صباحة (٢) الصور

وقد سئلت عن تحقيق الكلام فيها

١٠٥ — الحلاوة دقة المحاسن ولطف الحركات وخفة الاشارات وقبول النفس لأعراض الصورة وإن لم يكن هناك صفات ظاهرة .

١٠٦ — القوام جمال كل صفة على حدتها ، ورب جميل الصفات على انفراد كل صفة منها ، بارد الطلعة غير مليح ولا حسن ولا رائع ولا حلو .

١٠٧ — الروعة بهاء الأعضاء الظاهرة [مع جمال فيها] (٣) وهى أيضاً الفراهة والعشق .

١٠٨ — الحسن هو شىء ليس له في اللغة اسم يعبر به غيره (٤) ولما كانه محسوس في النفوس باتفاق من رآه ، وهو برد مكسو على الوجه ، وإشراق يستميل القلوب نحوه ، فتجتمع الآراء على استحسانه ، وإن لم يكن هنالك صفات جميلة ، فكل من رآه راقه واستحسنه وقبله ، حتى إذا تأملت الصفات أفراداً ، لم ترَ طائلاً ، وكأنه شىء في نفس المرء تجده نفس الرائي . وهذه أجل مراتب الصباحة ، ثم تختلف الأهواء بعدها ، فمن مفضل للروعة . ومن

(١) ورد قبل هذه الكلمة كلمة «فصل» ولا لزوم لها

(٢) فى الأصل : صاحبة

(٣) زيادة من «م»

(٤) فى «م» : عنه

مفضل للحلاوة ، وما وجدنا أحداً قط يفضل القوام المفرد .
١٠٩ — الملاحظة اجتماع شيء بشيء مما ذكرنا .

٧—فصل فيما يتعامل به الناس في الأخلق

١١٠ — التلون المذموم هو التنقل من زى متكلف لا معنى له إلى زى آخر مثله في التكلف ، وفي أنه لا معنى له ، ومن حال لا معنى لها [إلى حال لا معنى لها] (١) بلا سبب يوجب ذلك . فأما من استعمل من الزى ما أمكنه بما به إليه حاجة وترك المزيد مما لا يحتاج إليه ، فهذا عين من عيون العقل والحكمة كبير ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القدوة في كل خير ، والذي أثنى الله تعالى على خلقه والذي جمع الله تعالى فيه أشد الفضائل بتمامها ، وأبعده عن كل نقص ، يعود المريض مع أصحابه راجلاً في أقصى المدينة بلا خف ولا نعل ولا قلنسوة ولا عمامة ، ويلبس الشعر إذا حضره ، ويلبس الوشي من الخبرات إذا حضره ، لا يتكلف إلا ما لا يحتاج إليه ، ولا يترك ما يحتاج إليه ويستغنى بما وجد عما لا يجد ، ومرة يمشى حافياً راجلاً ، ومرة يمشى بالخف ، ويركب البغلة الرائعة الشهباء ، ومرة يركب الفرس عرياً ، ومرة يركب الناقة ، ومرة [يركب] (٢) حماراً ، ويردف عليه بعض أصحابه ، ومرة يأكل التمر دون خبز ، والخبز يابساً ، ومرة يأكل العناق المشوية ، والبطيخ بالرطب والحلوى — يأخذ القوت ، ويبذل الفضل ويترك ما لا يحتاج إليه ، ولا يتكلف فوق مقدار الحاجة إليه ولا يغضب لنفسه ، ولا يدع الغضب لربه عز وجل .

١١١ — الثبات الذي هو صحة العقد ، والثبات الذي هو اللجاج مشتبهان

(١) زيادة من «م»

(٢) زيادة من «م»

اشتباها لا يفرق بينهما إلا عارف بكيفية الأخلاق . والفرق بينهما أن اللجاج هو ما كان على الباطل ، أو ما فعله الفاعل نظراً لما نشب فيه وقد لاح له فساده ؛ أو لم يُلحَّح له صوابه ولا فساده ، وهذا مذموم ، وضده الانصاف . وأما الثبات الذي هو صحة العقد فإنما يكون على الحق ، أو على ما اعتقده المرء حقاً ما لم يلح له باطله . وهذا محمود وضده الاضطراب . وإنما يلام [على] بعض هذين لأنه ضيع تدبير ما ثبت عليه وترك البحث عما التزم ، أحق هو أم باطل .

١١٢ — حُدُّ العقل : استعمال الطاعات والفضائل ، وهذا الحد ينطوي فيه اجتناب المعاصي والردائل . وقد نص الله تعالى في غير موضع من كتابه على أن من عصاه لا يعقل . قال تعالى حاكياً عن قوم « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » (١) ثم قال تعالى مصداقاً لهم « فاعترفوا بذنوبهم فسحقاً لأصحاب السعير » (٢) .

١١٣ — وحُدُّ الحق : استعمال المعاصي والردائل ، وأما التعدي وقذف الحجارة والتخليط في القول فإنما هو جنون ومرار هائج . وأما الحق فهو ضد العقل ، وهو ما يديننا آنفاً ولا واسطة بين العقل والحق إلا السخف .

١١٤ — وحُدُّ السخف : هو العمل والقول بما لا يحتاج إليه في دين ولا دنيا ولا حميد خلق ، مما ليس بمعصية ولا طاعة ولا عوناً عليها ولا فضيلة ولا رذيلة مؤذية ، ولكنه من هذر القول ، وفضول العمل . فعلى قدر الاستكشاف من هذين الأمرين والتقلل منهما يستحق المرء اسم السخف . وقد يسخف المرء في قصة ، ويعقل في أخرى ويحقق في ثالثة .

١١٥ — وضدُّ الجنون تمييز الأشياء ووجود القوة على التصرف في المعارف والصناعات ، وهذا الذي تسميه الأوائل النطق ، ولا واسطة بينهما .

(١) القرآن الكريم ١٠ : ٦٧

(٢) القرآن الكريم ١١ : ٦٧

وأما إحكام أمر الدنيا والتودد إلى الناس بما وافقهم وصلحت عليه حال المتودد من باطل أو غيره أو عيب أو ما عداه ، والتحيل في إنماء المال ، وبعد الصوت ، وتمشية الجاه بكل ما أمكن من معصية ورذيلة ، فليس عقلا ولقد كان الذين صدقهم الله تعالى في أنهم لا يعقلون ، فأخبرنا تعالى بأنهم لا يعقلون ، سائسين لدنياهم مشمرين لآموالهم ، مدارين لملوكهم ، حافظين لرياستهم . لكن هذا الخلق يسمى الدهاء ، وضده الغفلة (١) والسلامة .
وأما إذا كان السعي فيما ذكرنا ، فيه تصاون وأنفة ؛ فهو يسمى الحزم وضده المنافي له التضييع . وأما الوقار ووضع الكلام موضعه والتوسط في تدبير المعيشة وسائر الناس بالمسألة ، فهذه الأخلاق تسمى الرزانة وهي ضد السخف .
١١٦ — الوفاء مركب من العدل والجود والنجدة ؛ لأن الوفاء (٢) رأى من الجود ألا يعارض من وثق به أو من أحسن إليه فعدل (٣) في ذلك ورأى أن يسمح بعاجل يقتضيه له عدم الوفاء من الحظ فجاد في ذلك ، ورأى أن ينجد لما يتوقع من عاقبة الوفاء فشجع في ذلك .

١١٧ — أصول الفضائل [كلها] (٤) أربعة عنها تتركب كل فضيلة وهي العدل والفهم والنجدة والجود . وأصول الرذائل كلها أربعة ، عنها تتركب كل رذيلة وهي أضداد التي ذكرنا وهي : الجهل والجبن والشح .

١١٨ — الأمانة والعفة نوعان من أنواع العدل والجود .

١١٩ — قال أبو محمد : ومما قلته في الأخلاق :

إنما العقل أساس فوقه الأخلاق سور
فتحلَّ العقل بالعالم ولا فهو بور

(١) في الأصل : العقل .

(٢) في الأصل : الوفاء .

(٣) في الأصل : يعادل .

(٤) زيادة من « م » .

جاهل الأشياء أعمى لا يرى حيث (١) يدور
وتمام العلم بالعدل وإلا فهو زور
وتمام العدل بالجور وإلا فيجور
وملاك الجود بالنجدة والجهن غرور
عف إن كنت غيوراً ما زنى قط غيور
وكمال الكل بالتقوى وقول الحق نور
ذى أصول الفضل عنها حدثت بعد النور
وبما قلته أيضاً :

زمام جميع الفضائل عدل وفهم وجود وبأس
فمن هذه ركبت غيرها فمن حازها فهو في الناس راس
كذا الرأس فيه الأمور التي يحاسنها يكشف الإلتباس

١٢٠ — النزاهة في النفس فضيلة تركبت من النجدة والجود، وكذلك الصبر.

١٢١ — الحلم نوع مفرد من أنواع النجدة .

١٢٢ — القناعة فضيلة مركبة من الجود والعدل .

١٢٣ — الحرص متولد عن الطمع ، والطمع متولد عن الحسد ، والحسد متولد عن الرغبة ، والرغبة متولدة عن الجور والشح والجهل . ويتولد من الحرص رذائل عظيمة منها الدل والسرقة والغضب والزنا والقتل والعشق والحلم والفقر والمسألة بما بأيدي الناس . وإنما فرقنا بين الحرص والطمع لأن الحرص هو إظهار ما استمكن في النفس من الطمع .

١٢٤ — المداراة فضيلة مركبة من الحلم والصبر .

١٢٥ — الصدق مركب من العدل والنجدة .

١٢٦ — لاشئ أقبح من الكذب . وما ظنك بعيب يكون الكفر نوعاً من أنواعه . فكل كفر كذب . فالكذب جنس الكفر ، والكفر نوع تحته .

الكذب متولد من الجور والجبن والجهل ، لأن الجبن يولد مهانة النفس ، والكذاب مهين للنفس بعيد عن عزتها المحمودة .

١٢٧ - رأيت الناس في كلامهم الذي هو فصل بينهم وبين الخير والكلاب والحشرات ينقسمون أقساماً ثلاثة : أحدها من لا يبالي فيما أنفق كلامه فيتكلم بكل ما سبق إلى لسانه غير محقق كنصر حق ، ولا إنكار باطل ، وهذا هو الأغلب في الناس . والثاني أن يتكلم ناصراً لما يقع بنفسه أنه حق ودافعاً لما توهم أنه باطل ، غير محقق لطلب الحقيقة لكن لجأاً فيما التزم ، وهذا كثير ، وهو دون الأول . والثالث : واضع الكلام في موضعه ، وهذا أعز من الكبريت الأحمر .

١٢٨ - لقد طال همهم من غاظه الحق .

١٢٩ - اثنان عظمت راحتهم : أحدهما في غاية الحمد ، والآخر في غاية الذم ، وهما : مطرح الدنيا ، ومطرح الحياء .

١٣٠ - لو لم يكن من التزهد في الدنيا إلا أن كل إنسان في العالم ، فإنه كل ليلة إذا نام نسي كل ما يعسر (١) عليه في يقظته ، وكل ما يشفق منه ، وكل ما يشره (٢) إليه ، فنجده في تلك الحال (٣) لا يذكر ولداً ولا أهلاً ولا جاهاً ولا خملاً ولا ولاية ولا عزلة ولا فقراً ولا غنى ولا مصيبة ، وكفى بهذا واعظاً لمن عقل .

١٣١ - من عجيب تدبير الله عز وجل للعالم أن كل شيء اشتدت الحاجة إليه كان (٤) ذلك أهون له ، وتأمل ذلك في الماء فما فوقه ، وكل شيء اشتد الغنى عنه كان ذلك أعز له ، وتأمل ذلك في الياقوت الأحمر ، فما دونه .

(١) في الأصل : يسهر

(٢) في الأصل : يسره

(٣) في الأصل : الخبر

(٤) في الأصل : كانت

١٣٢ — الناس فيما يعانونه (١) كالماشى فى الفلاة ، كلما قطع أرضاً بدت له أرضون ، وكلما قصد المرء سبياً حدثت له أسباب .

١٣٣ — صدق من قال : إن العاقل فى الدنيا متعوب ، وصدق من قال إنه فيها مستريح : فأما تعبها فيما يرى من انتشار الباطل وغلبة دولته . وبما يحال بينه وبين الحق من إظهار الحق ، وأما راحته فمن كل ما يهتم به سائر الناس من فضول الدنيا .

١٣٤ — إياك وموافقة المجلس (٢) ومساعدة أهل زمانك فيما يضرك فى أخراك وفى دينك ، وإن قلَّ ، فإنك لا تستفيد بذلك إلا الندامة حيث لا ينفعك الندم ، ولن (٣) يحمذك من ساعدته ، بل يشمت بك . وأقل ذلك ، وهو المضمون ، أنه لا يبالى بسوء (٤) عاقبتك وفساد مغبَّتك . وإياك ومخالفة المجلس ومعارضة أهل زمانك فيما لا يضرك فى دينك ولا فى أخراك ، وإن قلَّ ، فإنك تستعيد بذلك الأذى والمنافرة والعداوة . وربما أدى ذلك إلى المطالبة والضرر العظيم دون منفعة أصلاً .

١٣٥ — إن لم يكن بد من إغضب الناس وإغضب الله عز وجل ، ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الحق أو منافرة الخلق ، فأغضب الناس ونافرهم ، ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق .

١٣٦ — الاتساع بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فى وعظه أهل الجهل والمعاصى والردائل واجب ، فمن وعظ بالجفاء والاكفرار فقد أخطأ وتعدى طريقته . صلى الله عليه وسلم ، وسار فى أكثر الأمور مغرباً للموعوظ بالتمادى على أمره لجاحاً وحر دأ ومعايظة الموعاظ الجاني ، فيكون فى وعظه

(١) فى «م» : يعانون

(٢) فى «م» : المجلس السيئ

(٣) فى الأصل : ولم

(٤) فى «م» : سوء

مسيئاً لا محسناً ، ومن وعظ ببشر وتبسم ولين فكأنه مشير برأى ونخبر عن غير الموعوظ بما يستتبع من الموعوظ ، فذلك أبلغ وأنجع في الموعظة ؛ فإن لم يتقبل فلينتقل إلى الوعظ بالتحشيم وفي الخلاء ؛ فإن لم يقبل ففي حضرة من يستحي منه الموعوظ ، فهذا أدب الله تعالى في أمره بالقول اللين . فكان صلى الله عليه وسلم لا يواجه بالموعظة لسكن كان يقول : ما بال أقوام يفعلون كذا ؟ وقد أثنى عليه السلام على الرفق وأمر بالتيشير ونهى عن التنفير ، وكان يتحول بالموعظة خوف الملل . وقال تعالى « ولو كنتم فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » (١) وأما الغلظة والشدّة فإنما تجب في حد من حدود الله تعالى ، فلا لين في ذلك للقادر على إقامة الحد خاصة . وما ينجع في الوعظ أيضاً الثناء بحضرة المسمى على من فعل خلاف فعله . فهذا داعية إلى عمل الخير ، وما أعلم لحب المدح فضلاً إلا هذا وحده وهو أن يقتدى به من يسمع الثناء . ولهذا يجب أن تؤرخ الفضائل والردائل لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره ، ويرغب في الحسن المنقول عن من تقدمه ويتعظ بما سلف .

١٣٧ — وتأمّلت كل مادون السماء وطالت فيه فكرتي فوجدت كل شيء فيه من حى وغير حى من طبعه إن قوى أن يخلع [على] (٢) غيره من الأنواع هيأته ، ويلبسه صفاته ، فترى الفاضل يود لو كان كل الناس فضلاء ، وترى الناقص يود لو كان كل الناس نقصاء ، وترى كل من ذكر شيئاً يحض عليه ، يقول : أنا أفعل أمر كذا وكذا . وكل [ذى] مذهب يود لو كان الناس موافقين له ، وترى ذلك في العناصر ، إذا قوى بعضها على بعض

(١) القرآن الكريم ٣ : ١٩٥

(٢) ما بين معقنين زيادة من « م »

أحاله إلى نوعيته، وترى ذلك في تركيب الشجر ، وفي تغذى النبات والشجر بالماء ورطوبة الأرض وإحالتها ذلك إلى نوعها، فسبحان مخترع ذلك ومدبره لا إله إلا هو .

١٣٨ — ومن عجيب قدرة الله تعالى كثرة الخلق ثم لا ترى أحداً يشبهه آخر شبيهاً لا يكون بينهما فيه فرق . وقد سألت من طال عمره وبلغ ثمانين عاماً هل رأى الصور فيما خلا وشبهة هذه شبيهاً واحداً ، فقال لى لا ، بل لكل صورة فرقها . وهكذا كل ما فى العالم — يعرف ذلك من تدبر الآلات وجميع الأجسام المركبات ، وطال تسكرار بصره عليها . فإنه حينئذ يميز ما بينها ويعرف بعضها من بعض ، بفروق فيها تعرفها النفس ، ولا يقدر أحد يعبر عنها بلسانه ، فسبحان العزيز الحكيم الذى لا تتناهى قدرته .

٨ — فصل فى مداواة ذوى الأخلاق الفاسدة

١٣٩ — من امتحن بالعجب فليفكر فى عيوبه . فإن أعجب بفضله ، فليفتش ما فيه من الأخلاق الدنية . فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه فليعلم أنه مصيبة (١) للأبد ، وأنه أتم الناس نقصاً وأعظمهم عيوباً وأضعفهم تمييزاً . وأول ذلك أنه ضعيف العقل جاهل . ولا عيب أشد من هذين . لأن العاقل هو من ميز عيوب نفسه فغالبا وسعى فى قمعها ، والأحمق هو الذى يجهل عيوب نفسه . إما لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته ، وإما لأنه يقدر أن عيوبه خصال ، وهذا أشد عيب فى الأرض . وفى الناس كثير يفخرون بالزنا واللياقة والسرقة والظلم . فيعجب بتأتى هذه النجوس له ، ويسقوته على هذه المخازى . واعلم يقيناً أنه لا يسلم إنسى من نقص حاشا الأنبياء ، صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين .

(١) فى ٥م : أن مصيبته

فمن خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط ، وصار من السخفة والضعفة
والرذالة والخبثة وضعف التمييز والعقل وقلة الفهم بحيث لا يختلف عنه مختلف
من الأرذال ، وبحيث ليس تحته منزلة من الدناءة . فليتدارك نفسه بالبحث عن
عيوبه ، والاشتغال بذلك عن الإعجاب بها ، وعن عيوب غيره التي لا تضره
لا في الدنيا ولا في الآخرة . وما أدري لسماع عيوب الناس خصلة إلا الاتعاض
بما يسمع المرء منها فيجتنبها ، ويسعى في إزالة ما فيه منها ، بحول الله تعالى
وقوته ، وأما النطق بعيوب الناس فعيب كبير لا يسوغ أصلاً ، والواجب
اجتنابه إلا في نصيحة من يتوقع عليه الأذى بمداخلة المعيب ، أو على سبيل
تبكيك المعجب فقط من وجهه لا خلف ظهره ، ثم تقول للمعجب ارجع إلى
نفسك ، فإذا ميزت عيوبها فقد داويت عجبك ولا تميل (١) بين نفسك وبين
من هو أكبر منها عيوباً . فتستسهل الرذائل وتكون مقلداً لأهل الشر ، وقد ذم
تقليد أهل الخير ، فكيف تقليد أهل الشر . لكن ميل بين نفسك وبين
من هو أفضل منك حينئذ يتلف عجبك ، وتفيق من هذا الرأي القبيح الذي
يولد عليك الاستخفاف بالناس ، وفيهم بلا شك من هو خير منك ، فإذا
استخففت بهم لغير حق ، استخفوا بك بحق لأن الله تعالى يقول « وجزاء
سيئة سيئة مثلها » (٢) فتواذع على نفسك أن تكون أهلاً للاستخفاف بك
على الحقيقة ، مع مقت الله عز وجل وطمس ما فيك من فضيلة .

فإن أعجبت بعقلك ففكر في كل فكرة سوء تمر بخاطرك وفي أضاليل
الأماني الطائفة (٣) بك ، فإنك تعلم نقص عقلك حينئذ ، وإن أعجبت بآرائك
فتفكر في سقطاتك (٤) واحفظها ولا تنسها ، وفي كل رأى قدرته صواباً

(١) ميل بين الأمرين : وازن بينهما ليرى أيهما أفضل . وفي الأصل : تميل .

(٢) القرآن الكريم ٤٢ : ٤٠

(٣) في الأصل : الطائفة والتصحيح عن «م»

(٤) في الأصل : سقطاتك

مخرج بخلاف تقديرك وأصاب غيرك وأخطأت أنت، فإنك إن فعلت ذلك فأقل أحوالك أن يوازن سقوط رأيك صوابه، فتخرج لالك ولا عليك، والأغلب أن خطأك أكثر من صوابك، وهكذا كل أحد من الناس بعد النبيين، صلوات الله عليهم. وإن أعجبت بخيرك (١) فتفكر في معاصيك وتقصيرك، وفي معاييك ووجوهها (٢) فوالله لتجدن من ذلك ما يغلب على خيرك ويعنى على إحسانك فيبطل همك حينئذ من ذلك. وأبدل من العجب تنقصاً لنفسك. وإن أعجبت بعلمك، فاعلم أنه لا خصلة لك فيه، وأنه موهبة من الله مجردة وهبك إياها ربك تعالى، فلا تقابلها بما يسخطه فلعله ينسبك ذلك بعله يمتحنك بها، تولد عليك نسيان ما علمت وحفظت. ولقد أخبرت عن (٣) عبد الملك ابن طريف، وهو من أهل العلم والذكاء واعتدال الأحوال وصحة البحث، أنه كان ذا حظ من الحفظ عظيم لا يكاد يمر على سمعه شيء يحتاج إلى استعادته، وأنه ركب البحر فرساً به فيه هول شديد أنساه أكثر ما كان يحفظ، وأخل بقوة حفظه إخلالاً شديداً لم يعاوده ذلك الذكاء بعد. وأنا أصابته علة فأفقت منها وقد ذهب ما كنت أحفظ إلا ما لا قدر له، فما عاودته إلا بعد أعوام. واعلم أن كثيراً من أهل الحرص على العلم يجدون في القراءة والإكباب على الدرس والطلب ثم لا يرزقون منه حظاً. فليعلم ذو العلم أنه لو كان بالإكباب وحده، لكان غيره فوقه، فصح أنه موهبة من الله تعالى فأى مكان للعجب هاهنا؟ ما هذا إلا موضع تواضع وشكر لله تعالى، واستزادة من نعمه، واستعاذة من سلبها. ثم تفكر أيضاً في أن ما خفي عليك وجهلته من أنواع العلم (٤) الذى تختص به والذى أعجبت بنفاذك فيه أكثر مما تعلم من ذلك. فاجعل مكان العجب استنقاصاً لنفسك واستقصاءً لها فهو أولى

(١) فى الأصل : أعجبت بعلمك بخيرك .

(٢) فى الأصل : معاشك ووجوهه

(٣) فى «م» : أخبرنى

(٤) فى «م» : من أنواع العلم ثم من أصناف علمك الذى تختص ... الخ

وتفكر فيمن كان أعلم منك تجدهم كثيراً ؛ فلتهن نفسك عندك حينئذ .
وتفكر في إخلالك بعلمك فإنك لا تعمل بما علمت منه ، فعلمك عليك حجة
حينئذ . ولقد كان أسلم لك لو لم تكن عالماً . واعلم أن الجاهل حينئذ أعقل
منك وأحسن حالا وأعذر ، فليسقط عجبك بالسكينة ، ثم لعلَّ علمك الذي
تعجب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة التي لا كبير خصلة فيها ، كالشعر وما
جرى مجراه ، فانظر حينئذ إلى من علمه أجلُّ من علمك في مراتب الدنيا
والآخرة ، فتهون نفسك عليك .

وإن أعجبت بشجاعتك فتفكر فيمن هو أشجع منك ، ثم أنظر في تلك
النجدة التي منحك الله تعالى ، فيما صرفتها . فإن كنت صرفتها في معصية فأنت
أحق ، لأنك بذلت نفسك فيما ليس بشئ لها . وإن كنت صرفتها إلى طاعة
فقد أفسدتها بعجبك ، ثم تفكر في زوالها عنك بالشيخ ، وأنت إن عشت
فستصير في عدد العيال ، وكالصبي ضعفاً .

على أني مارأيت العجب في طائفة أقل منه في أهل الشجاعة ، فاستدلت
بذلك على نزاهة أنفسهم ورفعته وعلوها .

وإن أعجبت بجاهك في دنياك ، فتفكر في مخالفيك وأندادك ونظائرك
ولعلمهم أخسّاء وضعاء (١) سقاط ، فاعلم أنهم أمثالك فيما أنت فيه ، ولعلمهم
من يستحي من التشبه بهم ، لفرط رذالتهم وخساستهم في أنفسهم وفي أخلاقهم
ومنابتهم ؛ فاستهن بكل منزلة شاركك فيها من ذكرت لك .

وإن كنت مالك الأرض كلها ولا مخالف عليك ، وهذا بعيد جداً في
الإمكان — فما نعلم أحداً ملك معمور الأرض كلها على قلته وضيق مساحته (٢)
بالإضافة إلى غامرها (٣) ، فكيف إذا أضيف إلى الفلك المحيط — فتفكر فيما

(١) في الأصل : وضعاء والتصويب عن «م»

(٢) الأصل : محاسته .

(٣) في الأصل : عامرها ، والغامر من الأرض والدور خلاف العامر .

قال ابن السماك للرشيذ ، وقد دعا بحضرته بقدرح فيه ماء ليشربه ، فقال له : يا أمير المؤمنين : فلو منعت هذه الشربة فيكم كنت ترضى أن تتباعها ؟ فقال له الرشيذ بملأ فم : قال يا أمير المؤمنين فلو منعت خروجها منك ؛ بكم كنت ترضى تفقدى من ذلك ؟ قال : بملأ فم : قال : يا أمير المؤمنين أتغبط بملك لا يساوى بولة ولا شربة ماء ؟ وصدق ابن السماك رحمه الله .

وإن كنت ملك المسلمين كلهم فاعلم أن ملك السودان وهو رجل أسود (١) مكشوف العورة جاهل يملك أوسع من ملكك ؛ فإن قلت أخذته بحق ، فلعمري ما أخذته بحق إذا استعملت فيه رذيلة العجب ، وإذا لم تعدل فيه فاستحي من حالك فهي حالة رذالة ، لا حالة يجب العجب بها .

وإن أعجبت بملك . فهذه أسوأ مراتب العجب ، فانظر في كل ساقط خسيس هو أغنى منك ، فلا تغبط بحالة يفوقك فيها من ذكرت ، واعلم أن عجبك بالمال حق لأنه أحجار لا ينتفع بها إلا بأن تخرجها عن ملكك بنفقتها في وجهها فقط . والمال أيضاً غاد ورائح ، وربما زال عنك ، ورأيت به عينه في يد غيرك ، ولعل ذلك يكون في يد عدوك . فالعجب بمثل هذا سخط ، والثقة به غرور وضعف .

فإن أعجبت بحسنك ، ففكر فيما تولد عليك مما تستحي نحن من إثباته وتستحي أنت منه ، إذا ذهب عنك بدخولك في السن ؛ وفيما ذكرنا كفاية .

وإن فكرت بمدح إخوانك ففكر في ذم أعدائك إياك ، حينئذ يتخلى عنك العجب ، فإن لم يكن لك عدو فلا خير فيك ؛ ولا منزلة أسقط من منزلة من لا عدو له ؛ فليست إلا منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمة يحسد عليها — عافانا الله —

فإن استحققت عيوبك ففكر فيها ، لو ظهرت إلى الناس وتمثل إطلاعهم عليها ؛ حينئذ تخجل وتعرف قدر نقصك إن كانت لك مسكة من تميز .

واعلم بأنك لو تعلمت كيفية تركيب الطبائع ، وتولد الأخلاق من امتزاج عناصرها المحمولة في النفس ، فستقف من ذلك وقوف يقين على أن فضائلك لا خصلة لك فيها ، وأنها منح من الله تعالى ، لو منحها غيرك ، لكان مثلك ؛ وأنت لو وكلت إلى نفسك لعجزت وهلكت . فاجعل بدل عجبك بها حمداً لو اهبك إياها ، إشفافاً على زوالها ، فقد تتغير الأخلاق الحميدة بالمرض وبالفقر وبالخوف وبالغضب وبالهرم . وارحم من مُنِع مامنحت . ولا تتعرض لزوال ما بك من النعم ، بالتعاطي (١) على واهبها تعالى . وبأن تجعل لنفسك فيها وهبك خصلة أو حقاً ، فتقدر أنك استغنيت عن عصمته ، فتهلك عاجلاً وآجلاً . ولقد أصابتني علة شديدة ، ولدت على ربواً في الطحال شديداً ، فولد ذلك على من الصجر وضيق الخلق وقلة الصبر والنزق أمراً حاسبت نفسي فيه ، إذ أنكرت تبدل خلقى ، فاشتد عجبى من مفارقتى لطبعى وصحَّ عندى أن الطحال موضع الفرح ، فإذا فسد تولد ضده .

وإن أعجبت بنسبك فهذه أسوأ من كلِّ ما ذكرنا ، لأن هذا الذى أعجبت به ، لا فائدة له أصلاً في دنيا ولا آخرة ، وانظر هل يرفع عنك جوعة أو يستر لك عورة أو ينفعك في آخرتك . ثم انظر إلى من يساهمك في نسبك وربما فيما هو أعلى منه ممن نالته ولادة الأنبياء عليهم السلام ثم ولادة الخلفاء ثم ولادة ملوك العجم من الأكاسرة والقيصرة ، ثم ولادة التسابعة وسائر ملوك الإسلام ، فتأمل غيبتهم وبقاياهم ، ومن يدلُّ بمثل ما تدلُّ به من ذلك تجد أكثرهم أمثال الكلاب الخسيسة ، وتلقهم في غاية السقوط والردالة والتبذل ، والتحلّى بالصفات المذمومة ، فلا تغتبط بمنزلة هم فيها نظراؤك أو فوقك . ثم لعلَّ الآباء الذين تفخر بهم كانوا فساقا وشربة خمر ولاطة

(١) التعاطي : الجرأة ، وتناول ما لا يحق ولا يجوز تناوله .

ومتعجبين (١) ونوكي، أطلقت الأيام أيديهم بالظلم والجور، فانتجوا آثاراً (٢) يبقى عارهم بذلك على الأيام، وتعطبتهم آثامهم والندم عليها يوم الحساب، فإن كان ذلك، فاعلم أن الذي أعجبت به من ذلك داخل في العيب والحزى والعار والشنار لا في الإعجاب.

فإن أعجبت بولادة الفضلاء إياك. فما أخلى يدك من فضلهم إن لم تكن أنت فاضلاً. وما أقل غناهم عنك في الدنيا والآخرة، إن لم تكن محسناً. والناس كلهم ولد آدم، الذي خلقه الله تعالى بيده، وأسكنه جنته، وأسجد له ملائكته، ولكن ما أقل نفعه لهم، وفيهم كل عيب (٣) وكل فاسق، وكل كافر. وإذا فكر العاقل في أن فضائل آبائه لا تُقسرَّ به من ربه تعالى ولا تكسبه وجاهة لم يحزنها هو بسعده أو بفضله، في نفسه ولا ماله، فأى معنى للإعجاب بما لا منفعة فيه. وهل المعجب بذلك إلا كالمعجب بمال جاره وبجاه غيره. وبفرس لغيره سبق، كان على رأسه لجامه، وكما تقول العامة في أمثالها: كالخصي يزهي بذكر أبيه (٤).

فإن تعدى بك العجب إلى الامتداح فقد تضاعف سقوطك، لأنه قد عجز عقلك عن مقاومة ما فيك من العجب؛ هذا إن امتدحت بحق فكيف إن امتدحت بكذب، وقد كان ابن نوح وأبو إبراهيم، وأبو هلب عم النبي، صلى الله عليه وعلى نوح وإبراهيم، وسلم، أقرب الناس من أفضل خلق الله تعالى من ولد آدم. وعن الشرف كله في اتباعهم، فما انتفعوا بذلك وقد كان فيمن ولد لغير رشدة من كان الغاية في رئاسة الدنيا، كزياد وأبي مسلم، ومن كان نهاية في الفضل على الحقيقة كبعض من نجدلته عن ذكره في مثل هذا الفصل، ممن يتقرب إلى الله تعالى بحمته والافتداء بحميد آثاره.

(١) في «م»: ومغنين

(٢) في «م»: ظلاماً وآثاراً قبيحة

(٣) في «م»: معيب

(٤) في «م»: كالغبي يزهي بذكاء ابنه

وإن أعجبت بقوة جسمك فتفكر أن البغل والحمار والثور أقوى منك وأحمل للأثقال ، وإن أعجبت بخفتك فاعلم أن السكب والأرنب يفوقانك في هذا الباب ؛ فمن أعجب العجيب إعجاب ناطق بخصلة يفوقه فيها غير الناطق .

واعلم أن من قدر في نفسه عجباً أو ظنَّ بها على سائر الناس فضلاً ، فليُنظر إلى صبره عندما يدهمه من هم أو نكبة أو وجع أو دمل أو مصيبة ، فإن رأى في نفسه قلة (١) الصبر ، فليعلم أن جميع أهل البلاء من المجذمين وغيرهم الصابرين أفضل منه ، على تأخر طبقتهم في التمييز . وإن رأى نفسه صابرة فليعلم أنه لم يأت بشيء سبق فيه ، على ما ذكرنا ، بل هو في ذلك إما متأخر عنهم وإما مساوٍ لهم ولا مزيد .

ثم لينظر إلى سيرته وعدله أو جوره فيما خوّله الله تعالى من نعمة أو مال أو خول أو أتباع أو صحة أو جاه ؛ فإن وجد نفسه مقصرة فيما يلزمه من الشكر لواهبه الله تعالى ، ووجدها حائفة في العدل ، فليعلم أن هذا العدل والشكر والسيرة الحسنة من الخوَّلين أكثر مما هو فيه ، أفضل منه . فإن رأى نفسه ملتزمة للعدل ، فالعادل بعيد عن العجب البتة ، له به بموازين الأشياء ومقادير الأخلاق ، والتزامه التوسط الذي هو الاعتدال بين الطرفين المذمومين ، فإن أعجب لم يعدل ، بل قد مال إلى جنبه الإفراط المذمومة .

١٤٠ — ولتعلم أن التعسف وسوء التملّك لمن خولك الله أمره من رقيق أو رعية ، يدلان على خساسة النفس ، ودناءة الهمة ، وضعف العقل لأن العاقل الرفيع النفس العالی الهمة ، إنما يغالب كفاءه في القوة ، ونظراؤه في المنعة ، وأما الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة ، فسقوط في الطبع ورذالة في النفس والخلق ، وعجز ومهانة . ومن فعل هذا فهو بمنزلة من يتبجح بقتل جرد أو بعقر برغوث أو بفرك قلة . وحسبك بهذا ضعة وخساسة .

(١) في «م» : رأى نفسه قليلة الصبر

١٤١- واعلم أن رياضة النفس (١) أصعب من رياضة الأسد ، لأن الأسد إذا سجن في البيوت التي تتخذها (٢) لها الملوك ، أم من شرها ، والنفس إن سجن لم يؤمن شرها .

١٤٢- والعجب أصل يتفرع عنه التيه والزهو والكبر والنخوة والتعاطى (٣) وهذه أسماء واقعة على معان متقاربة . ولذلك صعب الفرق بينها على أكثر الناس . فقد يكون العجب لفضية من المعجب ظاهرة : فمن معجب بعمله فيكفر ويتعاضد (٤) على الناس ، ومن معجب بعلمه فيترفع ويتعاضد ، ومن معجب برأيه فيزهو على غيره . ومن معجب بنسبه فيتبعه ، ومن معجب بجاهه وعلو حاله فيتكبر ويتنخى (٥) ؛ وأقل مراتب العجب أن تراه يتوقر عن الضحك وعن خفة الحركات وعن الكلام إلا فيما لا بد منه من أمور دنياه ، وعيب هذا أقل من عيب غيره . ولو فعل هذه الأفعال على سبيل الاقتصاد على الواجبات وترك الفضول ، لكان ذلك فضلاً وموجباً لخدمهم ولكنهم إنما يفعلون ذلك احتقاراً للناس وإعجاباً بأنفسهم . فحصل بذلك استحقاق الذم . وإنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى . حتى إذا زاد الأمر ، ولم يكن هناك تمييز يحجب عن توفيقه العجب حقه ، ولا عقل جيد ، حدث من ذلك ظهور الاستخفاف بالناس واحتقارهم بالكلام وفي المعاملة ، حتى إذا زاد على ذلك وضعف التمييز والعقل ، ترقى ذلك إلى استطالة على الناس بالأذى باللسان واليد والتحكم والظلم والطغيان (٦) واقتضاء الطاعة لنفسه ، والخضوع لها إن أمكنه ذلك ، فإن لم يقدر على ذلك امتدح بلسانه واقتصر على ذم الناس والاستهزاء بهم .

(١) في «م» : الأنفس

(٢) في الأصل : تتخذ

(٣) في «م» : التعاضد

(٤) يتغلق : يقضب ويحتد ويبدى ضيق خلقه

(٥) يتنخى : يفتخر ويتعظم .

(٦) في «م» : بالأيدى واللسان والتحكم والطغيان

وقد يكون العجب لغير معنى ولغير فضيلة في المعجب ، وهذا من عجيب ما يقع في هذا الباب ، وهو شيء يسميه عامتها : التميز المتمندل (١) (؟) ، وكثيراً ما نراه في النساء ، وفيمن عتله قريب من عتوهن من الرجال ، وهو عجيب ممن ليس له فيه خصلة أصلاً . لا علم ولا شجاعة ولا علو حال ولا سبب رفيع ولا مال يطغيه . وهو يعلم مع ذلك أنه صفو من كل ذلك لأن هذه أمور لا يغلط فيها من يقذف (٢) بالحجارة وإنما يغلط فيها من له أدنى حظ منها ، فربما يتوهم إن كان ضعيف العقل أنه قد بلغ الغاية القصوى منها ، كمن له حظ من علم فهو يظن أنه عالم كامل أو كمن له نسب معرق في ظلمة ، ويجدهم لم يكونوا أيضاً رفعا في ظلمهم . فنجده لو كان ابن فرعون ذى الأوتاد ما زاد على إعجابه . والذي فيه أو له شيء من فروسية ، فهو يقدر أنه يهزم علياً أو يأسر الزبير ويقتل خالداً ، أو له شيء من جاه رذل ، فهو لا يرى الاسكندر على حال ، أو يكون قوياً على أن يكسب ما يتوفر بيده وما يفضل عن قوته ، فلو أخذ بقرنى الشمس لم يزد على ما هو فيه ، وليس يكثر العجب من هؤلاء وإن كانوا عجبا ، لكن ممن لا حظ له من علم أصلاً ولا نسب البتة ولا مال ولا جاه ولا نجدة ، بل نراه في كفالة غيره ، مهتماً لكل من له أدنى طاقة . وهو يعلم أنه خال من كل ذلك ، وأنه لا حظ له في شيء منه ، ثم هو مع ذلك في حالة المزهو التباه .

ولقد تسببت إلى سؤال بعضهم . في رفق ولين ، عن سبب علو نفسه واحتقاره الناس فما وجدت عنده مزيداً على أن قال لى : أنا حر ، لست عبد أحد . فقلت له أكثر من نراه يشاركك في هذه الفضيلة ، فهم أحرار مثلك إلا قوماً من العبيد هم أطول يدا منك ، وأمرهم نافذ عليك ، وعلى كثير من الأحرار . فلم أجد عنده زيادة . فرجعت إلى تفتيش أحوالهم

(١) في «م» : التميز ، ولم أهد لتصويبه

(٢) في الأصل : يغلط فيها من لا يقذف

ومراعاتها ، فأفكرت في ذلك سنين لأعلم السبب الباعث لهم على هذا العجب الذي لا سبب له ، فلم أزل أختبر ما تنطوى عليه نفوسهم بما يبدو من أحوالهم ومن مرامهم في كلامهم ، فاستقر أمرهم على أنهم يقدر أن عندهم فضل عقل وتميز ، ورأى أصيل ، لو أمكنتهم الأيام من تصرفه أو وجدوا فيه متسعا ، لأداروا (١) الممالك الرفيعة ، ولبان فضاهم على سائر الناس ، ولو ملكوا مالا لأحسنوا تصرفه ؛ فمن هنا تسبب التيه إليهم ، وسرى العجب فيهم ، وهذا مكان فيه للكلام شغب عجيب وعارضة معترضة وهو أنه ليس شيء من الفضائل كلها كان المرء منه أعزى ، قوى ظنه أنه قد استولى عليه واستمر يقينه في أنه قد كمل فيه ، إلا العقل والتميز . حتى إنك تجد المجنون المطبق والسكران الطافح يستخران بالصحيح . والجاهل الناقص يهزأ بالحكماء والأفاضل العلماء ، والصبيان الصغار يتفككون (٢) بالكهول ، والسفهاء العياريون يستخفون بالعقلاء المتصانين ، وضعفة النساء يستنقصن عقول أكابر الرجال وآراءهم ، وبالجملة فكما نقص العقل توهم صاحبه أنه أوفر الناس عقلا وأكمل ما كان تميزا ؛ ولا يعرض هذا في سائر الفضائل ، فإن العاري منها جملة يدرى أنه عار منها وإنما يدخل الغلط على من له أدنى حظ منها ، وإن قل ، فإنه يتوهم حينئذ ، إن كان ضعيف التميز ، أنه على [أعلى] الدرجة فيه . ودواء من ذكرنا الفقر والجنول فلا دواء أنجح لهم منه ، وإلا فداؤهم وضررهم على الناس عظيم جدا ، فلا تجدهم إلا عيابين للناس . وقاعين في الأعراض ، مستهزئين بالجميع ، بجانبين الحقائق ، مكبين على الفضول ، وربما كانوا متعرضين للشائمة والمهارة ، وربما قصدوا إلى الملاطمة والمضاربة عند أدنى سبب يعرض لهم .

وقد يكون العجب كميئا في المرء حتى إذا حصل على أدنى جاه أو مال ، ظهر ذلك عليه ، وعجز عقله عن قمعه وستره .

(١) في الأصل : ولأداروا

(٢) «م» : يتفككون

١٤٣ — ومن طريف ما رأيت في بعض أهل الضعف أن منهم من يغلبه ما يضممر من محبة ولده الصغير ، وامرأته ، حتى يصفهما بالعقل في المحافل وحتى إنه يقول : هي أعقل مني وأنا أتبرك بتوصيتها . وأما مدحه إياها بالجمال والحسن والعافية ، فكثير في أهل الضعف جداً ، حتى إنه لو كان خاطباً لها ما زاد على ما يقول في ترغيب السامع لوصفه فيها ، ولا يكون هذا إلا في ضعيف العقل ، عار من العجب بنفسه .

١٤٤ — إياك والامتداح فإن كل من سمعك لا يصدقك ، وإن كنت صادقا ، بل يجعل ما سمع منك في ذلك من أقلّ معايبك ، وإياك ومدح الآخر في وجهه فإن [هذا] فعل أهل الملق وضعفة النفوس ، وإياك وذم أحد في حضرته ولا في مغيبه ، فلك في إصلاح نفسك شغل ، وإياك والتفاقر (١) فإنك ما تحصل من ذلك إلا على تكذيبك واحتقار من يسمعك ولا منفعة لك في ذلك أصلاً ، إلا كف نعمة ربك ، وشكواه إلى من لا يرحمك ، وإياك ووصف نفسك باليسار فإنك لا تزيد على إطماع السامعين فيما عندك بنظر ، ولا تزد على شكر الله تعالى ، وذكر فقرك إليه وغناك عن دونه ، فإن هذا يكسبك الجلالة والراحة من الطمع فيما عندك .

١٤٥ — العاقل هو من لا يفارق ما أوجبه تمييزه ، ومن سبب للناس الطمع فيما عنده ؛ لم يحصل إلا على أن يبذله لهم ، فلا غاية لهذا ؛ أو يمنهم ، فيلثوم ويعادونه . فإذا أردت أن تعطى أحداً شيئاً فليكن ذلك منك قبل أن يسألك ، فهو أكرم وأنزّه ، وأوجب للمجد .

١٤٦ — من بديع ما يقع في الحسد قول الحاسد إذا سمع إنساناً يُغرب^(٢) في علم ما : هذا شيء بارد إذ لم يتقدم إليه ولا قاله قبله أحد . فإن

(١) في الأصل : التفاخر ؛ والتفاقر : النظاهر بالفقر

(٢) الأصل : يعرف

سمع من يمين ما قد قاله غيره قال : هذا بارد وقد قيل قبله . وهذه طائفة سوء قد نصبت أنفسها للنعوذ على طريق العلم ، يصدون الناس عنها ليكثر نظراؤهم من الجهال .

١٤٧ — إن الحكيم لا تنفعه حكمته عند الخبيث الطبع بل يظنه خبيثاً مثله . وقد شاهدت أقواماً ذوى طبائع ردية ، وقد تصور فى أنفسهم الخبيثة أن الناس كلهم على مثل طبائعهم لا يصدقون أصلاً بأن أحداً هو سالم من رذائلهم بوجه من الوجوه . وهذا أفسد (١) ما يكون من فساد الطبع والبعد عن الفضل والخير ، ومن هذه صفته لا ترجى له معافاة (٢) أبداً ، وبالله تعالى التوفيق .

١٤٨ — العدل حصن يلجأ إليه كل خائف ، وذلك أنك ترى الظالم وغير الظالم إذا رأى من يريد ظلمه ، دعا إلى العدل وأنكر الظلم حينئذٍ وَذَمَّهُ ؛ ولا ترى أحداً يذم العدل فمن كان العدل فى طبعه فهو ساكن فى ذلك الحصن الحصين .

١٤٩ — الاستهانة نوع من (٣) أنواع الخيانة ، إذ قد يخونك من لا يستهين بك ؛ ومن استهان بك فقد خانك الإنصاف ، فكل مستهين خائن وليس كل خائن مستهيناً .

١٥٠ — الاستهانة بالمتاع دليل على الاستهانة برب المتاع .

١٥١ — حالتان يحسن فيهما ما يقبح فى غيرهما وهما المعاتبة والاعتذار فإنه يحسن فيهما تعديد الأيادى وذكر الإحسان ، وذلك غاية القبح فيما عدا هاتين الحالتين .

١٥٢ — لا عيب على من مال بطبعه إلى بعض القبائح ، ولو أنه أشد العيوب وأعظم الرذائل ، ما لم يظهره بقول أو فعل بل يكاد يكون أحمد

(٢) فى الأصل : مانا

(١) فى «م» : أسوأ

(٣) فى الأصل : من نوع

من يعاونه طبعه على الفضائل . ولا تكون مغالبة الطبع الفاسد إلا عن قوة عقل فاضل .

١٥٣ - الخيانة في الحرم أشد من الخيانة في الدماء .

١٥٤ - العرض أعز على الكريم من المال .

١٥٥ - ينبغي للكريم أن يصون جسمه بماله . ويصون نفسه بجسمه ، ويصون عرضه بنفسه ، ويصون دينه بعرضه ، ولا يصون دينه شيئاً أصلاً .

١٥٦ - الخيانة في الأعراض أخف من الخيانة في الأموال . وبرهان ذلك أنه لا يكاد يوجد من لا يخون في العرض ، وإن قل ذلك منه وكان من أهل الفضل ؛ وأما الخيانة في الأموال ، وإن قلت وكثرت ، فلا تكون إلا من رذل بعيد عن الفضل .

١٥٧ - القياس في أحوال الناس قد يكذب في أكثر الأمور ، ويبطل في الأغلب . واستعمال ما هذه صفته في الدين لا يجوز .

١٥٨ - المقلد راض أن يغبن عقله . ولعله مع ذلك يستعظم أن يغبن ماله فيخطيء في الوجهين معاً .

١٥٩ - لا يكره الغبن في ماله ويستعظمه إلا دقيق الطبع لئيم الهمة مهين النفس .

١٦٠ - من جهل معرفة الفضائل فليعتمد على ما أمر به الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فإنه يحتوي على جميع الفضائل .

١٦١ - رب مخوف كان التحفظ (١) منه سبب وقوعه . ورب شر كانت المبالغة في طيه علة انتشاره (٢) ورب إعراض أبلغ في الاسترابة من إدامة النظر ؛ وأصل ذلك الإفراط الخارج عن حد الاعتدال .

(١) في «م» : التحرز

(٢) في «م» : سبب انتشاره .

١٦٢ - الفضيلة وسيطة بين الإفراط والتقصير ، فكلا الطرفين مذوم ،
والفضيلة بينهما محمودة حاشا العقل فإنه لا إفراط فيه .

١٦٣ - الخطأ في الحزم خير من الخطأ في التضييع .

١٦٤ - من العجائب أن الفضائل مستحسنة ومستقلة ، والذائل
مستقبحة ومُسْتَخَفَّةٌ .

١٦٥ - من أراد الإنصاف فليوهم نفسه مكان خصمه ، فإنه يلوح
له وجه تعسُّفِهِ .

١٦٦ - حكمة الحزم معرفة الصديق من العدو ، وغاية الخسران والضعف
جهل العدو من الصديق .

١٦٧ - لا تسلم عدوك لظلم ولا تظلمه ، وساو في ذلك بينه وبين الصديق
وإياك وتقريبه وإعلاء قدره ، فإن هذا من فعل النوكي ، ومن ساوى بين
عدوه وصديقه في التقريب والرفعة فلم يزد على أن زهد الناس في مودته ،
وسهل عليهم عداوته ، ولم يزد على استخفاف عدوه وتمكينه من مقاتله ،
وإفساد صديقه على نفسه ، وإخافه بجملة أعدائه . غاية الخير أن يسلم عدوك
من ظلمك ومن تركك إياه يظلم . وأما تقريبه فمن شيم النوكي الذين قد قرب
منهم التلف . وغاية الشر أن لا يسلم صديقك من ظلمك ، وأما إبعاده فمن
فعل من لا عقل له ومن قد كتب عليه الشقاء . ليس الحلم تقريب العدو ،
ولسكنه مسألتهم مع التحفظ منهم .

١٦٨ - قلما رأيت أمراً أمكن فضيع إلا وفات (١) فلم يمكن بعد .

١٦٩ - يحزن الإنسان في دهره كثيرة ، وأعظمها محنته بأهل نوعه من
الانس . [وداء] (٢) الإنسان بالناس أعظم من دائه بالسباع الكلبية

(١) في الأصل : الأوقات

(٢) زيادة من «م» .

والأفاعى الضارية ، لأن التحفظ من كل ما ذكرنا ممكن ، ولا يمكن التحفظ من الإنس أصلاً .

١٧٠ — الغالب على الناس النفاق ، ومن العجب أنه لا يجوز مع ذلك عندهم إلا من نافقهم .

١٧١ — لو قال قائل : إن في الطبائع مزية كُرِّيَّة (١) لأن أطراف الأضداد تلتقى ، لم يبعد من الصدق . وقد نجد نتائج الأضداد تتساوى ، فنجد المرء يبكى من الفرح ومن الحزن ونجد فرط المودة يلتقى مع فرط البغضة في تتبع العثرات ، وقد يكون ذلك سبباً للقطيعة عند من عدم الصبر والإنصاف .

١٧٢ — كل من غلبت عليه طبيعة ما ، فإنه وإن بلغ الغاية من الحزم والحذر ، فإنه مصروع إذا كويد من قبلها .

١٧٣ — كثرة الريب تعلم صاحبها الكذب لكثرة ضرورته إلى الاعتذار بالكذب فيضرى عليه ويستسهله .

١٧٤ — أعدل الشهود على المطبوع على الصدق وجهه ، لظهور الاستراية عليه إن وقع في كذبة أو همَّ بها . وأعدل الشهود على الكذاب لسانه ، لاضطرابه ونقض بعض كلامه بعضاً .

١٧٥ — المصيبة في الصديق الناكث أعظم من المصيبة به .

١٧٦ — أشد الناس استعظاماً (٢) للعيوب بلسانه هو أشدهم استسهالاً لها بفعله ، ويتبين ذلك في مسافهات أهل البذاء ومشاتمات الأراذل البالغين غاية الرذالة من الصناعات الخسيسة من الرجال والنساء ، كأهل التعيش بالزمر ، وكذس الحشوش ، والخنادمين في المجازر ، وساكني دور الحمل المباحة

(١) في الأصل : كرية مزية

(٢) في «م» : استسهالاً . وفي الأصل : إستطعاماً .

لكرام الجماعات الرذلة ، والساسة للدواب ، فإن كل من ذكرنا أشد الخلق
رمياً من بعضهم لبعض بالقبايح ، وأكثرهم عيباً بالفضائح ، وهم أوغل الناس
فيها وأشهرهم بها .

١٧٧ — اللقاء يذهب بالسخائم ، فكأنَّ نظر العين إلى العين يصلح
القلوب ؛ فلا يسوءك التقاء صديقك بعدوك ، فإن ذلك يفتر (١) أمره عنك .

١٧٨ — أشد الأشياء على الناس الخوف والهم والمرض والفقر ،
وأشدّها كلها إبلاماً للنفس الهم ، للفقد من المحبوب وتوقع المكروه ، ثم المرض
ثم الخوف ثم الفقر ، ودليل ذلك أن الفقر يستعجل ليطرد به الخوف
فيبذل المرء ماله كله ليأمن ، والخوف والفقر يستعجلان ليطرد بهما ألم المرض
فيغتر الإنسان في طلب الصحة ويبذل ماله فيها إذا أشفق من الموت . ويود
عند تيقنه (٢) به لو بذل ماله كله ويسلم ويفيق (٣) . والخوف يستسهل ليطرد
به الهم ، فيغتر المرء بنفسه ليطرد عنها الهم . وأشدّ الأمراض كلها ألماً وجعاً
ملازماً في عضو ما بعينه ، وأما النفوس الكريمة فالذل عندّها أشدّ مما ذكرنا ،
وهو أسهل المخوفات عند ذوى النفوس اللئيمة .

٩ — فصل في غرائب أخلاق النفس

١٧٩ — ينبغي للعاقل أن لا يحكم بما يبدو إليه من استرحام الباطني
المتظلم وتشكيه وكثرة تلومه (٤) وتقلبه وبكائه ، فقد وقفت على بعض

(١) يفتر : يسكن

(٢) في الأصل : نفسه والتصحيح عن «م»

(٣) في الأصل : وسلم

(٤) في «م» : وشدة تلويه

من يفعل هذا ، على يقين أنه الظالم المعتدى المفرط في الظلم ، ورأيت بعض المظالمين ساكن الكلام معدوم التشكى مظهر آفة المبالاة ، فيسبق إلى نفس بعض من لا يحقق النظر أنه ظالم ، وهذا مكان ينبغي التثبيت فيه ، ومغالبة (١) ميل النفس جملة ، ولا يميل المرء مع الصفة التي ذكرنا ولا عليها ، لكن يقصد الإنصاف لما يوجب الحق على السواء .

١٨٠ - من عجائب الأخلاق أن الغفلة مذمومة ، وأن استعمالها محمود ، وإنما ذلك لأن من هو مطبوع [على] الغفلة يستعملها في غير موضعها وفي حيث يجب التحفظ . وهي تغيب^٢ عن فهم الحقيقة فدخلت تحت الجهل فذمت لذلك . وأما المتيقظ الطبع فإنه لا يضع الغفلة إلا في موضعها الذي يذم [فيه] البحث والتقصي . والتغافل فهم للحقيقة وإضراب عن الطيش واستعمال للحلم وتسكين المكروه فلذلك حمدت حالة التغافل وذمت الغفلة .

١٨١ - وكذلك القول في [إظهار الجزع وإبطانه] (٢) وإظهار الصبر وإبطانه . فإن إظهار الجزع الصبر عند حلول المصائب مذموم لأنه عجز يظهره عن ملك نفسه ، فإظهاره أمر لا فائدة فيه بل هو مذموم في الشريعة ، وقاطع^٣ عن ما يلزم من الأعمال وعن التأهب لما يتوقع حلوله مما لعله أشنع من الأمر الواقع الذي عنه حدث الجزع . فلما كان إظهار الجزع مذموماً كان ضده محموداً ، وهو إظهار الصبر ، لأنه ملك النفس وإطراح لما لا فائدة فيه ، وإقبال على ما يعود وينتفع فيه في الحال وفي المستقبل . وأما استبطان [الصبر] (٣) فمذموم لأنه ضعف في الحس وقسوة في النفس وقلة رحمة ؛ وهذه أخلاق سوء لا تكون إلا في أهل الشر وخبيث الطبيعة وفي النفوس

(١) في الأصل : ومغالبة

(٢) زيادة من «م» .

(٣) زيادة لازمة .

السبعية (١) الرديئة . فلما كان ذلك نتيجة ما ذكرنا (٢) ، كان ضده محموداً وهو استبطان الجزع لما في ذلك من الرحمة والرفقة والشفقة والفهم لقدرة الرزية . فصحَّ بهذا أن الاعتدال هو أن يكون المرء جزوع النفس صبور الجسد ، بمعنى أن لا يظهر في وجهه ولا في جوارحه شيء من دلائل الجزع ، وبالله تعالى التوفيق .

١٨٢ — لو علم ذو الرأي الفاسد ما استضر به من فساد تدبيره في السالف ، لأنجح بترك استعماله فيما يستأنف .

١٠ — فصل في تطلع (٣) النفس إلى معرفة ما تستر به عنها

من كلام مسموع أو شيء مرئي (٤) وإلى المدح وبقاء الذكر

١٨٣ — هذان أمران لا يكاد يسلم منهما أحد إلا ساقط الهمة جداً ، ومن راض نفسه الرياضة التامة وقمع قوة نفسه الغضبية قمعاً كاملاً . ومداداة شره النفس إلى سماع كلام تستر به عنها ، أو رؤية شيء اكتتم به دونها ، أن تفكر فيما غاب عنها من هذا النوع في غير موضعه الذي هو فيه بل في أقطار الأرض المتباعدة ، فإن اهتم بكل ذلك فهو مجنون بأم الجنون عديم العقل البتة ، فإن لم يهتم لذلك ، فهل هذا الذي اختفى عنه إلا كسائر ما غاب عنه منه سواء سواء ، ولا فرق ، ثم ليزداد احتجاجاً (٥) على هواه فليقل باسان عقله لنفسه : يا نفس ، رأيت لو لم تعلني أن هاهنا شيئاً أخفى عنك ، أكنت تطلعين إلى معرفة ذلك ؟ فلا بدَّ من « لا » . فليقل لنفسه : فكوني الآن كما كنت تسكونين ، لو لم تعلني بأن هاهنا شيئاً سُرَّ عنك ، فترجعي الراحة

(١) في الأصل : السبعة

(٢) في «م» : فلما كان ما ذكرنا يقبح

(٣) في الأصل : مطلع وفي «م» : مطامع

(٤) في «م» : أو شيء يدني إلى المدح .

(٥) في «م» : ليزداد احتجاجه .

وَطَرِدَ الهم وألم القلق وقبح صفة الشره، وتلك غنائم كثيرة وأرباح جلييلة وأعواض فاضلة سنية يرغب العاقل فيها، ولا يزهّد فيها إلا تام النقص .

وأما من علق وهمه وفكره بأن يبعد اسمه في البلاد، ويبقى ذكره على الدهور فليتفكر في نفسه وليقل لها يانفس : أرأيت لو ذكرت بأفضل الذكر في جميع أقطار المعمورة أبد الأبد إلى انقضاء الدهور ، ثم لم تبلغني ذلك ولا عرفت به ، أكان لي في ذلك سرور وغبطة أصلاً ؟ فلا بد من « لا » ، ولا سبيل إلى غيرها البتة ، فإذا صحَّ ذلك وتيقن ، فليعلم يقيناً أنه إذ مات فلا سبيل له إلى علم أنه يذكر أو أنه لا يذكر ، وكذلك وإن كان حياً إذا لم يبلغه ، ثم ليتفكر أيضاً في معنيين عظيمين أحدهما كثرة من خلا من الفضلاء من الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم أولاً ، والذين لم يبق لهم على أديم الأرض عند أحد من الناس اسمٌ ولا رسم ولا ذكر ولا خبر ولا أثر بوجه من الوجوه ، ثم من الفضلاء الصالحين من أصحاب الأنبياء السالفين والزهاد ومن الفلاسفة والعلماء والأخيار وملوك الأمم الدائرة وبناة المدن الخالية وأتباع الملوك أيضاً ، الذين انقطعت أخبارهم فلم يبق لهم عند أحد علم ولا لأحد بهم معرفة أصلاً البتة ، فهل ضرٌّ من كان فاضلاً منهم ذلك أو نقص من فضائلهم أو طمس من محاسنهم أو حط درجتهم عند باريهم عز وجل ؟

ومن جهل هذا الأمر فليعلم أنه ليس في شيء من الدنيا خبرٌ عن ملك من ملوك الدنيا والأجيال السالفة أبعد مما بأيدي الناس من تاريخ ملك بني إسرائيل فقط ، ثم ما بأيدينا من تاريخ ملك يونان والفرس ، وكل ذلك لا يتجاوز ألفي عام ، فأين ذكر من عمر الدنيا قبل هؤلاء ؟ أليس قد دثر وفنى وانقطع ونسى البتة ؟ ولذلك قال الله تعالى « ورسلاً لم نقصصهم عليك (١) وقال تعالى « وقرونًا بين ذلك كثيراً » (٢) . وقال الله تعالى : « والذين من

بعدهم لا يعلمهم إلا الله» (١)، فهل الإنسان وإن ذكر برهه من الدهر إلا كمن خلا قبل من الأمم الغابرة الذين ذكروا ثم نسوا جملة .

ثم ليتفكر الإنسان في من ذكر بخير أو بشر : هل يزيده ذلك عند الله تعالى درجة أو يكسبه فضيلة لم يكن حازها بفعله أيام حياته ؟ فإذا (٢) هذا كما قلنا ، فالرغبة في الذكر رغبة في غرور (٣) ، ولا معنى له ولا فائدة فيه أصلاً ، لكن إنما ينبغي أن يرغب العاقل في الاستكثار من الفضائل وأعمال البر التي يستحق من هي فيه الذكر الجميل والثناء الحسن والمدح وحميد الصفة ، فهي التي تقربه من باريه تعالى وتجعله مذكوراً عنده عز وجل ، الذكر الذي ينفعه ويحصل على بقاء فائدته ، ولا يبيد أبد الأبد ، وبالله تعالى التوفيق .

١٨٤ — شكر المحسن (٤) فرض واجب وإنما ذلك بالمقارضة له بمثل ما أحسن فأكثر ، ثم بالتهمم (٥) بأموره ، والتأني بحسن الدفاع عنه ثم بالوفاء له حياً وميتاً ولمن يتصل به من شأفة (٦) وأهل كذلك ، ثم بالتمادي على وده ونصيحته ونشر محاسنه بالصدق وطى مساويه مادامت حياً ، وتوريث ذلك عقبك وأهل ودك . وليس من الشكر عونك على الآثام وترك نصيحتك فيما يوتغ (٧) به دينه ودنياه ، بل من عاون من أحسن إليه على باطل فقد غشه وكفر إحسانه وظلمه وجحد إنعامه ، وأيضاً فإن إحسان الله تعالى وإنعامه ، عز وجل ، على كل أحد أعظم وأقدم وأهنأ من نعمة كل منعم دونه ، فهو تعالى الذي شق لنا الأبصار الناظرة ، وفقق فينا الآذان السامعة ، ومنحنا

(١) القرآن الكريم ١٤ : ٩

(٢) في «م» : فإذا كان

(٣) في «م» : رغبة غرور .

(٤) في «م» : شكر المنعم .

(٥) تهمم الشيء : طلبه .

(٦) شأفة الرجل : أهله وماله . وفي الأصل : مساهة .

(٧) يوتغ : يهلك ، وأوتغ دينه بالإثم أفسده .

الحواس الفاضلة ، ورزقنا النطق والتمييز اللذين بهما استأهلنا أن يخاطبنا ، وسخر لنا ما في السموات والأرض من السكواكب والعناصر ، ولم يفضل علينا من خلقه شيئاً غير ملائكته المقدسين الذين هم عمار السموات فقط ، فأين تقع نعم المنعمين من هذه النعم ؟ فمن قدر أنه يشكر محسناً إليه بمساعدته (١) على باطل ، أو بمحabbاته فيما لا يجوز ، فقد كفر نعمته أعظم المنعمين عليه، ووجد إحسان أجلّ المحسنين إليه ، ولم يشكر وليّ الشكر حقاً ، ولا حمد أهل الحمد أصلاً ، وهو الله تعالى . ومن حال بين المحسن إليه وبين الباطل وأقامه على مر الحق ، فقد شكره حقاً وأدى واجب حقه عليه مستوفى ، والله الحمد أولاً وآخرأ وعلى كل حال .

١١ — [فصل] (٢) في حضور مجالس الذكر

١٨٥ — إذا حضرت مجلس علم فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علماً وأجراً ، لا حضور مستغن بما عندك ، طالب عثرة تشنّعُها ، أو غريبة تشيعها ، فهذه أفعال الأراذل الذين لا يفلحون في العلم أبداً . فإذا حضرتها على هذه النية فقد حصلت خيراً على كل حال ، فإن لم تحضرها على هذه النية فخلوسك في منزلك أروح لبدنك ، وأكرم لخلقك وأسلم لدينك ، فإذا حضرتها كما ذكرنا فالتزم أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها وهي : إما أن تسكت سكوت الجهال فتحصل على أجر النية في المشاهدة ، وعلى الثناء عليك بقلّة الفضول وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس ، فإن لم تفعل فاسأل سؤال المتعلم فتحصل على هذه الأربع المحاسن وعلى خامسة وهي استزادة العلم . وصفة سؤال المتعلم هو أن تسأل عن ما لا تدري لا عن ما تدري ، فإن السؤال عما تدريه سخف وقلة عقل وثقل لكلامك وقطع لزمانك بما لا فائدة فيه ،

(١) في الأصل : بمشاهدته

(٢) زيادة من «م»

لا لك ولا لغيرك ، وربما أدّى [إلى] اكتساب العداوات وهو يعد عين الفضول فيجب عليك أن لا تكون فضولياً ، فإنها صفة سوء . فإن أجابك الذى سألت بما فيه كفاية لك فاقطع الكلام ، فإن لم يجيبك بما فيه كفاية أو أجابك بما لم تفهم فقل له لم أفهم واستزده ، فإن لم يزدك بياناً وسكت أو أعاد عليك الكلام الأول ولا مزيد فأمسك عنه ، وإلا حصلت على الشر والعداوة ، ولم تحصل على ما تريده من الزيادة . والوجه الثالث أن تراجع مراجعة العلم ، وصفة ذلك أن تعارض جوابه بما ينقضه نقضاً بينياً . فإن لم يكن ذلك عندك ، ولم يكن عندك إلا تكرار قولك والمعارضة بما لا يراه خصمك معارضة ، فأمسك . لأنك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر زائد ولا على تعليم بل على الغيظ لك وخصمك والعداوة التى ربما أدت إلى المضرات . وإياك وسؤال المعنى (١) ومراجعة المكابر الذى يطلب الغلبة بغير علم فهما خلقا سوء ، دليلان على قلة الدين وكثرة الفضول وضعف العقل وقوة السخف ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وإذا ورد عليك خطاب بلسان ، أو هجمت على كلام فى كتاب ، فإياك أن تقابله بمقابلة المغاضبة الباعثة على المغالبة (٢) ، قبل أن تتيقن بطلانه ببرهان قاطع . وأيضاً فلا تقبل عليه إقبال المصدق (٣) به المستحسن إياه ، قبل علمك بصحته ، ببرهان قاطع . فتظلم كلا الوجهين بنفسك ، وتبعد عن إدراك الحقيقة . ولكن أقبل عليه إقبال سالم القلب عن النزاع عنه والنزوع إليه ، ولكن إقبال من يريد حظ نفسه فى فهم ما سمع ورأى ليس زيد (٤) به علماً ، وقبوله إن كان حسناً أو رده إن كان خطأ فمضمون ذلك ، إذا فعلت ، الخير والعمل به ، فمن جمع الأمرين نال

(١) فى الأصل : المغيب

(٢) فى «م» : المبالغة .

(٣) فى الأصل : الصدق

(٤) فى الأصل : بالتزيد .

الأجر الجزيل (١) والحمد الكثير والفضل العميم .

١٨٦ — فرض على الناس تعليم الخير والعمل به ، فمن جمع الأمرين جميعاً فقد استوفى الفضلين معاً ، ومن علمه ولم يعمل به فقد أحسن في التعليم وأساء في ترك العمل به ، فخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وهو خير من آخر لم يعلمه ولم يعمل به ، وهذا الذي لا خير فيه أمثل حالة فيه ، وأقل ذماً من آخر ينهى عن تعليم الخير ويصد عنه ، ولو لم ينه عن الشر إلا من ليس فيه منه شيء ، ولا أمر بالخير إلا من استوعبه لما ينهى أحد عن شر ولا أمر بخير بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وحسبك ممن أدى رأيه إلى هذا إفساداً وسوء طبع وذم [حال] (٢) ، وبالله تعالى التوفيق .

تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه ،
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً
كثيراً ورضى الله عن أصحاب رسول الله

(١) في «م» فمضمون لك ، إن فعلت ذلك ، الأجر الجزيل . . الخ

(٢) زيادة من «م» .

الفهارس

- ١ — فهرست الرسائل
- ٢ — فهرست الموضوعات
- ٣ — الآيات القرآنية والأحاديث النبوية
- ٤ — الأعلام التي وردت ترجمتها في حواشي الكتاب
- ٥ — فهرست المراجع

فهرست الرسائل

ص	
١ — ١	المقدمة
٥ — ١٧	رسالة في الرد على الهاتف من بعد
١٩ — ٤٠	رسالة البيان عن حقيقة الإيمان
٤١ — ٥٥	رسالة التوقيف على شارع النجاة باختصار الطريق
٥٦ — ٩٠	رسالة مراتب العلوم
٩١ — ١٠١	رسالة في الغناء الملهي أمباح هو أم محظور
١٠٣ — ١٠٦	رسالة في ألم الموت وإبطاله
١٠٧ — ١١١	فصل في معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها
١١٣ — ١٧٣	رسالة في مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل
١٧٥ — ١٨٧	الفهارس

فهرست الموضوعات

المحبة : أنواعها وقيامها جميعاً على أساس الطمع : ١٣٨ ، درجاتها الخمس : ١٤١
 ابن حزم : ذمه لأنه متأخر في الزمن : ١٢ ، اتهامه بالتعويل على كتب الأوائل : ١٠
 وبالظعن على الصحابة : ٧ — ٨ ، تحريض علماء الأقطار الإسلامية عليه :
 ١٥ ، ذب جماعة ممن يخالفونه عنه في محنته : ٢٣ ، اعتقاد بعض أصدقائه أنه
 لا يحفظ سرا : ٢٢ ، شعر له في الأخلاق : ١٤٥ ، تقييده لتجاربه : ١١٥
 موقف أهل الجهل وأهل العلم منه : ١٢٣ ، إصابته بعلته أنسته ما كان
 يحفظ : ١٥٢ ، سؤاله أحد المعجبين عن سر عجيبه : ١٥٩ ، كشفه عن
 السر في العجب : ١٦٠ ، إصابته بعلته غيبت من خلقه : ١٥٥ ، انتفاعه
 بمحك الجهال : ١٣٧

الحسن : (انظر صياحة الصور)

الحلاوة : (انظر : صياحة الصور)

الخلق : مراتب أخلاق الناس سبع : ١٣٦ ، غرائب أخلاق النفس : ١٦٦
 أنواع الأخلاق الكريمة وأضدادها — الشجاعة وحدها : ١٢٨ ، العفة
 وحدها : ١٢٨ ، العدل وحده : ١٢٨ ، ١٦٢ ، الكرم وحده : ١٢٨ ،
 العجب عامة — بالعقل : ١٥١ ، بالعلم : ١٥٢ ، بالشجاعة : ١٥٣ ، بالجاء :
 ١٥٣ ، بالمال : ١٥٤ ، بالحسن : ١٥٤ ، بمدح الإخوان : ١٥٤ ، بالنسب :
 ١٥٥ ، ما يتفرع عن العجب : ١٥٨ ، كون العجب لغير علة داعية : ١٥٩ ،
 كون العجب : ١٦٠ ، الحسد : ١٦١ — ١٦٢ ، المسامحة : ١٣٤ ، الغيرة :
 ١٤١ ، التلون المذموم : ١٤٣ ، الثبات واللجاج : ١٤٣ ، الرزاة : ١٤٤ ،
 شكر المحسن : ١٧٠ ، الغفلة والتغافل : ١٦٧ ، الصبر والجزع : ١٦٧

الاستدلال : هل هو فرض : ٢٥ ، هل هو ضروري : ٣١ ، ٣٩ ، معرفة الله غير
 واجبة قبل الرسل : ٢٨ ، لاتتم بضرورة العقل : ٢٩ ، إسلام كثير من

الصحابة دون استدلال : ٣٥ ، أقسام الناس في الاستدلال : ٣٦ ، كثرة الخطأ في الاستدلال : ٣٨ ، ٣٩ .

الروعة : (انظر : صباحة الصور)

الزهد : فضله : ١٢٣ ، البرهان على أهميته : ١٤٧ طريقة ابن حزم في الزهد هي قتل العجب : ١٥٠ — ١٥٧ ، أهمية الانفراد والعزلة : ١٢٥ .

الشريعة : بطلان الشرائع ماعدا الاسلام — البرهمية : ٧٣ ، الصابئة : ٥٤ ،

المجوسية : ٥٢ ، ٧٤ ، المانائية : ٥٢ ، النصرانية : ٥١ ، اليهودية : ٧٤ ، ٥٢

صباحة الصورة : الخلاوة : ١٤٢ ، القوام : ١٤٢ ، الروعة : ١٤٢ ، الحسن : ١٤٢

الملاحاة : ١٤٣ .

الصدقة : حدها : ١٣١ ، الحذر في الصدقة : ١٣٠ ، العتاب في الصدقة : ١٣٠ ،

قيمة الاستكثار من الأصدقاء : ١٣٢ ، هل تستحسن مصاهرة الصديق ومبايعته

: ١٣٧ ، هل ينقل الكلام للصديق إذا ذكرت امرأته بسوء : ١٣٥ ، كيف

تكون المسامحة بين الصديقين : ١٣٤ ، حد الحزم معرفة الصديق من العدو :

١٦٤ ، كيف تفرق في المعاملة بين الصديق والعدو : ١٦٤ .

الطبائع : هل فيها مزية كرية : ١٦٥ ، غلبة النفاق على الناس : ١٦٥ ، الطمع سبب إلى

كل هم : ١٣٩ .

الطمع : (انظر المحبة ، والطبائع) .

المظاهر : كذبها : ١٦٦

العالم : اختلاف الفلاسفة في حدوثه وقدمه : ٥٥ — ٥٦ ، البراهين على

حدوثه : ٤٨ ، ٧٢ ، إثبات أن له محدثاً : ٤٩ ، إثبات أن المحدث

واحد : ٥١ ، ٧٢ .

العجب : (انظر : الخلق)

المعرفة : (انظر : الاستدلال)

العلم :

— العالم من أية يكتسب : ٧٥ ، ضرورة ابتعاده عن السلطان ٧٥ ، عدم خدمة السلطان بعلم النجوم : ٧٦ .

— العلم : فضله : ١٢١ ، ١٢٢ ، تعليمه الفضائل : ١٢٤ ، قطعه صاحبه عن الوسوس ، نشره عند غير أهله : ١٢٢ ، الباخل بالعلم : ١٢٢ ، آفة الدخلاء فيه : ١٢٣ ، آداب مجالس العلم : ١٧١ ، أنواعه سبعة : ٧٨ ، دعائه : ٧٦ ، منهج التعلم : ٦٣ ، منفعة العلوم الدنيوية : ٦١ ، آفة الافتقار على علم : ٨٦ ، الخط والقراءة : ٦٣ ، أنواعه — علم الطب : ٤٥ ، ٧٩ ، أقسام علم الطب : ٧٩ ، علم المساحة : ٤٤ ، علم الهيئة والنجوم : ٤٥ ، ٧٩ ، فساد علم النجوم : ٦٨ ، ٨٨ ، علم العدد : ٤٤ ، ٦٧ ، ٧٩ ، الفلسفة والمنطق : ٤٣ ، الفلسفة لا تنجى بعد الموت : ٥٥ ، المنطق : ٧١ ، ٧٩ ، البلاغة : ٨٠ ، العبارة : ٨٠ ، علم الشعر : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٠ ، علم التاريخ والأخبار : ٧١ ، ٧٨ ، تاريخ بني اسرائيل : ٧٨ ، تاريخ الفرس : ٧٩ ، تاريخ الروم : ٧٩ ، علم النسب : ٧٩ ، علم الشريعة وأهميته : ٧٤ ، أقسام الشريعة الإسلامية : ٧٨ ، ٨٥ ، علم اللغة : ٦٤ ، علم السحر والموسيقى : ٥٩ ، ٦٠ ، العلوم الصناعية : ٨٠ .

الغناء : الأحاديث المانعة له : ٩٣ ، الأحاديث التي يستنتج منها الترخيص فيه : ٩٨ ، الفضيلة : علاقة العقل بالفضيلة : ١٤٤ ، الوفاء : ١٤٥ ، أصول الفضائل : ١٤٥ ، شعر لابن حزم في أصولها : ١٤٥ — ١٤٦ ، كيفية تركيب الفضائل : ١٤٦ ، اغتباط العاقل بالفضيلة : ١٢٠ (وانظر أيضا الخلق) .

التقليد : نهى ابن حزم عن تقليد الصحابة فمن دونهم : ١٣ ، هل الصحابة مقلدون : ٣٧ ، ذم التقليد وإبطاله : ٢٦ .

المتكلمون : جسارتهم على العظامم ٣٧ ، سوفسطائيون مهذرون : ٣٠ ، غير مرضيين عند الأمة : ٣٧ .

الملاحه : (انظر : صباحة الصور)

الموت : هل له ألم أو لا : ١٠٥ — ١٠٦ .

النصيحة : حدها : ١٣١ ، كم مرة يتقدم بها الناصح : ١٣٣ ، قواعدها : ١٣٣
متى تتضح وكيف : ١٣٧ ، اختلاط بعض أنواعها بالنيمة : ١٣٢
النظر : (انظر : الاستدلال)

النفس : معرفتها بغيرها وجهلها بذاتها : ١٠٩ — ١١١ ، حبها للاستطلاع : ١٦٨
حبها للمدح والذكر : ١٦٩ ، غرائب أخلاقها : ١٦٦ ، أنواع النفوس :
٤٧ ، نفار النفس وأنسها ، فرق ما بين الرذيلة والفضيلة : ١٢٠
الهم : طرده هو الغاية الكبرى : ١١٦ ، ١١٨ ، أشد شيء إيلا ما للنفس : ١٦٦
مقارنة بينه وبين الخوف والفقر والمرض : ١٦٦ الطمع يخلق الهم : ١٣٩

فهرست الآيات القرآنية والأحاديث النبوية (١) الآيات القرآنية

الآية :	الصحيفة
أولم يتفكروا	٢٥
أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض	٢٥
أولم ينظروا في ملكوت السموات	٢٥
حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم	٣٨
فاعترفوا بذنوبهم فسحقاً لأصحاب السعير	١٤٤
فاعلم أنه لا إله إلا هو	٣٠
فإنه أحق أن نخشوه	٢٢
فقلوا له قولا لينا	١٢٧
فلا تخافوهم وخافوني	٢٢
فإذا بعد الحق إلا الضلال	١٠٠
لقد رضى الله عن المؤمنين	٣٨
لو كنا نسمع أو نعقل	١٤٤
والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله	١٦٩-١٧٠
والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم	٢٦
وأما من خاف مقام ربه	١٢١
وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم	١٠
وجزاء سيئة سيئة مثلها	١٥١
ورسلناهم نقصصهم عليك	١٦٩
وقد فصل لكم ما حرم عليكم	٩٧
وقرونا بين ذلك كثيرا	١٦٩
ولو كنتم فظا غليظ القلب	١٤٩
ولينصرن الله من ينصره	٢٣، ١٥
وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا	٢٨
ومن الناس من يشتري لهو الحديث	٩٦، ٩٤

(ب) فهرست الأحاديث النبوية

الصحيفة	
٩٥	إذا عملت أمتي خمس عشرة خصلة
٦٣	إن الله بعثنى إليكم
٩٥	إن الله حرم تعليم المغنيات
٩٣	إن الله حرم المغنية
١٠١	إنما الأعمال بالنيات
١٠٦	إن البوت لسكرات
٩٥	إن المغني أذنه بيد شيطان
٩٨	إن من أعظم الناس جرماً في الإسلام
١٣	إن هذا الدين بدأ غريباً
٣٦	دعوا لي صاحبي
١١٩	ذلك عاجل بشرى المؤمن
٣٢	فأما المؤمن — أو قال المؤمن — فيقول
١٢١	لا تغضب
١٣٧	لا تنفر
٩٤	لا يحل تعليم المغنيات
٩٥	ليكونن من أمتي قوم
١٤٩	ما بال أقوام
٩٥	من جلس إلى قينة
١٠١	من كذب على عامداً متعمداً
٢٤	نعم الادم الخل
٣٢	وأما المنافق — أو المرتاب
١٢٨	يأتى على الناس زمان
٩٦	يشرب ناس من أمتي الخمر

فهرست الأعلام

التي وردت ترجمتها في حواشي الكتاب

الصحيفة	
٩٣	ابن أبي الورد
	ابن الحوات = عبد الرحمن ابن خلف المعافري
٦٤	ابن السراج = محمد بن السري البغدادي
١٠١	ابن عبد البر
٢٨	ابن فورك
٨٣، ٢١	ابن السكتاني = محمد بن الحسن
٩٤	أبو عبيدة بن فضيل بن عياض
٩٣	أبو المرجى ضرار بن علي
٢٣	أحمد بن رشيق
٢٣	أحمد بن عباس ، أبو جعفر
٣٩	اذرباذ الموبذ
٤٣	الاسكندر الأفروديسي
٩٧	اسماعيل بن عياش
٤٤	اندروماخس
٩٥	الأويسى = عبد العزيز بن عبد الله القرشي
٢٨	الباقلاني = أبو بكر محمد بن الطيب
٤٥	بطليموس القلوذي
٦٥	ثابت بن أبي ثابت
٣٩	الحلاج = علي بن منصور
٤٥	دياسقوريدس
٦٤	أزبيدي = محمد بن الحسن
٩٦	زيد بن الحباب
٦٦	سعد بن ناشب
٣٨	سعيد (سعديا) القيومي

الصفحة	
١٠١	عبد الباقي بن بريال الحجاري
٩٥	عبد العزيز بن عبد الله القرشي = الأويشي
٢٣	عبد الرحمن بن أحمد بن بشر أبو المطرف
٩٣	عبد الرحمن بن سابط
٩٤	عبد الملك بن حبيب
٤٠	عثمان بن محامس
٥٣	عزرا الكاتب
٣٩	علي بن منصور = الحلاج
٩٦	مالك بن أبي مريم
٨٣٠٢١	محمد بن الحسن ، أبو عبد الله = ابن الكتافي
٦٤	محمد بن الحسن الزبيدي
٦٤	محمد بن النسر البغدادي = ابن السراج
٩٦	معاوية بن صالح
٣٩	هشام بن الحكم
٧٠ ، ٢٣	يونس بن عبد الله بن مغيث

فهرست المراجع

- ١ — ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء ، ط . بولاق
- ٢ — ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الملك : كتاب الصلة (المكتبة الأندلسية) ط . مدريد ١٨٨٣ هـ
- ٣ — ابن الجوزي : المنتظم ، حيدر آباد ١٣٥٨ هـ
- ٤ — ابن حجر العسقلاني : تهذيب التهذيب ، حيدر آباد ١٣٤٧ هـ
- ٥ — ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان ، حيدر آباد ١٣٣٠ هـ
- ٦ — ابن حجر الهيتمي : مجمع الزوائد ط . القدسي
- ٧ — ابن حزم : الاحكام في أصول الاحكام ط . مصر ١٣٤٥ هـ
- ٨ — ابن حزم : المحلى ، إدارة الطباعة المنيرية ، القاهرة ١٣٤٧ هـ
- ٩ — ابن حزم : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ
- ١٠ — ابن حزم : رسائل ابن حزم (مخطوطة شهيد على رقم ٢٧٠٤)
- ١١ — ابن حزم : كتاب جوامع السيرة (نسخة مصورة عن مخطوطة بالمدينة المنورة)
- ١٢ — ابن الخطيب ، لسان الدين : الاحاطة في أخبار غرناطة ، ط . مصر ١٣١٩ هـ
- ١٣ — ابن خلدون : المقدمة ، ط . بيروت ، ١٨٨٩
- ١٤ — ابن رجب الحنبلي : كشف الكربة في وصف أهل الغربة ، مطبعة النهضة الأدبية بمصر ١٣٣٢ هـ
- ١٥ — ابن سعيّد : المغرب في حلّ المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، مطبعة دار المعارف بمصر .
- ١٦ — ابن عبد ربه : العقد ، ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر
- ١٧ — ابن عساكر : تبين كذب المفترى ، نشر القدسي ط دمشق ١٣٤٧ هـ
- ١٨ — ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، ط . الحلبي ١٣٧٠ هـ
- ١٩ — ابن النديم : الفهرست ، نشر فلوجل

٢٠ — أبو الحسن النباهي : المرقبة العليا أو تاريخ قضاة الأندلس ، ط .
دار الكتب المصرية .

٢١ — أبو داود : مسند أبي داود ، مطبعة أنصار السنة المحمدية .

٢٢ — أبو علي القالي : الأمل ، دار الكتب ١٣٤٤ هـ

٢٣ — أبو نصر الحميدى : جذوة المقتبس ، نشر مكتبة الثقافة الإسلامية بمصر .

٢٤ — إخوان الصفا : رسائل إخوان الصفا ، المطبعة العربية بمصر ١٩٢٨

٢٥ — أدى شير : الألفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ١٩٠٨

٢٦ — الإسفرايينى : التبصير ، ط . مصر

٢٧ — البغدادي : خزانة الأدب ، بولاق ١٢٩٩ هـ

٢٨ — الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ، القاهرة ١٣٤٩ هـ

٢٩ — الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، محمد منير ١٣٤٢ هـ

٣٠ — ارأزي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركون ، لجنة التأليف ١٣٥٦ هـ

٣١ — السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، الحسينية ١٣٢٤ هـ

٣٢ — السيوطي : بغية الوعاة ، السعادة ١٣٢٦ هـ .

٣٣ — شهرستاني : الملل والنحل (على هامش الفصل) .

٣٤ — الصفدي : الوافي بالوفيات ط . الأستانة .

٣٥ — عبيد بن الأبرص : ديوان عبيد ط . لندن ١٩١٣

٣٦ — القفطى : إنباه الرواة ، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم ط .

دار الكتب المصرية .

٣٧ — القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط . ليبسك ، ١٩٠٤

٣٨ — القفطى : أخبار المحمدين من الشعراء (مصورة دار الكتب المصرية) .

٣٩ — المسعودي : مروج الذهب ، ط . باريس .

٤٠ — مسلم بن الحجاج : صحيح مسلم بشرح النووي ، المطبعة المصرية

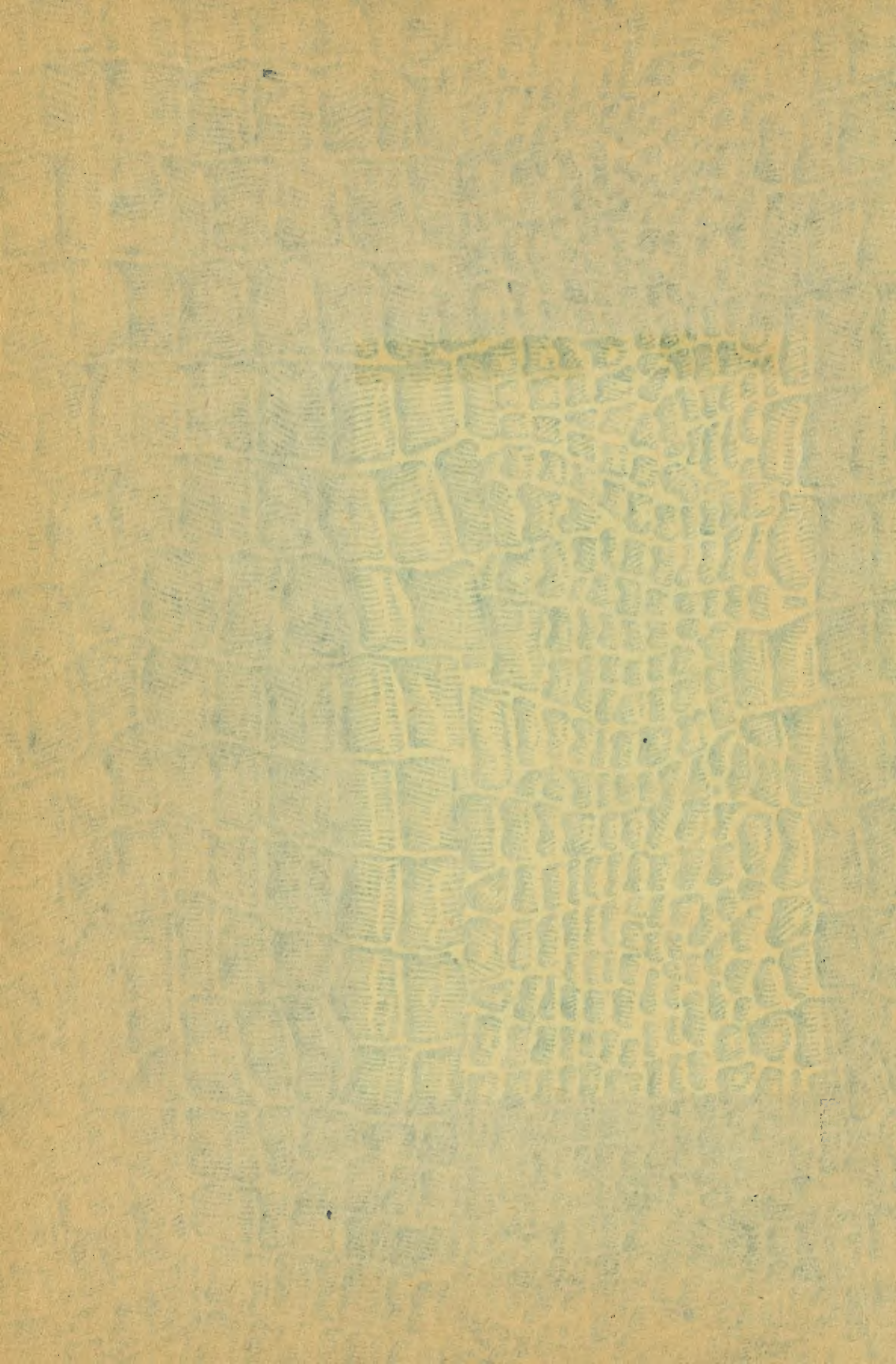
بالأزهر ١٣٤٧ هـ

٤١ — ياقوت الحموى : معجم الأديباء (إرشاد الأريب) دار

المأمون ، ١٣٢٣ هـ .

تصويب

الاصواب	الخطأ	صفحة	سطر
(الكلمة غير منقوطة في الأصل)	تقتدرون	٩	٢٥
يمكن أن تقرأ « وكما نقول نحن » ويكون	وكما يقول يحيى	٤٤	٥
الشعر لابن حزم ، والبيتان يشبهان شعره في			
الطريقة والموضوع .			
الفقيه	الفقيه	١١٥	٥
العاقل	العقل	١٢٦	١٥
ذلك الآخر	ذلك	١٣١	١٩
شاكر	شاكر	١٣٢	٢٥



DUE DATE

APR 06 2014

201-6503

Printed
in USA

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0021917434

893.7Ib58

V

v. 1

Q96781Q7

FEB 19 1982

